

وكتور محمد اللطيف محمد عابد

القرآن وقسم الإنسانية

يطلب من
مكتبة وهيب

١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

جميع الحقوق محفوظة

تتوفر حول القرآن الكريم جهود علمية وإنسانية كثيرة ، وتتناول آيات القرآن وسوره أقلام متعددة تدور حول مجالات كثيرة فيه .

فمنهم من يتناوله بالتفسير ، ومنهم من يتناوله بدراسة آيات الأحكام فيه ، ومنهم من يتتبع الناسخ والمنسوخ والقرآن إلى جانب هذه المجالات أو قبلها كتاب وصفه ربه بقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ .

فهو كتاب تتوفر فيه السمات التالية :

١ - توثيق العلاقة الدائمة بين الله وبين عباده ، ومن هنا وصفه الرسول ﷺ بأنه " مأدبة الله " ، ودعا المؤمنين إلى الإقبال على هذه المأدبة .

٢ - تأكيد الإيجابية الخاصة بالقرآن ، وتمثل في " الحركة " الخاصة بإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها .

٣ - الغاية من هذه " الحركة " هي نقل الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان . والظلمات معنى شامل لكل معاني الشر والذيلة ، كما أن النور معنى جامع لكل معاني الخير والفضيلة .

ومن هنا كان الرسول ﷺ داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومنفذاً بالقدوة والأسوة الطيبة .

كان هادياً يهدي الناس إلى طريق الحق عملاً بقوله تعالى ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ ^(١)

وكان إلى جانب ذلك بانياً يضع أساساً لأمة الفضائل ويجمع الناس حول المبادئ ويقودهم في ميادين الجهاد لحراسة هذه المبادئ ، وإذن فإن مبادئ الإسلام هي النظريات وإن أمة الإسلام هي التطبيق العملي ، فلا قيمة لها في عالم الناس ، وإن كانت في القمة من عالم المبادئ والنظريات ، ولقد بين القرآن الكريم أن حقيقة الإيمان هي التطبيق العملي

^(١) المائدة : ٣ .

لمبادئ الإسلام والرضا الكامل بعد هذا التطبيق ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ... ويسلموا تسليماً ﴾^(١) .
ولا يفيد الإسلام شئ إذا كتب الكتاب عنه بأقلامهم ، وأشاروا بمبادئه على السنة خطبائهم ... ثم لم يكن أهله صورة لمبادئه ، وإذا لم تكن حقيقة الأفعال صدى لروعة الأقوال .

ومن هنا نرى أن المبادئ التي جاء بها القرآن إنما تشكل قيماً ثابتة في نفوس المؤمنين به .

والقيم الثابتة لا تخضع لعوامل الزمن ، ولا تتأثر بمتغيرات البيئة ، ولا تتغير بتغير الأماكن والعصور .

وهذه القيم تقوم على أساس إنساني خالص ، كما أنها ترتبط بمبادئ الدين التي دعا إليها رسل الله جميعاً ، وهي من أجل ذلك موصولة بالآخرة .

أما القيم المتغيرة فإنها مرتبطة بالبيئة والزمن ، متغيرة بتغيرهما . وهي تبلى في إطار الحاجة الاجتماعية وتطور المجتمعات .

بناء على هذا الفهم لطبيعة القيم - الثابتة منها والمتغيرة - نرى أن القيم الثابتة في الإسلام هي القيم التي تتعلق بالدين وصبغة الدين في المؤمنين ، وبالأخلاق العامة المستمدة من هذا الدين .

كما أن القيم المتغيرة هي التي تتعلق بحياة الناس ووسائلهم في إقامة شئون الحياة . وهي التي يعالجها الفقهاء والدارسون تحت ما يسمى بالعرف والإستصلاح والإستحسان والمصالح المرسله وغير ذلك .

والقيم بقسميها - إشارة إلى أن القرآن الكريم جاء ليحكم الدنيا بالدين ، وليهيئ الحياة للآخرة وهذا ما نرجو أن نبرزه في الصفحات التالية .

(١) النساء : ٦٥ .

القيم الإنسانية ومناهج المفسرين

إمامه بالمناهج التفسيرية :

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ليبلغه لقومه خاصة وللناس كافة .
وهنا مرحلتان : مرحلة نزول جبريل بالقرآن على قلب رسول الله ﷺ مصداقاً
لقوله تعالى :

﴿وإنه لتنزِيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من
المنذرين ﴾ ^(١) .

ومرحلة تبليغ الرسول ﷺ ما نزل عليه إلى أمته تنفيذاً لقول الله سبحانه ﴿يأيها
الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ ^(٢) .
ولقد كان الرسول ﷺ في المرحلة الأولى حريصاً على حفظ القرآن فور تلقيه من
الوحي ، فكان يلهج بلسانه ، ويردد ما يسمع حتى لا يضيع منه شيء ، وحتى يستوعبه فلا
يشرد منه معنى .

ولكن لأن القرآن قد نزل ليخلد بين العالمين ، وليكون كتاباً لخاتم الرسالات ،
فقد طمأن الله نبيه إلى أنه يتكفل بحفظه كما يتكفل ببيانه فقال ﴿لا تحرك به لسانك
لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ... ثم إن علينا بيانه ﴾ ^(٣) .
فكان الوحي لم يتوقف عند نزول القرآن ، وإنما تكفل أيضاً ببيان هذا القرآن
وتوضيح معانيه للرسول حتى يتيسر تبليغه بعد ذلك للناس .

ومن ثم فإن المرحلة الثانية - هي مرحلة التبليغ - تبدأ اعتماداً على المرحلة
الأولى ، حيث يحمل الرسول القرآن إلى أمته ويتكفل هو - ﷺ - ببيان ما أنبهم من آياته
حيث يقول تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ ^(٤)

^(١) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤ .

^(٢) المائدة : ٦٧ .

^(٣) القيامة : ١٦ - ١٩ .

^(٤) سورة النحل : ٤٤ .

وبيان القرآن وتبليغه للناس واضحاً يسر لهم أمر التدبر فيه ، كما يهيئهم للامتنال لأحكامه ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ ^(١) .

فإذا لم يتدبروه وقد نزل بلسانهم ، ووضحت معانيه بواسطة نبيهم فإنه يلوم المفكرين منهم بمثل قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ^(٢) .

وإذا فهموه وتدبروه فقد لزمتهم الحجة ، وقد وجب عليهم ان يستقبلوا أحكامه بالطاعة وأوامره بالامتنال .

وإذا كان الرسول ﷺ قد تولى - في مرحلة التبليغ - بيان بعض المعاني القرآنية التي غابت على الناس ، فلقد كان في هذا البيان يستلهم الوحي ، ويتوقف أحياناً حتى يأتيه البيان .

ولقد روى عن عائشة قولها : " ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودة علمه إياهن جبريل " . المقصود بهذا الحديث أنها الآيات التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي ، والتي قال الله في مثلها ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ فتفسيرها إذن تفسير توقفي لا مجال لاجتهاد البشر فيه ، ومن أمثلة ذلك أصحاب الكهف ، وقصة العبد الصالح مع موسى و أخبار ذى القرنين وأجوج ومأجوج وغير ذلك .

أما تفسير المعاني القرية التي يسهل بيانها ، أو تعتمد على استقراء المقاصد الشرعية من مجموع آيات القرآن ، فإن الرسول ﷺ يتكفل ببيانها دون حاجة لتزول الوحي فيها .

وحين يجيء دور الصحابة - وهم أقرب الناس إلى الرسول - في فهم القرآن وفي تفسيره ، فإن بعضهم يتميز على البعض الآخر بفهم الآية والآيتين . فلقد قيل إن علياً - رضي الله عنه - ذكر جابر بن عبد الله فوصفه بالعلم فقال رجل : جعلت فداك ، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت ؟ قال إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى :

^(١) سورة ص : ٢٩ .

^(٢) سورة محمد : ٢٤ .

﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾^(١) .

فكان علياً يعرف فضل جابر وعلمه لمعرفته معنى هذه الآية .

التحرج في تفسير القرآن :

ومن حيث أن القرآن يتزل على رسول الله ﷺ وحيًا من السماء ، ومن حيث أن الرسول كان يتلقى تفسير بعض المعاني بوحي آخر ، أو يفسر بعض المعاني بما رآه قريباً من دلالة الشرعية المأخوذة من مجموع الاتجاه التشريعى ، فلم يكن للصحابة إذن مجال واسع لهذا التفسير .

وإذا عرض لأحدهم موقف يتطلب القول فى القرآن فإنه يتردد أن يقول فيه برأيه فلقد سئل أبو بكر عن معنى آية فى القرآن فقال : " أى سماء تظلى ، وأى أرض تقلنى إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم !! " .

وواضح من ذلك أن أبا بكر - رضى الله عنه - يتهيب أن يقول فى القرآن لا بما لا يعلم فقط بل ما لم يؤثر فيه قول الرسول ﷺ .

كما أن عمر - رضى الله عنه - قرأ على المنبر قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا هو التكلف يا عمر .

أى أن السؤال عن مثل هذا اللفظ غير المفهوم يدخل فى باب التكلف ، لأنه -

حتى إن فهم - فإنه لا يعود على قضية الإيمان بشئ كبير .

كما يندرج تحت ذلك أيضا ما روى أن رجلاً سأل ابن عباس عن يوم ﴿ كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ؟ قال له الرجل : إنما سألتك لتحديثى ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه ، الله أعلم بهما ، فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم^(٢) .

(١) القصص : ٨٥ .

(٢) أنظر مقدمة ابن كثير على تفسيره .

وهذه المواقف وغيرها كثير تدل على توقف الصحابة عند المأثور عن رسول الله في توضيح القرآن ، وخرجهم في القول بالرأى خشية الخطأ أو إخراج القرآن عن مدلوله ومعناه .

تفسير القرآن بالمأثور :

التفسير المأثور يعتمد على ما اثر عن الرسول والصحابة من أقوال في تفسير لبعض آيات القرآن ولقد كانت هذه الأقوال تصدر من الرسول أو من صحابته رداً على سؤال أو توضيحاً لمعنى قرآنى يحيطه بعض الإبهام .

والاعتماد على هذا النوع من التفسير كان ينبغى أن يكون هو الأصل في تفسير القرآن ، إذ أن الرسول ﷺ كان في حياته هو المصدر الأساسى للتفسير وكان صحابته يسألونه عن معنى الآية فيجيبهم بناء على ما أطلعه الله على علم بالمعنى المراد مصداقاً لقوله سبحانه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ ^(١) . أو كان يجيبهم بما يراه هو حتى يترل عليه الوحي فيثبت إجابته أو يصححها .

وكان التفسير بالمأثور عن الصحابة أيضاً مأموناً لأنه راجع في النهاية إلى ما عرفوه عن الرسول المؤيد بالوحي .

وقيمة هذا النوع من التفسير أنه كان يرجع إلى أسباب النزول ، فتكون الآية مرتبطة بواقعة معينة ، وتكون هذه الواقعة بعداً يحدده المقصود منها دون الاختصار على بعدها اللغوى أو معناها الدلالى . وغالباً ما يكون هذا اللون من التفسير بالمأثور مما لا مجال لإعمال الرأى فيه .

وحينئذ يكون في حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ ، لأن الصحابي لا يقول في هذه المسائل برأيه .

ومن هنا يكون هذا القسم من التفسير مما يجب الأخذ به ، ولا يجوز رده اتفاقاً وأما إذا كان تفسير الصحابي مما يكون للرأى فيه مجال ، ومما يعتمد فيه قول

(١) النساء : ١٠٥ .

الرسول ، فإنه يظل موقوفا على الصحابي نفسه ، وينسب الرأي إلى قائله ولا يتعداه إلى غيره .

وحين ذلك تختلف الاتجاهات في الأخذ عن قول الصحابي ورأيه في القرآن ، من اعتمد قوله ورأيه وأخذ عنه رأى أن الصحابي قريب العهد برسول الله ﷺ ، وأنه يَحتمل أنه سمع منه وتأثر به ، فهو حتى إذا سر برأيه فرأيه أقرب إلى الصواب ، لأن الصحابة أدركوا الناس بكتاب الله ، ومن لم ير الأخذ عن الصحابة في التفسير ، فلأنهم لما لم يرفعوه إلى الرسول فقد علم أنهم اجتهدوا فيه ، واجتهد يخطئ ويصيب والصحابة في إجتهداهم كسائر المجتهدين ^(١) .

أما أخذ المفسرين عن التابعين ، فقد ذهب كثير من العلماء إلى الامتناع عن ذلك لأن التابعين ليس لهم سماع من رسول الله ﷺ . كالصحابة ، ولأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد من النص القرآني ^(٢) . ومن هنا قد يدخل التفسير في منعطف غامض ، وتدخل إليه روافد غريبة عن مساره ، وتبعده عن الغرض المراد منه .

ولقد كثر الوضوع في التفسير بالمأثور ، حيث اختلط الصحيح بالعليل من الروايات .

ولقد روى أن أبا عصمة نوح بن أبي مريم المروزي كان يضع الأحاديث في فضل القرآن ، ويدعى أنه يفعل ذلك حسبة فسئل : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل القرآن سورة سورة ؟ فقال : إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة ، ومغازي محمد بن إسحاق ، فوضعت الحديث حسبة ، فكأن (النيات الحسنة) كانت تدخل أحيانا في وضع الحديث وفي تفسير القرآن فتكون النتيجة السيئة أنها قالت على الرسول ما لم يقله ، وأدخلت على القرآن ما لم يحتمله ، كما أن

^(١) انظر : د / محمد حسين الذهبي . علم التفسير : ٢٦ .

^(٢) السابق : ٣٢ .

الإسرائيليات قد دخلت أيضا في تفسير القرآن ، وبدأ ذلك منذ عصر الصحابة ، وانتشر في عهد التابعين ، وشغف الناس بهذه الإسرائيليات فالصقوها بالقرآن وإن كانت بعيدة عن معانيه ومراجعته .

كما تمأون كثير من الرواة في الرواية ، فلم يحصلوها برواتها واختصروا الأسانيد أو حذفوها ونقلوا الأقوال غير منسوبة إلى قائلها ^(١) .

ومن هنا تسرب الشك في التفسير بالمأثور ، لأنه إن بدأ سليما نقيًا مأخوذا عن الرسول أو عن صحابته ، فقد انتهى إلى أن تسرى فيه روايات الزنادقة من اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب .

وكان أكثر هذا الدس في قصص الرسل مع أقوالهم وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم (كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل ، وفي أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وما بعدها ، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازي) ^(٢) .

وكان من نتائج هذه الجرأة على القرآن والدس عليه من الآثار المتروكة والآراء الغريبة مما ليس فيه ، أن أصبحت (صنعة) التفسير عبثا على القرآن ، لا وسيلة إلى توضيحه .

ودخل إلى هذه (الصنعة) من ليس أهلا لها ، فأدخلوا على التفسير الصحيح ما أفسده من الخرافات والأساطير ، وأخرجوه من مجال الروايات الصادقة إلى مجالات الوضع والأباطيل.

تفسير القرآن بالرأى :

يقصد بتفسير القرآن بالرأى معنيان :

^(١) د . محمد حسين الذهبي (المصدر السابق) ٤٣ - ٤٦ .

^(٢) تفسير المنار : ٩/١ .

المعنى الأول :

إعمال الرأى أو العقل فى فهم القرآن وتأويل آياته تأويلا يتفق مع الإلتجاه الكلى للشرعية وعدم التناقض مع أدلتها المقطوع بها ، ويتجه العلماء إلى جواز هذا اللون ، لأن الله سبحانه يدعونا إلى التدبر فى فهم القرآن ، واستيعاب معانيه ومرامييه فى مثل قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ^(١) . وقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ ^(٢) .

كما ان الرسول ﷺ قد دعا لابن عباس فقال : " اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل " . فقد عطف الرسول العلم بالتأويل على الفقه بالدين ، وكلاهما مما يستخدم فيه العقل ، ويعتمد على الرأى بإستخدامه الأدلة الشرعية المعتبرة فى أصول الدين . وإذا كان الإجتهد سائغا فى إستنباط أحكام الشريعة بوجه عام ، فإن استخدام الرأى من أصحاب الرأى يكون جزءا من الإجتهد العام ، ويكون كذلك سائغا فى تفهم الاتجاهات العامة لآيات القرآن الكريم وإلا لتعطل كثير من الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن .

وفى هذا الإلتجاه كثير من مؤلفات المفسرين من أشهرها كتاب القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) وكتب أحكام القرآن للجصاص وابن العربى وألكيا المراس ، ومعانى القرآن للفراء ... وغيرهم . ويدخل تحت هذا المعنى المباح أيضا أن يفسر اللغويون لغة القرآن ، والنحويون نحوه ، والفقهاء معانيه ... وأن يقول كل واحد بإجتهاذه المبني على قوانين العلم والنظر وإن القائل على هذه الصفة لا يكون قائلا لمجرد رأيه وهواه ^(٣) .

أما المعنى الثانى :

^(١) سورة محمد : ص ٢٩ .

^(٢) سورة ص : ص ٢٩ .

^(٣) انظر علم التفسير : د. / محمد حسين الذهبي ص ٤٨ - ٥٠ ، تفسير القرطبي ج ١ / ٢٧ ، ٢٨ .

فإنه الوجه الذى يحذر منه العلماء والمشتغلون بالتفسير ، وهو القول فى القرآن عن جهل أو عن هوى ، وكلاهما يسئ إلى القرآن ويخرجه عن غايته وأهدافه الجليلة . ولقد حذر الرسول ﷺ من القول فى القرآن بمجرد الرأى فقال : من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ .

وهذا الحديث الشريف يحذر من القول فى القرآن بالرأى سواء أكان عن جهل ، أو كان عن هوى ، وقد روى الترمذى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قوله : " اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " (١) . وقد فسر هذا الحديث تفسيرين :

أحدهما : هو التفسير عن جهل ، ويتمثل ذلك فىمن يقول فى كل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين .

والآخر : هو الصادر عن هوى فى نفوس " الذين فى قلوبهم زيغ ، فهم يقولون فى القرآن أقوالاً يعلمون أن الحق فى غيرها ، معنيون بتهديد الرسول ﷺ " فليتبوأ مقعده من النار " .

والقرآن الكريم يعرض للموقف المطلوب والموقف المرفوض من متشابه القرآن فى قول الله سبحانه «... فأما الذى فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا » (٢) .

ولقد حمل بعض أهل العلم معنى القول فى القرآن بالرأى على أنه الهوى والتشهى ، ويعنون بذلك أن من قال فى القرآن قولاً يوافق هواه ، ولم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب ، فإنه قد أخطأ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه ، ويحرم هذا الإتجاه لأن القائل به قد تكلف ما لا علم

(١) صحيح البخارى باب العلم ٣٨ ، صحيح مسلم كتاب الزهد / ٧٢ .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

له به ، وسلك غير ما أمر به .

(فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر ، لأنه لم يأت الأمر من باب كمن يحكم بين الناس على جهل فهو في النار ، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ)^(١) .

ولقد روى عن عائشة قالت : ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيات بعدد علمه إياهن جبريل .

وقال ابن عطية : معنى هذا الحديث في مغيبات القرآن وتفسير مجمله ونحو هذا كوقت قيام الساعة ، وعدد النفخات في الصور ورتبة خلق السموات والأرض وهذه الرواية توضح حدود القول بالرأى في القرآن .

فلا ينبغي للإنسان المسلم أن يقول في القرآن برأيه في مسائل الغيب ولا في المسائل الأخرى التي فصل فيها القرآن أو حسمتها السنة بناء على وحى متزل ، ولقد قال الله سبحانه لنبيه ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ فأضاف الله سبحانه البيان إلى رسوله ﷺ .

علم من ذلك أنه ليس لغیر الرسول شيء من البيان لمعاني القرآن .
وتبقى بعد ذلك مساحة محدودة للإنسان لفهم القرآن تتمثل في الطاقة اللغوية لإدراك التراكيب والمعاني التي تعبر عنها آيات القرآن الكريم .

تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة :

إن من أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه يفصل في مكان آخر ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى في وصف القرآن ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾^(٢) . وقوله ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾^(٣) . وما أهم في مكان فإنه يوضح في مكان آخر وهكذا .

^(١) مقدمة ابن كثير في تفسيره .

^(٢) سورة فصلت : ٣ .

^(٣) سورة الأعراف : ٥٢ .

وليس أقدر على تفسير النص من صاحب النص نفسه ، ولقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ وتكفل الله ببيانه كما تكفل بحفظه ، وذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ ... إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾^(١) .

فإذا لم يهتد القارئ إلى بيان في القرآن ، فإنه يبحث في السنة ، حيث تكون السنة شارحة للقرآن وموضحة له .

ولقد قال الإمام الشافعي : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

ومن أجل هذا قال رسول الله ﷺ : "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه " والسنة مثل القرآن من حيث التناول على رسول الله بالوحي .

والأمثلة على تفسير القرآن كثيرة نسوق بعضها فيما يلي :

قوله تعالى ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾^(٢) . نجد تفسير هذه (الكلمات) وبيانها في قوله تعالى ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾^(٣) . وكأن هذه الآية استغفار عن الذنب الذي وقع فيه آدم ، وتلك هي (الكلمات) التي تلقاها آدم من ربه فرددها فتاب الله عليه . وهي من أجل هذا تصلح إستغفارا عاما يردده عباد الله التائبون رجاء عفو الله وغفرانه .

قوله تعالى ﴿ ... ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ﴾^(٤) فإن الاسم الموصول في هذه الآية " الذين " مفسر في آية أخرى بأنه يعني أهل الكتاب وذلك قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾^(٥) . اخرج أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال : " لما نزل قوله تعالى :

(١) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(٢) البقرة : ٣٧ .

(٣) الأعراف : ٢٣ .

(٤) النساء : ٢٧ .

(٥) النساء : ٤٤ .

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ ^(١) . شق ذلك على الناس فقالوا : وآينا لا يظلم نفسه ؟ فقال الرسول ﷺ : " إنه ليس الظلم الذى تعنون ، ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ^(٢) " .

فالظلم هنا يقصد به الشرك ، ومعنى ذلك أن الآية فى سورة لقمان قد فسرت الآية فى سورة الأنعام .

كما نجد أمثلة كثيرة أخرى لتفسير القرآن بالسنة نذكر منها - على سبيل المثال - ما يلى : -

أخرج الترمذى عن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر الوارد فى قوله تعالى ﴿ ... وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله ﴾ ^(٣) فقال الرسول ﷺ هو يوم النحر ، ولا يملك تفسير هذا اليوم إلا الله ، وإلا رسول بوحي من الله سبحانه وتعالى ، حيث السؤال عن هذا اليوم سؤال عن شئ غيبى ، والإجابة عن هذا السؤال أمر توقيفى وأمر الغيب " لا يعلم تأويله إلا الله " .

وأخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ^(٤) . ثم يقول بعدها : ألا وإن القوة الرمى فقد فسر رسول الله القوة بالرمى ، وهذا التفسير يتسع لكل وسائل الرمى ، كالرمى بالسهم والنبال والحجارة فى القدم ، والرمى بالنيران والقنابل والصواريخ فى العصر الحديث .

ويقول الله سبحانه ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ^(٥) .

(٢) لقمان : ١٣ .

(١) الأنعام : ٨٢ .

(٣) التوبة : ٣ .

(٤) الأنفال : ٣ .

(٥) يونس : ٢٦ .

ويقول الرسول ﷺ في تفسير ذلك : "الحسنى : الجنة . والزيادة : النظر إليه تعالى . ولا يملك هذا التفسير أيضا إلا الرسول الذي يوحى إليه .

ويقول الله سبحانه ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ^(١) وقد فسر الرسول ﷺ استطاعة السبيل إلى الحج بالزاد والراحلة ^(٢) .

هذه أمثلة قليلة لتفسير كثير للقرآن بالقرآن أو للقرآن بالسنة ، وهى - كما ذكرنا - من أحسن طرق التفسير . ولكننا إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة فإننا قد نجد ذلك فى أقوال الصحابة وهم أقرب الناس إلى الرسول ، كما أنهم - بهذا القرب - أدرى بموضوع التفسير ، ولقد قال ابن مسعود : " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن " .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا " ^(٣)

وإذن فإن تعرض الصحابة لتفسير القرآن ليس آتيا من فراغ ، وإنما هو يعتمد على قريهم من رسول الله ﷺ ، وعلى سماعهم منه وعلى تلقيهم لتفسيره وأقواله فى القرآن وهو الذى نزل عليه كما نزل عليه تفسيره . وفى ذلك يقول الله سبحانه ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ ^(٤) .

ولقد بين ابن تيمية أن تفسير القرآن يكون على نوعين :

النوع الأول :

وهو الذى يستند على النقل فقط مما قدمناه فى تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة ، فإذا كان منقولا نقلا صحيحا عن النبى قبل ، وأما إذا نقل عن أهل الكتاب ككعب

^(١) آل عمران : ٩٧ .

^(٢) أخرجه الحاكم والترمذى وابن ماجه .

^(٣) مقدمة ابن كثير على تفسيره ، تفسير ابن جرير ج ٢ / ٧٢ . (٤) النساء : ١٠٥ .

ووهب توقفنا عن تصديقه وتكذيبه لقول الرسول ﷺ : " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم " .

النوع الثاني :

وهو ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه ما لا يمكن ذلك .

ويأتى الخطأ فى هذا النوع من جهتين :

إحداهما : حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدوها لتأييدها به كما يفعل ذلك أصحاب الفرق وأتباع المذاهب فى الأصول والفروع المتعصبون لها .

وهم حين يفعلون ذلك فإنهم يجعلون مذاهبهم أصولا والقرآن فرعاً لها يحمل عليها .

ثانيهما : التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عز وجل ، والمترى عليه والمخاطب به ^(١) .

ويرى الإمام محمد عبده ^(٢) أن هذا النوع الأخير وهو اتجاه التفسير اللغوى الذى لا يقصد به إلا حل الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان ما ترمى إليه العبارات والإشارات من النكت الفنية ... نوع جاف مبعد عن الله وعن كتابه وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيراً ، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعاني وغيرها .

وفى مقابل هذا النوع المرفوض نوع آخر يكون فرض كفاية حيث يستجمع المفسر فيه شروط التفسير ، ويذهب فيه إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ليتحقق فيه معنى قوله تعالى ﴿ هدى ورحمة ﴾ ونحوهما من الأوصاف .

فالمقصد الحقيقى وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتمام بالقرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المترلة فى وصفه وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية

^(١) انظر تفسير المنار ج ٨/١ - ١٠ .

^(٢) السابق : ٢٢ .

والإصلاح ، ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر في سهولة التعبير ومراعاة إفهام صنوف القارئ ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ^(١) .

وخلاصة ذلك أن القرآن ما دام قد نزل هداية للإنسان ، وأن الغاية من نزوله تتمثل في قوله سبحانه ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ ^(٢) .

فإن فيه - كما ترسم هذه الآية علاقة السماء بالأرض المتمثلة في نزوله إلى الناس وهو - كما وصفه الرسول - " مآدبة الله فأقبلوا من مآدبته " .

وفيه الحركة المتمثلة في إخراج الناس من كل ظلمات الحياة إلى نور الإيمان في الدنيا ونور الجزاء في الآخرة ، وفيه مصدر الهداية المتمثل في قوله تعالى ﴿ بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

وتفسيره إذن يجب أن يكون في هذه الضوابط حتى لا ينحرف به إلى غير ما أراد الله من هذا القرآن ومن أجل الإنسان .

ولقد لخص مفسر كبير هو الطبري في كتابه (جامع البيان في تفسير القرآن) القضايا التفسيرية في كتابه على النحو التالي ^(٣) .

١ - شرح الحديث الشريف " أنزل القرآن على سبعة أحرف " والانتهاء من ذلك إلى أن معناه أنزل القرآن بسبع لهجات من لغة العرب .

٢ - بيان اللغة التي نزل بها القرآن والرد على من قالوا إن فيه كلمات غير عربية .

٣ - وجوه تأويل القرآن ، وما يمكن الوصول إليه ، وما لا يمكن الوصول إليه .

^(١) انظر تفسير المنار ج ١ / ١٠-١١ .

^(٢) إبراهيم : ١ .

^(٣) انظر : الطبري . د / أحمد محمد الحوفي ' سلسلة أعلام العرب / ١٠٨ - ١١٧ .

فالتأويل في رأيه على ثلاثة أوجه :

أحدهما : ما استأثر الله بعلمه ، وحجب معرفته عن جميع خلقه مثل وقت قيام الساعة والنفخ في الصور .

وثانيهما : ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ دون سائر أمته ، فلا سبيل إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول لهم تأويله .

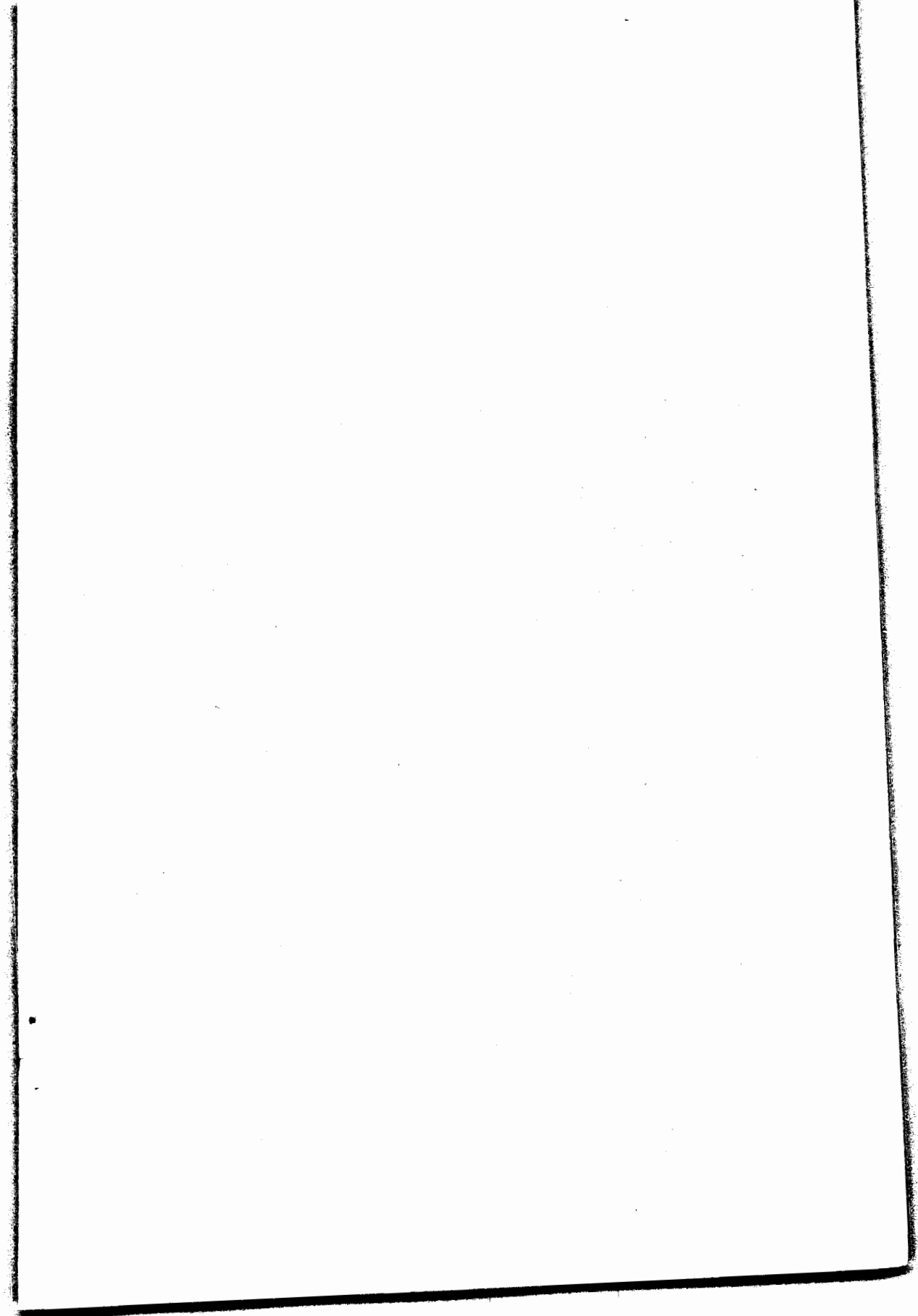
وثالثهما : ما كان علمه عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه .

فصل فى بعض الأخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة وواضح من عرض هذه القضايا أنها داخلة فى علوم القرآن وعلوم التفسير دون الدخول فى التفسير ذاته ، كما ظهر فى تفسير القرآن ما يسمى بالتفسير الموضوعى وهو الذى يتناول جانباً واحداً من جوانب القرآن بالدراسة والبحث ، وغالباً ما تكون الدراسة لموضوع معين متناوله له من كل الجوانب ، مستوعبه لكل ما فيه من جزئيات ربما لا يتاح تناولها فى التفسير العام .

ومن أمثلة هذا اللون من التفسير ^(١) :

- | | |
|-----------------------------|--|
| - التبيان فى أقسام القرآن . | - لابن القيم . |
| - مجاز القرآن . | - لأبى عبيدة . |
| - مفردات القرآن . | - للراغب الأصفهاني . |
| - الناسخ والمنسوخ | - لأبى جعفر النحاس |
| - أسباب نزول القرآن | - لأبى الحسن الواحدى |
| - أحكام القرآن | (للحصص - ابن العربى - ألكيا المهراس) . |

^(١) انظر : علم التفسير . د/ محمد حسين الذهبي / ٦٩ .



من نماذج القيم الإسلامية

- قيم الدين .
- قيم الأخلاق .
- قيم الاجتماع .

تكوين القيم من خلال بناء العقيدة

ضرورة الدين للحياة في كل العصور

منذ أربعة عشر قرنا من الزمن جاء رسول الله ﷺ بالاسلام من عند ربه ، فخطب به قوما من الأميين الذين إرتبطت حضارتهم وقيمهم بالجزيرة التي عاشوا فيها ، وبالرحلات التي قاموا بها بين اليمن شتاء والشم صيفا ، ثم فتحوا عيونهم على هذا الدين الجديد ، فرأوا شيئا جديدا ، وفتحوا آذانهم فسمعوا مبادئ جديدة ، وأحسوا أن هذا الدين ينقلهم إلى حضارة واسعة تمتد ظلها إلى الحياة والمجتمع حيث تغير لهم كثيرا من العادات والتقاليد .

فبينما كان الجاهلي يفتخر بالعدوان على جيرانه ، ويرى في هذا العدوان مظهرا من مظاهر القوة والمنعة ، جاء الاسلام فدعا إلى العفو والتسامح ، وجعله من مكارم الاخلاق ، وسمع العربي مثل قول الله عز وجل ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ ^(١) .

وأخرج الاسلام العرب من حدود إجتماعية ضيقة إلى أفاق عالمية واسعة ، وكون لهم فكرا وثقافة كما بنى لهم مجدا وحضارة .

ولكن إذا كان قد فعل ذلك لقوم من الأميين والمجتمعات البداءة منذ قرون ، فماذا يمكن ان يقدمه لأبناء القرن العشرين رواد المخترعات وبناء الحضارات ؟ .

إن إنسان القرن العشرين قد سيطر على الأرض فأستخرج كنوزها ، وسخر البحر فأكتشف أعماقه ، وهتك حجاب الفضاء فأستقر على القمر ، وهو بين ذلك يفرض إرادته وينشر سلطانه على موجات الأثير وأسلاك البرق ، ويضرب بجذور حضارته في أعماق العالم .

فماذا يمكن أن يصنع له الدين بعد ذلك وما ضرورة الدين لحياته الحديثة

^(١) فصلت : ٣٥ .

المتطورة ؟ قد يكون لهذا التساؤل وجاهته إذا كان مدلول الحضارة ثابتا لا يتغير ، وإذا كانت الغاية التي يسعى إليها الإنسان هي الغاية التي تسعى إليها الأديان ، ولكننا حيث نتأمل الطريق الطويل الذي سلكه أنبياء الله وهم يحملون الدين إلى أقوامهم تجدهم لا يخدعون الناس ولا يعدونهم بالطعام الشهى والكساء الفاخر ، ولكنهم يعرضون عليهم الحقيقة التي بعثوا بها من عند الله فيقول نوح لقومه ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول أنى ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ (١) .

وحين حاول المشركون أن يجروا رسول الله ﷺ إلى لون من التعجيز المادى فقالوا له ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار ... ﴾ إلى آخر هذه التحديات ، كان جواب الرسول عليهم ﴿ سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ (٢) .

وإذن فإن ضرورة الدين للإنسان فى كل عصر لا تتمثل فى الرغبة الذى يأكله أو القرش الذى ينفقه ، أو الثوب الذى يرتديه ولكنها تتمثل فى مصاحبته لهذا الإنسان فى طريق الحياة موجهها ومرشدا وصديقا ، وفى تنشئته على مبادئ دائمة وعقيدة ممتدة وإنسانية لا يحدها قطر من الأقطار ولا تتوقف على جيل من الأجيال ، ومن هنا لم يكن الإسلام مقصورا على طقوس معينة ، فالإسلام هو الحياة .

وإذا كان الدين ضرورة حياة الناس فإن الدين فطرة فى طباعهم ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ (٣) . وهو صبغة تنتظم الحياة بمدلولها الشامل وتعم الإنسانية على مسارها الطويل ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (٤) .

(١) هود : ٣١ .

(٢) الإسراء : ٩٢ .

(٣) الروم : ٢٠ .

(٤) البقرة : ١٣٨ .

وإذا كان الدين بوجه عام ضرورة لحياة الإنسان ، وفطرة في طبيعته وصبغة في نفسه ، فما موقع الإسلام من هذا التعريف الشامل ولماذا اعتنقنا الإسلام بالذات ؟ .
الواقع أننا لما انتهينا إلى أن الدين فطرة في نفس الإنسان وأن في طبيعته منذ الأزل شيئا يبحث عن الله المعبود فإننا نتفق إلى جانب ذلك على أن الدين عند الله الإسلام ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ^(١) .

ولقد ذكرت كلمة الإسلام قبل نبينا محمد ﷺ ، وهى تعنى الاتجاه الصحيح والتسليم الكامل لله رب العالمين يقول الله تعالى ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ ^(٢) . ويقول ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ، قالوا : نعبد الهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ ^(٣) .

ويبحث سليمان رسالته إلى ملكة سبأ بقوله : "ألا تعلوا على وائتوني مسلمين" "وحين تؤمن هي تقول : "رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين" ^(٤) .

ولقد جاء الاسلام مصدقا للأديان كلها ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ^(٥) .

وإذا كانت الأديان من عند الله وإذا كان الأنبياء جميعا سفراء الله إلى البشر فإننا مكلفون بأن نعتنق آخر الأديان ونتبع آخر الأنبياء .

^(١) آل عمران : ٨٥ .

^(٢) آل عمران : ٦٧ .

^(٣) البقرة .

^(٤) النمل : ٣١ - ٤٤ .

^(٥) الشورى : ١٣ .

والإسلام - إلى جانب ذلك - دين يتفاهم مع طبيعة الإنسان ويحترم آدميته ويعترف بحقوقه في الحياة ويشرع له ما ينظم أمر دنياه كما يرسم له ما يهيئ أمر آخرته ، والمسلم يسائر فطرته حين يعتنق الإسلام ويمضي في طريقه في الحياة وهو يشعر أن هذا الدين صديق له إن أحس بوحشة من الناس ، ومرشد له إن تفرقت به السبل ، ويقرأ في كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى ﴿ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ ^(١) . وإذا كنا قد انتهينا إلى ضرورة الدين لإقامة الحياة والسمو بكيان الإنسان وإذا كنا قد إرتضينا الإسلام ديناً حيث هدانا الله إليه وارتضاه لنا ديناً ، فإن ذلك يقتضى أن نفتتح اقتناعاً كاملاً بالإسلام منهجاً وطريقاً ، وإلى أن نؤمن به إيماناً واعياً فكرياً وتطبيقاً إلى أن ندافع عنه دفاعاً حاسماً ضد خصومه الجاهلين به أ والمعاندن له ، وهذا يدعونا أيضاً إلى الاعتقاد الجازم بقدرة الإسلام على مواجهة التيارات العصرية وحل المشكلات العالمية .

وليس هذا الإيمان ضرباً من التعصب الأعمى أو العصبية المذمومة ، فإنه ليس من الإيمان أن نسخر من معتقدات غيرنا ، أو أن نسفه آراء المخالفين لعقيدتنا . إنما الإيمان الذى نقصده هو حب الدين والارتباط بنظامه وشريعته ، والإلتزام بأحكامه وتعاليمه .

وهذا هو الإسلام الذى نعتقده ونؤمن به ، دين مصدق للأديان كلها ، وفطرة فطر الله الناس عليها ، ومرشد ينظم أمر الدنيا والآخرة وهو الدين الخاتم الذى ختم الله به الرسالات والشرائع ونبه هو خاتم المرسلين .

والإسلام بهذا الفهم عقيدة معروضة على العالم ومنهج شامل لكل مرافق الحياة ، فقد بعث الله به رسوله إلى الناس كافة ، وبث فيه من المقومات ما جعله صالحاً لكل عصر موجهها إلى كل جيل ، ونحن أخيراً مكلفون بأن نأخذ به برفق فإنه متين ، " ولن يشاد الدين أحد الا غلبه " وأن نعرضه أيضاً على الناس برفق مستضيئين بقول الله

^(١) النجم : ١٣ .

عز وجل ﴿وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا
أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير﴾ ^(١) .
وقوله ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني وسبحان
الله وما أنا من المشركين﴾ ^(٢) .

^(١) الشورى : ١٥ .

^(٢) يوسف : ١٠٨ .

تكريم الإنسان في ظل الإسلام

يقول الله عز وجل ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ ^(١) .

وهذه الآية الكريمة تشريف للإنسان وشهادة بسمو منزلته عند ربه سبحانه وتعالى ولكن ما المقصود بالتكريم في هذه الآية ؟ إن البعض يرى أنه حمل الناس في البحر والبر ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم على كثير من المخلوقات أى أن آخر الآية يفصل أولها ويفسره ، ولكن عطف هذه النعم على تكريم الإنسان يفيد أنهما شيان متغايران فإن تكريم الله للإنسان تكريم للمعنى الانساني السامى فيه ، وتقدير للجانب النبيل في طبيعته - ولعله سبحانه - من أجل ذلك قد جعله في الأرض خليفة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ ^(٢) .

وهذا التكريم أيضا بهذا المدلول يفسره اصطفاء الله رسلا من الناس يبلغهم رسالته ويصلهم به عن طريق ملائكته ، ويجعلهم سفراء بينه وبين عبادهم ، بل إن تكليف الله للإنسان في الدنيا ومحاسبته في الآخرة ليدل على كرامة هذا المخلوق وعلو منزلته ، لأن تكليفه شهادة بمجدارته وشرفه على كثير من المخلوقات كالجماد والطير والحيوان .

ولذلك فإن القرآن ينعى على الذين عطّلوا مواهبهم وتجاهلوا العطايا النفسية الممنوحة لهم فلم يستجيبوا للداعى الله ، وعجزوا عن استيعاب ما أنزل الله - يقول عز وجل ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ^(٣) .

^(١) الإسراء : ٧٠ .

^(٢) البقرة : ٣٠ .

^(٣) الأعراف : ١٧٩ .

وإن الميراث الذى يتركه رسول الله ﷺ للمسلمين فصاروا به خير أمة أخرجت للناس ، لم يكن ثروة مما تعارف عليها الناس ولم يكن عرضا من أعراض الدنيا ، وإنما كان هذا الميراث مبادئ مسوقة للبشر يتعاملون بها على الأرض ويتصلون من خلالها بالسماء ، ولقد روى أن أبا هريرة : مر يوما بسوق المدينة فقال : ما أعجزكم يا أهل السوق قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث الرسول يقسم ، فبادروا ليأخذ كل منكم نصيبه قالوا : وأين يقسم ؟ قال : بالمسجد .. فدخلوا المسجد مسرعين ، وخرجوا فقالوا : يا أبا هريرة ، ما رأينا تركة تقسم . قال : فماذا رأيتم ، قالوا : رأينا قوما يصلون وقوما يقرءون وقوما يتدارسون الحلال والحرام ، فقال : ويحكم ، فهذا هو ميراث الرسول ﷺ .

وهذا الفهم يدل على احترام كيان الإنسان الذى يحيا بمبادئه لا بشهواته ، ويعيش على سمو عقيدته لا على سعار غرائزه ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ ^(١) .

فإذا كرم الله عباده هذا اللون من التكريم ، فإنه يدعوهم إلى أن يكرموا أنفسهم وأن يقدروا المنح الإلهية الميثوقة فيهم ، فالحاكم يحترم المحكومين لأنه واحد منهم غير مفروض عليهم والمحكومون يحترموا الحاكم لأنه يمثلهم ويسهر على مصالحهم ولقد نظم أبو بكر رضى الله عنه عند العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى خطبته المشهورة حيث قال : " اطيعوا ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم " .

هذا بين الحكام والمحكومين ، أما بين الناس بعضهم البعض الآخر ، فقد دعا الاسلام إلى الحب فى الله وبشر الرسول ﷺ المتحايين فى الله بالجنة ، فنصب لهم كراسى حول العرش ، ويفزع الناس وهم لا يفزعون .

^(١) الأنعام : ١٢٢ .

وهي الإسلام عن الشحناء والبغضاء فقال الرسول ﷺ " لا تشاحنوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا .. وكونوا عباد الله إخوانا " . وبغض في الغيبة لأنها اعتداء على الغائب وانتقاص من كرامة المغتاب ، كما بغض في احتقار الإنسان لأخيه الإنسان ، وبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه .

وهذا يشير إلى أن كيان الإنسان في الإسلام مصون وبأن كرامته في ظل عقيدته مضمونه ، وبأنه بهذا الدين يزكي الجانب الإنساني فيه ، وبغير هذا الدين يرتد كما يقول القرآن « أسفل سافلين » .

ولقد جاءت الأديان كلها تحرر وجدان الإنسان من العقائد الفاسدة وتحرر ارادته من الطواغيت المتسلطة ، ونطلق إسارة من عبوديته لغير الله ، ولقد اجتمعت كلمة الأنبياء جميعا على مبدأ واحد وهو عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، فنجد نوحا يقول لقومه « إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله » ^(١) .

وهودا يقولها لقومه « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ^(٢) . وكذلك صالح ولوط وشعيب لأقوامهم ، ويأتي إبراهيم فيستنكر على قومه عبادة الأصنام قائلا « ماذا تعبدون أثفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين » ^(٣) .

ويسجل القرآن حوارا بين موسى وفرعون يتمثل فيه صمود العقيدة الصحيحة وعلوها على الإدعاء المذموم « قال فرعون : وما رب العالمين ، قال : رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين ، قال لمن حوله : ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذي أرسل اليكم لجنون ، قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » ^(٤) .

وحول هذه الحقيقة أيضا نسمع قول الله عز وجل والخطاب للمسيح عليه السلام

^(١) هود : ٣٥ - ٣٦ .

^(٢) هود : ٥٠ .

^(٣) الصافات : ٨٥ - ٨٧ .

^(٤) الشعراء : ٣٣ - ٣٨ .

«وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذون وأمي ألهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم» (١) .

ثم يأتي الإسلام تنويجا لهذا المنهج الرباني وإتماما لهذا البيان الذي أسس على العقيدة الصالحة وينادي نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ببناء لأهل الكتاب «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (٢)

وإذا كنا هكذا قد رأينا الأديان كلها قد وجهت عنايتها الأولى إلى تحرير عقيدة الانسان من الزيف ، فذلك لأن تحرير العقيدة للإنسان هو الخطوة الأولى لتحرير الإنسان نفسه ، فإنه إذا عبد الله وحده ولم يشرك به شيئا ، تحرر ضميره من الشك ، وتحررت إرادته من الضعف ، وتحررت نفسيته من الخوف ، ووقف في وجه كل تحديات الحياة يحمل عقيدته في قلبه ، ويضع عزمه نصب عينيه ، ولعل هذا هو تفسير رسول ﷺ "" إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي . ""

هذه العقيدة الصحيحة في نفس المسلم كفيلة بمحو ما عداها من العقائد الزائفة ، وإشراق معنى الوجدانية في قلب المؤمن قادر على طمس كل الخواطر الزائفة وحين تتجسد الحقيقة الألوهية في المشاعر تتحطم فيها كل الأوثان ، سواء أكانت هذه الأوثان من حجارة أو من الثروة أو من البشر .

ومن هنا نشأ الصدام بين الرسل وهم أصحاب الدعوات وبين المكذابين وهم أصحاب السلطات ، ولقد سجل القرآن أكثر من صورة لهذا الصدام «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى

(١) المائدة : ١١٥ - ١١٦ .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

وأُميت ، قال إبراهيم فإن الله يأبى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴿ وكان فرعون موسى رمزا على العناد والتكذيب ﴾ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴿ ^(١) .

ومن خلال هذا الصدام أيضا نحس السر فى تمسك اصحاب الدعوات بطريقتهم وإن ساروا فيه على الأشواك ، فهم بأيامهم قد تحرروا من كل الخوف ، وبصيرهم أستعذبوا كل بلاء ، وكان حداثهم على طريق الله مثل قوله عز وجل ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ^(٢) .

وإذا جاز أن تكون الفلسفات المختلفة أفكارا مجردة تخالط العقل وتصافح الوجدان ، فليس الإسلام محسوبا - بالطبع - من هذه الفلسفات ، لأنه جاء دينا ، والدين لا يساق إلى الانسان فلسفة ضارية فى الخيال أو أرقاما مغرقة فى المادية ، ولكنه جاء هداية إلى الناس ينهد لهم طريق الحياة ، ويمد لهم هذا الطريق حتى يصلهم بالآخرة . ولقد لخص القرآن الكريم الغاية من نزوله على رسول ﷺ وذلك حيث يقول الله عز وجل فى جزء من آية كريمة ﴿ ... كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ ^(٣) .

ويتضح لنا كلما أمعنا النظر فى آيات القرآن الكريم أن الاسلام يصور حقيقة الايمان فيجعل شطرين لا غنى لأحدهما عن الآخر : شطرا عقائديا يتمثل فى الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

^(١) غافر : ٣٧ .

^(٢) العنكبوت : ٢ .

^(٣) إبراهيم : ١ .

وشرطاً سلوكياً يتمثل في الترجمة العملية عن الشرط العقائدى ، بالإمتثال لأوامر الله ، والألتزام بتكاليف الإسلام ، وليس الإيمان كما قال الرسول ﷺ بالتمنى ، ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل ، ونقول أنه لا غنى لأحد الشطرين عن الآخر ، لأن الإيمان بلا عمل إيمان عقيم ، والعمل بلا إيمان عمل مردود ، ولا يتصور الإسلام إيماناً خالصاً لا يحرك صاحبه إلى العمل الخلاق والسلوك القويم كما لا يقبل عملاً لا يقوم على قاعدة صلبة من الإيمان بالله .

ويقول الله عز وجل ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فإنهار به في نار جهنم ﴾ ^(١) .
وعندما اهتدى المؤمنون إلى الله فهتفوا من قلوبهم ﴿ ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ .

وعندما أتجهوا إليه أن يتجاوز عن زلتهم ويغفر لهم ذنوبهم .. ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ وعندما طلبوا منه النصر الذى وعدهم إياه .. ﴿ ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ كانت استجابة الله لهم مشروطة بالعمل والجهاد في سبيله ، والصبر على بلاء الدعوة إليه .. ﴿ فأستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ ^(٢) .

فالإيمان هنا إيمان مقترن بالعمل ، والعمل هنا عمل صالح يستظل بالإيمان ، ولقد قيل لرسول ﷺ قل لى في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : " قل آمنت بالله ثم أستقم " . فالاستقامة مطلوبة بعد الإيمان . استقامة على حقيقته والتزام بأعبائه وأرتباط بمبادئه .

^(١) سورة التوبة : ١٠٩ .

^(٢) آل عمران : ١٩٤ .

وإن سلوك الفرد في ظل الإيمان يجب أن ينعكس على المجتمع رحمة وبراً وتعاوناً ،
فالفرد في تصور الاسلام لبنة في بناء المجتمع ، وكلما كانت اللبنة صالحة كان البناء قوياً
متيناً ، ولا يرحب المجتمع برجل كثير الصلاة كثير الصيام ، ولكنه قليل النفع لإخوانه ،
سريع الإيذاء بلسانه ، فصورة هذا الرجل كصورة المرأة التي عرضت على الرسول ﷺ
والتي تصوم وتصلى ، وتؤذى جيراتها بلسانها ، فقال : هي في النار ، فلم ينفعها صيامها
ولم تنفعها صلاتها ، حيث كان الصيام كفيلاً بتطهير سلوكها كما طهر جوفها ، وكانت
الصلاة كفيلاً بكفها عن العدوان لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلما لم تتأدب
بآداب الصلاة ، فكأنها لم تصل ولم تصم وكان جزاؤها النار .

وخلاصة القول : ان سلوك الفرد المسلم ترجمة عملية لمبادئ الاسلام ، وتنفيذ
واقعي لهداية القرآن ، وإذا صار بين الناس كان الصورة المادية على الأرض للمبادئ
الروحية في الكتاب داخله إيماناً واعتقاداً ، وقيم الدنيا من خارجه سلوكاً وتحصيلاً .

والإنسان في هذه الحياة الدنيا يحرص - ضمن ما يحرص - على شيئين : رزقه
وأجله ، وهو بصدد البحث عن الرزق يقرأ قول الله عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض
إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ^(١) .

وهو أيضاً من خلال حرصه على أجله قد يؤمن بأن الأجل محدود ، وبأن عمر
الإنسان محدود وأنه ﴿ وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ^(٢) .

وقد يؤدي به الفهم إلى القعود عن طلب الرزق ما دام مكفولاً ، وإلى الوقوف
في وجه الأخطار ما دام العمر محدوداً ، وهذا لا شك فهم قاصر لمعنى كفاية الله الرزق
وتحديد الأجل ، ولقد سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ : علام نعمل وقد تكفل الله
بالرزق ؟ فقال : أعملوا فكل ميسرماً خلق له ، ولقد كان عمر يقول : " لا يقعد أحدكم
عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقني فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة " .

^(١) هود : ٦ .

^(٢) الزاريات : ٢٢ .

وإذا كان الله قد تكفل بالرزق لكل دابة في الأرض ، فإن هذا الرزق لا يجري على الكسالى والخاملين ، ولكنه يجري على الطالبين العاملين ﴿ وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ ^(١) ولقد كان أنبياء الله يعملون ، وكانت لهم وسائلهم المختلفة في طلب الرزق ، وهم بذلك يرسمون الطريق للسالكين ، ويضربون المثل للمقتدين ، فيقول القرآن عن داود ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ ^(٢) . وقد كان النبي عليه السلام يقول : " ما من نبي إلا وقد رعى الغنم " .

والسعى على الرزق طبيعة في نفس الانسان ، لأنه صادر من حرصه على حياته وهذا الحرص فطرة مركبة فيه ، والاسلام يقر على ذلك بل يدعو اليه فهو يدعو إلى طلب الرزق في مثل قول الله عز وجل ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ ^(٣) . ويذكره بالسعى في هذا الطلب ألا يدخل وقت الصلاة في وقت السعى فيقول تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ ^(٤) .

ولكن الانسان أيضا وهو في طريقه إلى البحث عن رزقه قد ينسى غايته السامية أو يتجاهل رسالته على هذه الأرض فلا يتحرى الرزق الحلال ولا يبحث عن اللقمة الطيبة ، وحينئذ لابد من تذكيره بشفافية الروح التي بين جنبيه ، ونبيل الغاية التي يعيش من أجلها ، وبضرورة التحرى عن المطعم الحلال والمشرب الحلال ، فعن أبي هريرة أ، رسول الله ﷺ قال : " أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله امر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال ﴿ يأيتها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ﴾ ، وقال ﴿ يأيتها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث

^(١) الأعراف : ٣٤ .

^(٢) الأنبياء : ٨٠ .

^(٣) الملك : ١٥ .

^(٤) الجمعة : ١٠ .

أغبر ، مطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ... يمد يده إلى السماء : يا رب يا رب .. فأنى يستجاب له ؟ " فإن رسول الله ﷺ يستبعد أن يستجيب الله لمثل هذا الانسان الداعى ، لأن الدعاء عبادة ، بل هو مخ العبادة كما قال الرسول والعبادة لا بد أن يتهياً لها الانسان بطهارة النفس كما يمكن أن يتهياً لها بطهارة الجوارح .

وقد يفهم البعض وهو يسعى فى طلب الرزق أن كثرتة دليل على رضى الله عليه وأن قلته دليل على سخطه ، وهذا الفهم أيضا غير صحيح ، فإن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولكنه لا يعطى الدين إلا لمن يحب .

ورضا الله على عبده متعلق بحسن نيته ووضوح قصده ، فمن كان يطلب الرزق من حلال ، وينفقه فى حلال ، فإن الله يبارك فى رزقه وإن كان قليلا ، وذلك كما يفعل فى الربا والصدقة ﴿ يحق الله الربا ويرى الصدقات ﴾ ^(١) .

وعن الأموال الكثيرة المتراكمة فى الأيدى غير المؤمنة يقول الله عز وجل : ﴿ ولا تعجبك أموالهم و أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ ^(٢) .

وعن تقدير الرزق على بعض العباد يقول الرسول ﷺ فيما يروى أبو سعيد الخدرى : " أن الله عز وجل " ليحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب " .

فإذا اجتمع الرزق الطيب الكثير فى اليد المخلصة الأمانة ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح .

^(١) البقرة : ٢٧٦ .

^(٢) التوبة : ٨٥ .

من قيم الدين والدين

الدعوة التامة

لقد كان من آخر آيات القرآن الكريم نزولا إن لم يكن آخرها على الإطلاق قوله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ ^(١) .

ومن مآثور دعاء المسلمين " اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة.." .

وإذا تأملنا الآية الكريمة وجدنا أن الله سبحانه وتعالى يمتن على عباده المؤمنين بدين كامل ونعمة تامة ، وأن الدعاء الذي يردده المؤمنون عقب كل أذان هو صدى للإحساس بهذه النعمة التي أنعم الله بها على عباده ، فهم يعتنقون ديناً شاملاً يخاطب البشرية في كل زمان ومكان ، ويؤمنون بدعوة ربانية ينتظمها كتاب وصفه الله بقوله ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ^(٢) .

ومعنى كمال الدعوة التي يلتف حولها المؤمنون أنها تصاحب الإنسان في رحلته على هذه الأرض فترشده إلى الطريق السوي ، وتوجهه إلى ما ينفعه وتحذره مما يضره ... ثم تجعل طريقه بعد ذلك موصولاً بربه ، وتجعل حياته امتداداً لآخرته .

ومن معالم دعوة الإسلام الواضحة أنها جعلت حدوداً ثابتة لا يتعداها المسلمون ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ^(٣) . ثم أطلقت لهم المجال الفكري في سائر نواحي الدنيا ، وفتحت لهم أبواب الحرية في سائر المعاملات الشخصية مما يجلب لهم المصالح ويدركون عنهم المفساد ، ويتفق مع الأسس العامة التي رسمها الدين .

وان رسول الله ﷺ ليدعو المؤمنين إلى الاستمسك بهذه الدعوة التامة ويجعلها

^(١) المائدة : ٣ .

^(٢) الأعراف : ٥٢ .

^(٣) الطلاق : ١ .

الدستور الذى يهتدى به المؤمنون فيقول : "" تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى ابدا ، كتاب الله وسنتى "" .

فلا مجال للتغيير فى أصول الدين ، وقد اكتملت ، ولا مجال للإبتداع فى أسسه وقد تمت ، فإن (كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار) .

ولكن مجال التأثير والتغيير هو ميدان التطور البشرى الذى تمثله مراحل الإنسان فى هذه الحياة ، وهو ما ام تطورا صالحا يرتفع بقيمة الإنسان ويحقق صورته كما أرادها الله فهو تطور محمود يحث الإسلام عليه ، ويدعو المسلمين اليه ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو احق الناس بها . وهذا الدين بهذه الصورة الكاملة وهذه المعالم التامة يخاطب أمة واحدة لا فرق فيها بين أبيض واسود ولا تفاوت فيها بين عربى وأعجمى فالكل يعبدون ربا واحدا ، حيث يقول الله ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ (١) .

ويتجهون إلى قبلة واحدة بصلوات واحدة لا تتغير صورتها ، ولا تتعدد طريقتها مهما تعددت أقطار المسلمين .

وهذه الوحدة الشاملة يعبر عنها القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإن هذه امتكم أمة واحدة .. وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (٢) .

فإذا اعترى عقائد الناس فى هذه الحياة نقص ، فإن دين المسلمين كامل ، وإذا أصيبت مبادئ العالم بقصور أضل الناس فدعوة الإسلام تامة .

وفى ضوء هذه النعمة التى أمتن الله بها على عباده يجب أن يشعر المسلمون بوحدهم ، وأن يستظلوا براية الدين الذى هم به كل شئ وبدونه لا شئ .

القرآن والإنسان :

تندرج منازل الإنسان - فى القرآن - صعودا وهبوطا بمقدار معرفته لإنسانيته كما

(١) سورة طه : ١٤ .

(٢) الأنبياء : ٩٢ .

أرادها الله ، وبمقدار أمانته على الرسالة التي وجد من أجلها على الأرض .
والإنسان - بتصور القرآن - كبير بفطرته التي فطر الله الناس عليها وطبيعته التي
هداه الله اليها ، وهو بذلك كفيل بأن يقيم ميزان الله على الأرض وبأن يحرس قانونه
على هذه الحياة ... أى أنه بتعبير القرآن يكون في الأرض خليفة .
والإنسان في ضوء هذا الاستخلاف مخلوق كريم : يعمر الأرض بالسلام ويحكم
الدنيا بالحب ، ويملأ العالم عدلاً ورحمة .

وهذه الصورة في مضمونها هي صورة الإنسان الذي جعله الله في الأرض خليفة
حيث يسلك الإنسان طريقه المستقيم بقلب سليم .
وهذا القلب ميزان صلاحه أو فساده على هذه الأرض . وحياة الإنسان - في ضوء
هذه الصورة - أيضاً هي الحياة التي يدعو الإسلام الناس اليها بعد أن كفل لهم وسائلها
ومهد لهم الطريق اليها وأرسي من أجلهم الدعائم إلى بنائها .
فإن الله - سبحانه - قد بسط الأرض للإنسان ودعا إلى استغلال خيراتها « هو الذي جعل
لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (١) .
فلا مجال للاختلاف على الأرض وهي واسعة ، ولا مجال للتنازع على الرزق
وهو مبسوط .

والله خلق الكون كتاباً مفتوحاً يتدبر آياته أولو الألباب « قل انظروا ماذا
في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يرجعون » (٢) .
فإذا سخر الله الكون للإنسان فمن أجل أن يعرف الإنسان نعمة الله عليه ،
ويعيش مع إخوانه في ظل هذه النعمة مرتبطاً بهم بروابط الأخوة التي هي سر بقاء
المجتمعات الإنسانية الكاملة « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً » (٣) .

(١) الملوك : ١٥ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٣) يونس : ١٠١ .

لكن حين يهبط الإنسان من هذه الدرجة السامية التي خلف الله من أجلها ويتنكر للفطرة التي فطر الله عليها وكأنه ينسى نفسه ، ويتنكر للمعنى الإنساني الرفيع الذي أودعه الله فيه ... وحين ذلك يذكره القرآن بأصل نشأته ليعود إلى طبيعته ويذكره بقدرة الله ليرجع إلى الإيمان ﴿ فليُنظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رَجْعِهِ لِقادر : يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر ﴾ (١) .

فلعله بهذا التذكير يعود إلى حقيقته ، ولعله يمثل هذا النداء يثوب إلى رشده ، فإن تمادى في غيه وقطع شوطا في طريق الضلالة ولم يستجب لنداء الإيمان في قلبه ، فهو كما قال القرآن عنه ﴿ قتل الإنسان ما اكفره . من أى شئ خلقه . من نطفة خلقه فقدره ﴾ (٢) والإنسان بين هاتين المتزلتين - الصعود والهبوط - يحيا حياته ويحقق ذاته ويعبر عن إرادته ، فإذا شاء ارتفع فصار بقلبه المشرق بمعاني الخير إنسانا كريما .

وإذا شاء هبط فصار بنفسه الأماراة بالسوء مخلوقا ذميما وهو بهداه لا ينفع إلا نفسه ، كما إنه بضلاله لا يجنى الا عليها ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ (٣) .

(١) الطارق : ٥ - ١٠ .

(٢) عبس : ١٧ .

(٣) الشمس : ٧ - ١٠ .

القرآن ومدلول التطور الحضارى

دور الأديان فى حياة الإنسان

نود أن نشير إلى ظاهرة شائعة فى الناس جميعاً على اختلاف مجتمعاتهم وجنسياتهم وديانتهم ، هذه الظاهرة هى أن الدين لم يعد هو الأساس فى حياة الناس وإنما أصبح يشغل زواية متواضعة من زوايا هذه الحياة العريضة ، وتحول مدلول الدين فى مفهوم كثير من الناس إلى صورة رومانسية ، إن كانت جميلة فهى كاللوحة المعلقة على الجدار : تزينة ولكنها لا تمنعه من الإختيار وتلخص علاقة الناس بالدين بناء على هذه النظرية بأن يحافظوا على رونقه ، كما يحافظ على جمال اللوحة ، وبأن يقدسوه بإبعاده عن الحياة كما يحرصون على اللوحة فيبعدون عنها الغبار ونتيجة لذلك فقد تحول الدين إلى تاريخ : إن كنا نقدره فكما نقدر جثث الأعداء من الأموات ، وإن كنا نحافظ عليه فكما نحافظ على الآثار فى متاحفنا .. فهل هذا هو الدين ؟ .

ولقد يقال فى هذا المجال أيضاً أن الأنبياء الذين اختارهم الله فبعثهم إلى الناس قد خاطبوا قوماً محدودى العقول ، محدودى الثقافة ، محدودى الحضارات وأن هؤلاء الأقوام المتخلفين فى كل شئ قد فتحوا عيونهم على الأديان التى جاء بها الأنبياء فرأوا شيئاً جديداً : رأوا أن هذا الدين ينقلهم إلى حضارة واسعة تمتد ظلالها إلى حياتهم وتقاليدهم وتخرجهم من حدود إجتماعية ضيقة إلى افاق عالمية واسعة ، وتكون لهم فكراً وثقافة كما تبنى لهم مجداً وحضارة .

فإذا كانت الأديان قد فعلت ذلك لقوم من المتخلفين فماذا يمكن أن تفعل لأبناء العصر الحديث؟ إن إنسان القرن العشرين قد سيطر على الأرض فاستخرج كنوزها وسخر البحر فاكتشف أعماقه ثم مزق حجاب الفضاء حتى استقر على سطح القمر ، وهو بين ذلك يفرض ارادته وينشر سلطانه على موجات الأثير وأسلاك البرق ويضرب بجذور حضارته فى أعماق العالم .

فماذا يمكن أن يصنع له الدين بعد ذلك ؟ وما ضرورة الدين لحياته الحديثة المتطورة ؟

حقيقة علاقة الإنسان بالدين

هذا الموقف أحس انه يواجه الأديان كلها في العصور الحديثة ، فللدين قداسة في القلوب ، ولكن ليس له حياة في السلوك ، وله صوت ينبعث من أعماق الماضي ، ولكن ليس له واقع تتعامل به في الحاضر.

وأنا كأحد المؤمنين بدين - أحب أن احدد هذا الموقف وأواجهه من وجهة نظر ديني الذي هو الإسلام وأحب ابتداء أن احدد ذلك في نقطتين :

١ - ما الرسالة التي جاء بها الدين الإسلامي إلى الناس ؟

٢ - ما المقصود بالتطور بالمفهوم العصري وبالمفهوم الديني ؟

الرسالة التي جاء بها الدين الإسلامي إلى الناس يحددها القرآن في جزء من آية واضحة ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ .

ويقصد بالظلمات هنا معنى واسع لكل لون من ألوان الانحراف في الحياة والتواء الطبيعة الإنسانية كما أرادها الله .

كما يقصد بالنور معنى واسع لكل لون من ألوان الاستقامة والخير وتحقيق الجانب المضيء في نفس الإنسان .

فالانطلاق في الحياة بغير غاية ظلام ، وتحديد غاية الإنسان في الحياة نور ، اعتداء القوى على الضعيف ظلام ، وإنصاف الضعفاء من الأقوياء نور ، بل أن الارتباط والالتزام به ، من وجهة نظر الإسلام هو الحياة نفسها وإذا كان قد شبه إعتدال أمور الإنسان في ظل الدين بالنور ، فقد شبه الدين نفسه بالحياة وشبه الحياة بغير دين بالموت ، فقال في القرآن : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ .

وبناء على هذه النظرية فلقد جاء الإسلام ليتفاهم مع طبيعة الإنسان فيحترم

آدميته وينظم علاقته بالحياة ، فيشعر الإنسان أن هذا الدين صديق يرشده ويعينه لا جلال يلهب ظهره بسياط التكاليف وصرامة الأوامر والنواهي .

وإذا سار الإنسان على الطريق القويم للحياة ، فإنه يجد الدين يشجعه على المضي ويثبت قدميه على الطريق .

أما إذا زلت قدمه فسقط فإنه سيجد الدين يأخذ بيده برفق ويحيى نفسه بالأمل لأن الله كما يقول ﴿ واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ .

وفي عبارة مختصرة نستطيع أن نقول : أن رسالة الإسلام هي تنمية المعنى الإنسان في الإنسان .. والدين بناء على ذلك هو الحياة .

التطور في مفهوم العرف ومفهوم الدين

تبقى النقطة الثانية من هذا الحديث وهي المقصود بالتطور .

وأبادر قبل الإجابة عن هذا السؤال وتحديد معنى التطور فأشير إلى أن الدين لا يتملق أتباعه ، ولا يخدع المؤمنين به ولا يوهمهم بأن يحقق لهم كل ما يطلبون حتى يصفوه بالتطور وإنما الدين كالطبيب : يهتم أن يعالج المريض بالدواء المناسب ، وإن كان مر المذاق ويحرمه من بعض الأطعمة الضارة وإن كانت شهية هذه واحدة أما الثانية : فإن الدين لا يتطور ، لأن الدين مبادئ خالدة وهذه المبادئ هي كيان الإنسان وحياته ، فمنذ وجد الإنسان على هذه الأرض ، والتزم بمجموعة من المبادئ في حياته فإن مدلول هذه المبادئ لم يتغير ولكن الذي يتغير هو الإنسان نفسه .

وانطلاقاً من هذه النظرة فلقد اعتبر الإسلام أن الحقيقة التي بعث بها أنبياء الله جميعاً واحدة ، وأن دور هؤلاء الأنبياء هو تذكير الناس بهذه الحقيقة وتثبيتهم على مبادئها ، والقرآن يقول للمسلمين ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم من وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وذلك تأكيد للمعنى الكلى للدين ، والنظرة الشاملة للدعوة ، وبأن المبادئ التي دعا إليها أول نبي في مجملها هي المبادئ التي دعا إليها آخر نبي .

بقى أن نحدد المقصود بالتطور

وتحديدنا لهذه الكلمة يعتمد أساسا على تحديدنا السابق لرسالة الإسلام ، وهي بناء الإنسان بنقله من الظلمات إلى النور .

والتطور بمدلوله العصري يختلف عن التطور بمدلوله الروحي :
فإن المجتمعات تتطور والمخترعات تتطور ، والفنون تتطور ولكن هذا التطور تطور الشكل وتغير المادة .

أما التطور بمعناه الروحي فهو يعني انتصار الجانب الإنساني دائما ووقوف الإنسان بمبادئه وقيمه وأخلاقه في مواجهة التيارات العاصفة للحياة والإنسان المتصير في نظر الإسلام هو الإنسان الذي لا يستعبد إلا لربه : محكمته في داخله ، وقيادته من ضميره ، وسعادته في إيمانه وهو وإن كان يـدب بقدم على الأرض فإنه يتعلق بقلبه في السماء .

والحضارة كما يعرضها أحد الكتاب العرب تبتدى بمعنى روحى قليل المظهر ، ثم تنتهى بنظير ضخيم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعاني الروحية ^(١) .
ومعنى ذلك انه لا عبرة بحضارة تعنى بالمظهر وتهمل المضمون ولا وزن لأمة تتقدم في مخترعاتها وتتأخر في مبادئها .

وليس معنى ذلك أن الإسلام يرفض التطور الحضارى ، ويقف في مواجهة تيار الحياة الحديثة . وكيف تتصور ذلك ورسالته بعث الناس من الموت إلى الحياة ونقلهم من الظلمات إلى النور .

إن الاسلام يحث أتباعه على أ، يحرصوا على الحياة كما يحرصون على الآخرة وقيموا الدنيا كما يقيمون الدين ، والمسلمون يقرءون في كتابهم قول ربهم:

^(١) عبقرية خالد : عباس محمود العقاد .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » وهم مأمورون أن يستثمروا المال إلى أقصى حد ، وبأن يديروا المصانع بأحدث الوسائل ، وبأن يستعينوا في سيرهم إلى الحضارة بأرقى الخيرات ، والحكمة ضالة المؤمن : أئى وجدها فهو أحق الناس بها .

وإذا كانت هناك مظاهر متخلفة في العالم الإسلامى المعاصر وإذا كنا ننظر في هذه الايام فنرى بلاد الإسلام عاجزة عن ملاحقة ركب الحضارة ، فإن ذلك كله محسوب خطأ على الدين ، والدين برئ منه ، فهو الذى نقل المسلمين الأوائل من البداوة إلى الحضارة ، ومن الأمية إلى التعليم ، ومن التخلف في كل المجالات إلى الكشوف في كل المجالات .

والعالم الإسلامى المعاصر قد وقع فريسة استعمار متطور مدروس مزق كيانه وشوه عقيدته وأفسد صورة الدين المشرقة في نفسه والتخلف الحضارى الذى نراه في هذه الايام لا يتهم به الإسلام ، ويفسر على ما أشرت اليه من تشويه الدين في نفوس بعض المسلمين ، واكتفائهم بتقديس الدين عقيدة ومبادئ وعدم التزامهم بتطبيقه سلوكاً وعملاً وإذا دعا الإسلام إلى الأخذ بكل أسباب التطور والحضارة ، وبارك كل تقدم نبيل في الكشوف والمخترعات ، فإنه يجعل الحضارة في خدمة الإنسانية ويجعل التقدم المادى من أجل تهيئة الجانب الروحى الذى يمتاز به الإنسان على سائر مخلوقات الأرض .

ولذلك فإن هذا التقدم يجب أن تكون له غاية واحدة هي إقامة الحياة العادلة بين الناس ، وتطبيق ميزان الله على الأرض فالمال مال الله ، والناس جميعاً عباد الله .

وغاية الحضارة الإسلامية - إذن - أن يعيش المسلم في سمو عقيدته لا في تسلط شهوته ، وفي ارتفاع إنسانيته لا في انحطاط حيوانيته وفي إشعاعات قلبه ومشاعره لا في نداءات بطنه وغرائزه .

فإذا لم يستطع الإنسان أن يحقق هذه المبادئ في نفسه ، وإذا لم يستطع ان يتغلب

على شهوته في التسلط والإعتداء، وإذا لم يستطع أن يشبع من حوله الحب والسلام، فهو في نظر الإسلام إنسان متخلف وإن كانت وسائل حياته المادية من ملابس ومسكن ومواصلات متطورة إلى أبعد حدود التطور.

وإلا فكيف نوفق بين مظهرين متناقضين في حياتنا المعاصرة :

الإنسان حقق لنفسه كل وسائل المتعة والرفاهية الحضارية الحديثة، ومع ذلك فقد حقق أعلى نسبة في الانتحار والتخلص من الحياة !! .

ألا يعني ذلك فراغه الرهيب من الداخل، وعجزه عن تحقيق سعادته وتوازنه عن طرق مظهره البراق من الخارج ؟

الدين والحياة

وإذا كان الدين ضرورة حياة الناس، فإنه ليس ظاهرة إجتماعية من صنع الإنسان تبديل وتغير، وليس اختراعاً يدركه ما يدرك " الموضات " من ظهور، ثم ازدهار، ثم ضمور ... ثم موت، ولكنه فطرة فطر عليها، والفطرة لا يخرعها الناس ولا يتكرونها، وإنما هم منجذبون اليها، معبرون عن طبيعتهم من خلالها .

وهذه الفطرة ثابتة قائمة متحققة في طبيعة كل نفس « لا تبديل لخلق الله ... ذلك الدين القيم .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

أما الإسلام وقدرته على خلق مجتمع متطور، فإنه ليمثل في تشريعاته وأحكامه السمحة المتطورة في الصور والأمثلة الآتية ^(١) :

١ - تتأثر أحكام الإسلام بالبيئة وتغير الأزمان، وهي تصدر مرتبطة بعلتها وتغير بتغير هذه العلة .

٢ - من اجل مراعاة مصالح الناس وتطور مجتمعاتهم لم يتناول القرآن بالتفصيل أحكام المعاملات المالية والجنائية والدولية والقضائية وما شابه ذلك مما يتغير بتغير البيئة ويتأثر باختلاف النظم .

^(١) الإسلام والمجتمع المتطور، مجلة العربي، يوليو ٧٢ .

٣ - اقتدى التابعون بأحكام نبيهم بعد وفاته ، ولكن اقتداءهم كان إقتداء واعيا مبصرا ، فوقفوا بين هذه الاحكام وبين حاجة الفترة التي يعيشونها دون الإعتداء على روح الدين وحكمته في التشريع ، وكان ذلك انطلاقا لفهمهم في النقطتين السابقتين من ارتباط الأحكام بعلمتها وتغيرها بتغير هذه العلة ، وأن الأساس في التشريع الإسلامى هو مراعاة مصالح الناس ولقد شجع النبى أصحابه على الاجتهاد فى فهم الأحكام وتطبيقها ، وكان هناك قاعدة عريضة تقول : "" من أجتهد فأصاب فله أجران ، ومن أجتهد فأخطأ فله أجر "" ، فهو إن اصاب فله أجر الاجتهاد وأجر الصواب ، وإن اخطأ فله فى الاجتهاد ، وأما خطؤه فليس محسوبا عليه .

ظاهرة الإنصراف عن الدين

وإذا كان الناس بدافع من إدعاء التطور ، أو برغبة من الشعور بالتححر وبخاصة الشباب منهم ، ينفلتون من الدين ويضيقون به ويرون إنه من عوامل التخلف وأسباب الانحطاط الحضارى ، فإن ذلك راجع إلى رغبة داخلية مكبوتة فى التمرد على القيود ، والتخلص من الألتزامات والانطلاق فى الحياة دون غاية أو ضابط ، وهذا هو ما نلمسه فى شباب العالم بما يسمى شعورا بالقلق أو التمزق أو الرفض ومثل هذا الشباب الجامح لا يمكن أن يؤدى للإنسانية دورا نافعا إلا إذا استقرت نفسيته ولا تستقر بملبس فاخر وأكله شهية أو سيارة فخمة ... ولكنها تستقر بإعادة مشاعر الحب والأمان اليه ، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق مبادئ الدين الثابتة التى تقيم الحياة المتطورة .

نحو جيل متدين

وإذا كان هدفنا جميعا من عرض حقائق الدين هو ربط أبنائنا به ، وصبغ حياتهم بتعاليمه اقتناعا وسلوكا ، فإننا يمكن أن نضع المقترحات التالية خطوات على الطريق إلى الإيمان :

أولا : لا ينفع المتدينين لبعث هذا الدين فى النفوس أن يتحدثوا عن محاسنه ويزينوه لأبنائهم بقدر ما يلزمون أنفسهم به ، فلا بد أن يكونوا هم قبل كل شئ مقتنعين

بدينهم اقتناعا كاملا منها وطريقا وفكرا وتطبيقا ، ويتبع هذا الاقتناع ان يلتزموا هم
أولا بمبادئ الدين إيمانا بالقلب وتصديقا بالجوارح ، بحيث يكون هذا الدين واقعا في
الحياة ومنهجيا في السلوك لا شيئا كماليا نضفيه على حياتنا كما نزين به بيوتنا .

ثانيا : ويتبع هذه الخطوة أن نعرض الدين على عقول أبنائنا ليفكروا ، وعلى
مشاعرهم ليتأثروا ، وعلى حياتهم ليجدوا فيه حلوًا مناسبة لمشكلاتهم الطارئة الملحة ،
فليس الدين هو مجموعة التعليمات والوصايا التي تساق اليهم في لحظات وجدانية ، ولكن
الدين ، كما أشترت هو الصديق ، وهو المرشد وبأختصار ... هو الحياة .

ثالثا : الدين ليس أسرارًا غامضة ، ولكنه حقائق واضحة وعلى ذلك فإن
لأبنائنا أن يناقشوا وأن يفهموا ، وأحب أن أحذر في هذا المجال من إضفاء طابع الصرامة
على الدين ، بحيث يحس أبناء الجيل بأنهم أمام "" دكتاتور "" غامض رهيب يفرض عليهم
ان يقدسوه ، ولا يحق لهم أن يناقشوه .

رابعا : لا يجوز أن تكون التربية الدينية في المدارس حصصا لشرح مقرر دراسي
يعقد في امتحان تكون نتيجته نجاحا أو رسوبا كأى مادة دراسية ، ولكن يجب ان تكون
هذه التربية إثارة للعقل وتنبهها للوجدان ، ومن هنا فقد يتوافق سلوك التلميذ مع تعاليم
الدين ، وحيث يجب أن يقفوا عند نقطة التعارض ، ويقاوموا بحزم دون تدليل لسلوكهم
أو مجازاة لميولهم . وعلى ضوء اتفاقنا لدلول التطوير في الدين يجب ان يكون سلوكهم نحو
تشكيل جيل متدين .

القرآن وحضارة الإنسان

يقول الله عز وجل ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين
يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم
عذابا اليما ﴾ ^(١) .

^(١) الإسراء : ٩ .

وان لكل حضارة أساسا يقوم عليه بناؤها ويرتكز عليه كيانها ، وان لكل أمة متحضرة دستورا ينظم حياتها ، ويقوم العلاقة بين افرادها وحضارة تقوم على غير أساس تشبه قصرا يقوم على الرمال ، يعجبك مظهره وتأخذك زخارفه ، ولكن مصيره إلى الانهيار والزوال .

وأمة من غير دستور تشبه رعية من غير راع : يتكاثر أفرادها ، وتتجمع أعدادها ولكن أحوالها فوضى ، وأعداد أفرادها متناثرة لا يحكمهم رباط ، فهم كما صورها نبي الإسلام عليه السلام "كثير ولكنهم غناء كغناء السيل" .

ولقد وضع الإسلام للمسلمين منهجا ، كما وضع لحضارتهم أساسا ، وأرسي مجتمعهم دستورا ذلكم الدستور هو القرآن الكريم ، ولقد جاء هذا القرآن ليخاطب الناس ، فينظم لهم حياتهم ، ويرسم لهم منهجهم ويرشدهم إلى ما ينفعهم ، وينظم لهم العلاقة بينهم وبين أنفسهم كما نظم لهم العلاقة بينهم وبين خالقهم .

ولأن صاحب الدستور الرباني هو خالق الناس من العدم ، فلقد جاء هذا الدستور الحكيم ملما بأحوال الناس ، مراعيًا لحاجة البشر ، ومعبرا عن الحركة الحضارية للإنسان ، بل أكثر من هذا وأبعد ... وصورا لكل ما تهجس له النفس من خواطر ، وما يتردد في خناياها من مشاعر ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ ^(١) ، وإذا استطاعت دساتير الأرض كلها أن تدعى القدرة على تنظيم حياة الناس وإلى تقنين تعاملهم في هذه الحياة فإنها لا تستطيع أن تدعى القدرة على التغلغل في نفوسهم ، والأطلاع على ما توسوس به هذه النفوس فتلك هي قدرة الله ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ^(٢) .

ومن هنا كانت دقة القرآن الذي هو دستور المسلمين ومن هنا أيضا كانت الأمة الملتزمة بهذا الدستور هي ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ ^(٣) .

^(١) ق : ١٦ .

^(٢) الملوك : ١٤ .

^(٣) آل عمران : ١١٠ .

يقول الله تعالى في هذا الكتاب المحكم ﴿ ولقد جنناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ^(١) .

والمؤمنون الذين استقبلوا هذا الكتاب ضياء للعقيدة ودستورا للحياة يرون الوجود أكبر من كيانه الظاهري وأعمق من واقعه المشهود ، فالحياة كما صورها القرآن هي ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ لا عالم الشهادة وحدها ، وهو الدنيا والآخرة لا الدنيا وحدها ولقد قال المكذوبون حينما واجهوا رسول الله بتكذيب البعث والنشور ﴿ ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

ولكن ميزان العدل الإلهي يقضى بأن يثاب المحسن ويعاقب المسيئ ، وهو إن أفلت من قبضة القانون في الدنيا فإنه لا يفلت من عقاب الله في الآخرة ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ ^(٢) . فما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض فليس نصيبه كله ، إنما هو بعض هذا النصيب ، وما يفوته هنا من الجزاء فلا يفوته هناك فإنه لا ظلم ولا بخس ولا ضياع ، هكذا يقول الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ فالיום لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ^(٣) .

وبقدر إيمان المؤمنين بدقة دستورهم وعدالة احكام الله لهم يكون إيمانهم بقيمة الانسان وكرامته عند الله ، لأنه قبل أن يأمرهم بالهداية دهم على الطريق ، وقبل أن يأمرهم بالمعاملة وضع لهم الدستور ، وقبل ان يدعوهم إلى الدين بعث اليهم الهداة ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ^(٤) .

فليس الإنسان كيانا مهملا في القرآن ، وإنما هو مخلوق كريم بنفحة من روح الله

^(١) الأعراف : ١٠٠ .

^(٢) الأنبياء : ٤٧ .

^(٣) يس : ٥٤ .

^(٤) النساء : ١٦٥ .

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ وهو بهذه النفخة الربانية مستخلف في الأرض وبها أيضا يجتمع الناس فيجعلونها هي الصلة التي تربط بينهم إذا ترابط غيرهم من الناس على أساس من نداء المادة كالطعام والمال والمنصب ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (١) .

وكما كرم القرآن الفرد ، فقد احترم عقله وكرم مشاعره ، فلم يجعل له هذا الوجود فريسة لمصادفة عمياء أو فلتة عارضة ، وإنما كل شيء بقدر : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ (٢) .

ومظاهر الكون التي تصافح حواس الإنسان صباح مساء خاضعة لناмос لا يحتل وقانون لا يضطرب ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (٣) .

ومن أجل هذا النظام المحكم فإن المؤمن مأمور بأن يأخذ بالأسباب وبأن يطمئن إلى قدر الله المحكم وحكمته البالغة ، وبأن يؤمن بأن يد الله في كل حادث وفي كل أمر وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه . أحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ولا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا ، فإن " لو " تفتح عمل الشيطان ، ومن هنا يحس أن القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ ليس هو المواد الجامدة التي تحكمه وتحدد تصرفاته وإنما هو الرفيق الذي يرشده ويهدي خطواته ، لأنه هو واعظ الله في نفس كل مسلم ، وليس هو الأوامر الصارمة الملقاة عليه لينفذها دون وعي ولكنه الهداية الرشيدة التي تمهد له

(١) محمد

(٢) الرعد : ١٧ .

(٣) الرعد : ١٧ .

طريق الحياة وتجعل هذا الطريق موصولاً بالآخرة ، والقرآن كما قال الرسول ﷺ "مأدبة الله فأقبلوا من مأدبته " .

وهو كما قال الله عنه ﴿ يَهْدِي لِلّٰى هِىَ اَقْوَمُ ﴾ وهدايته تشمل الاقوام والأجيال بغير حدود من زمان أو مكان ، فهو يهدى البشر بعقيدة صالحة واضحة إلى الله الخالق وحده دون سواه ، وهو بذلك يبعد كل ألوان السيطرة التي تحتل وجدان الإنسان وتستبد بأرادته فتحلله من الضلالة كما تحرره من الخوف ، وتنسق بين ظاهرة وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فيعيش الإنسان حياته على الأرض موصولاً بالسماء ، ويحول كل عمل من أعماله إلى عبادة وإن كان متعة واسترواحاً ، وإن العبادة والمتعة لمتزجان في نفس المؤمن حتى تصير عبادته تزكو بها روحه ولقد كان رسول الله ﷺ "إذا حَزَّ به أمر فزع إلى الصلاة ووجد فيها عزاءه وأمنه وراحته ، فهو يقول لبلال "أرحنا بالصلاة يا بلال " .

وتكون التكاليف الشرعية قى ضوء هذا الفهم علاجاً للنفس وتركيباً لجانب الخير فى الإنسان ، وموازنة عادلة بين رغبته وقدرته ، فلا هى شاقة يعجز عن حملها فيمل الالتزام ويأس من الوفاء ، ولا هى لينة يترخص فى الأخذ بها حتى لا تشيع فى نفسه الرخاوة والاستهتار .

وهذا القرآن الذى ﴿ يَهْدِي لِلّٰى هِىَ اَقْوَمُ ﴾ يقيم علاقات الناس بعضهم ببعض على أساس من المودة النقية الصافية التى لا تتأثر بالرأى ولا تميل مع الهوى ، لأنه أساس مستقيم من صنع العليم الخبير بخلقه وهو سبحانه أعلم بمن خلق وأعرف بمصالح العباد فى كل أرض وفى كل جيل ، فيهديهم للى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان ، وفى الربط بين الديانات السماوية وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمانها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية فى سلام ووثام .

وعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم القرآن بناء المجتمع الإسلامى ، فليس هناك إيمان بلا عمل ، وليس هناك عمل بلا إيمان ، الإيمان بلا عمل إيمان مبتور لم يبلغ تمامه ،

والعمل بلا إيمان عمل مقطوع لا ركيزة له ... وبهما معا تسير الحياة على التي هي أقوم ، وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

والذى يقرأ القرآن فيتدبره بقلبه ، ويمزجه بمشاعره ، ويعيشه بحواسه كلها ينتهى إلى يقين حاسم بأنه هو العلاج الناجح لمشاكل الإنسانية من متاعبها التي تعانيها على المدى البعيد ... لا كلمات منمقة تقال ، ولا جملا خطائية تلقى ، ولا لحظات وجدانية تعاش .

ولكنه الشعور الحقيقى الذى ينبض به القلوب المخلصة ، فالله هو الذى خلق العباد والله هو الذى خلق الحياة التي يحياها هؤلاء العباد ، والله هو الذى سن الشريعة وشرع الدين الذى وصى به وهو يبدأ بإصلاح الإنسان نفسه فيربى ضميره ، ويغرس الوازع النفسى فيه ، ويجعل رقابته من داخله لا من خارجه ، والفرد إذا صلح فقد صلح المجتمع ووصلح العالم .

وإن الارتباط بالقرآن الكريم ومعايشته صورة واحدة : فهو ليس صورا بلاغية تمتع القارئ برونقها وإن لم يخل من بلاغة واعجاز فنى ، وهو ليس كتابا علميا يخرج على الناس بنظريات علمية واختراعات عجيبة وإن احتوى على بعض الإشارات العلمية التي يدركها المتخصصون ولكنه كتاب حياة ، ودستور للمنهج الإسلامى الذى هو منهج الله وإن الالتزام بذلك المنهج اعتقادا بالقلب وسلوكا بالجوارح وتعاملا مع الناس لا يعد تطوعا أو عملا من أعمال البر نمن به على هذا الدين ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ ^(١) .

ولكن الالتزام بهذا المنهج هو الإيمان ولا إيمان بغير التسليم لله والأخذ بمنهجه في الحياة ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ ^(٢) .

^(١) الحجرات : ١٧٨ .

^(٢) الأحزاب : ٢٦ .

ولقد أنشأ القرآن حياة تفيأ الصدر الأول للإسلام ظلالتها فكانت جديدة في كل شئ : في قيمتها وأخلاقها ومبادئها ، وأرسى حضارة شاملة إنبثقت من الصحراء ولكنها اشاعت الرخاء والأمن في ربوع العالم .

ولم تكن هذه الحياة معجزة من المعجزات ، ولا أسطورة من الأساطير وإنما كانت واقعا يمارسه المسلمون فيجدونه حيا في مشاعرهم كما يجدونه حيا في معاملاتهم وأساس ذلك إيمانهم بأن طريق الله هو الطريق ، وبأن منهجه هو الحياة وبأن كتابه هو الدستور ، ومن وراء ذلك الإيمان تجرد في التطبيق وإخلاص في الالتزام ويقين راسخ بأن الله ﴿ قد أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾ ^(١) .

وبأن هذا الكتاب ما نزل الا لتتبع أحكامه وما جاء الا لتطبيق شريعته وبهذا المفهوم السوى اضطبغت حياة المسلمين بصبغة الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ وسادت كلمة الله وكلمة الله هي العليا .

فلما نحى الإسلام عن قيادة البشرية ولما أقصى القرآن عن واقع الناس تحبط المسلمون الذين فقدوا الطريق ، وتحبط العالم الذي يخترع كل يوم منهجا جديدا لا يسعد الناس بقدر ما يشقيهم ولا يوفر لهم الأمن بقدر ما يجلب لهم من الدمار .

وتلك هي سنة الله في الخلق ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال : كذلك أتتك آياتنا فنفيستها وكذلك اليوم تنسى ﴾ ^(٢) .

^(١) الكهف : ١ .

^(٢) طه : ١٢٣ - ١٢٦ .

التدين و الحضارة

حضارة الصومود

يقول الله تعالى ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ ^(١) .

الطريق إلى الله واحد وإن تعدد الدعاة الذين يأخذون الناس اليه ، والدعاة إلى الله على لقاء دائم وإن انفصلت بينهم الأزمان ، وباعدت بينهم المسافات ، ونهاية الطريق إلى الله واحدة هي جنة عرضها السموات والأرض ، ولئن فرش هذا الطريق بالأشواك وحف بالمكاره ، فلأن سلعة الله غالية ﴿ ألا ان سلعة الله الجنة ﴾ .

والمؤمنون الذين يحملون عقيدتهم في قلوبهم ، ويحملونها بعد ذلك إلى قومهم ، يعلمون أنهم حملة المصاييح والظلام مخيم ، ورسل الهداية والضلال مطبق ، وهذه البشرية والناس نيام .

وهم بهذا اليقين يقدرّون مصاعب الطريق حتى لا يفاجئوا بها و يفترضون المشاق حتى يتهيئوا لحملها ، ويؤمنون بأن المصاعب محك الرجال والفتن تمحيص للمؤمنين ، لأنهم يتلون في القرآن مثل قول الله عز وجل ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ^(٢) . ومثل قوله تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا أن نصر الله قريب ﴾ ^(٣) .

^(١) آل عمران : ١٤٦ .

^(٢) العنكبوت : ٢١٤ .

^(٣) البقرة : ٢١٤ .

وإذا علم الدعاة إلى الله أنهم يسلكون الطريق المستقيم ، وأنهم على الحق سائرون استهانوا بالصعاب في سبيل المبدأ ، وضحوا بالراحة لتحقيق الغاية ، واستعذبوا الموت ما دام في سبيل العقيدة ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسنينا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾^(١) .

ولقد نزلت الآيات التي صدرنا بها هذا الحديث تعقيبا على الهزيمة التي منى بها المسلمون في غزوة أحد ، وكانت أول هزيمة تصدم مشاعر المسلمين بعد انتصارهم المؤزر في غزوة بدر ، وكانوا وهم منتصرون عددا قليلا يمتن الله عليهم بقوله ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ ولكن لما وقر في نفوسهم أن النصر حليفهم في كل الأحوال ، وأنه هو الأمر الطبيعي والقاعدة المطردة التي لا تتخلف ... صدمتهم الهزيمة في أحد ففوجئوا بالابتلاء الذي لم يكونوا يتوقعونه ، وفتنوا الفتنة التي لم يثبت لقسوتها الا القليلون .

ولقد ضرب الله للمؤمنين في هذه المناسبة مثلا عاما من سيرة الانبياء السابقين الذين ﴿ صبروا على ما كذبوا أو ذوا ﴾ ، ولم يحدد لهم نبيا بالذات فكلهم سائرون على الطريق ، وكلهم معرضون للفتنة والابتلاء ولقد قال ذلك ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ وهو يضع خطواته الأولى على طريق الدعوة إلى الله يقول له : ليتنى فيها جلدا . أى شديدا . حين يخرجك قومك . فسأله الرسول متعجبا : أو مخرجي هم ؟ فيجيبه : ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أودى .

والناس كما يقال . أعداء ما يجهلون ، فالأنبياء يدعونهم إلى الطريق المستقيم فينحرفون عنه ، ويرشدونهم إلى الهدى فيميلون إلى الضلال ويأخذون بحجزاتهم ليبعدوهم عن النار فيتهاوون اليها كما يتهاوى الفراش .

ومن أجل ذلك نسمع نبيا من أنبياء الله ينادى قومه (يا قوم مالى ادعوكم إلى

^(١) آل عمران : ١٧٣ .

النجاة وتدعونني الى النار تدعونني لأكفر بالله واشرك به ما ليس به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (١) .

ويشكو نوح قومه إلى ربه فيقول ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم واصرروا واستكبروا استكبارا ﴾ (٢) .

ولكن انبياء الله لهم رسالة هم مكلفون بتبليغها ، وهم يؤمنون بأنها الحق "" وماذا بعد الحق الا الضلال "" فلا تضعف نفوسهم لما يصيبهم من البلاء والكرب ، ولا تضعف قواهم عن الاستمرار في الكفاح ، ولا يستسلمون للجزع القاتل ، والعدو العنيد .. وشأنهم هذا شأن المؤمن التقى الذي يحمل عقيدة ، ويجاهد في سبيل الله .

هؤلاء الأنبياء الصادقون يجاهد معهم مؤمنون صادقون ، سمتهم الآية " الربيون " لأنهم انتسبوا الى الرب سبحانه ، وتوجهت قلوبهم إلى عبادته وقصدوا بأعمالهم وجهه ، واعتقدوا أن النبيين الذين يقودونهم على طريق الجهاد هداة معلمون لا أرباب معبودون . وأن نصر الله ليتزل على عباده لإيمان المؤمنين الواثقين ، وأن الله ليثبت ذلك المعنى في قلب نبيه عليه السلام حيث يقول له ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ (٣) . ويصف النبي الذين آمنوا معه بقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

وإذا كانت الصورة الظاهرة لهؤلاء " الربيين " قد أظهرت شدتهم في الحق وصبرهم على المحنة والابتلاء ، فإن الصورة الباطنية لنفوسهم ومشاعرهم قد أبرزت الفضيلة النفسية التي تأدبوا بها في حق الله فهم حينما يواجهون الأهوال التي تذهل النفوس لا تطير أنفسهم شعاعا ، ولا يغفلون عن صلتهم بالله فيلجئون اليه يطلبون العفو والمغفرة ويعترفون له بالذنوب والإسراف قبل أن يطلبوا الثبات والنصر على الأعداء ما كان قولهم

(١) غافر : ٤١ - ٤٢ .

(٢) نوح : ٧ .

(٣) الأنفال : ٦٢ .

إلا أن قالوا ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرون ﴾ .

فهم لم يطلبوا اجرا في الدنيا ولا ثوابا في الآخرة ، وهم لم يتعلقوا بعرض زائل من أعراض الحياة ، ولم تشغلهم أهوال الحرب التي أمامهم عن امانة العقيدة التي في قلوبهم ، فإذا طلبوا النصر بعد ذلك فهم لا يطلبونه لأنفسهم شفاء لغيظ قلوبهم وكبتا لأعدائهم ، وأما هما يطلبون النصر " على القوم الكافرين " بهذه الصفة ، صفة الكفر ، كأن الكفار أعداء المؤمنين ، وهم كذلك أعداء الله .

وما دام هؤلاء المجاهدون الصادقون لم يطلبوا لأنفسهم شيئا ، وتجردت نفوسهم في الجهاد فلم يقصدوا به إلا الله وحده ، فقد أعطاهم الله من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا ، وخير ما يتمناه طلاب الآخرة مجتمعين ، حيث يقول الله عز وجل ﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .. والله يحب المحسنين ﴾ .

ولا خوف على أمثال هؤلاء من ثواب الدنيا ونعيمها ، فإن همهم قد ارتفعت فلا تفتتها النعمة وان نفوسهم قد علت فلا يخدعها بريق الحياة ، وأن ما في قلوبهم من سعادة أجمل مما في أيديهم من مال ، وأنهم كما قال أحد الحكماء عنهم : يعيشون في الدنيا ، ولا تعيش فيهم ، ويأكلون منها ولا تأكل منهم ..

أى أنهم يعيشون الحياة ويخالطونها ، ولكنهم لا يدعونها تحتل قلوبهم وتسيطر على مشاعرهم وتستبد بأهوائهم ...

وهم كلما تمكنوا في الأرض فقد مكنوا لدين الله ، وكلما سادوا في الحياة فقد سادت كلمة الله وهؤلاء هم الذين يقول الله فيهم ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ ^(١) .

فوجه الله غايتهم ، وعلو كلمته أمنيته ، وجهادهم لتحقيق هذه الغاية ، وكفاحهم لإعلاء هذه الكلمة ... وهذه هي الرسالة الحقيقية للإنسان كما أراده الله .

^(١) الحج : ٤١ .

وما دام المؤمنون قد ارتبطوا بمبدأ ، فلا يضرهم أن يغنى بعض الاشخاص ، لأن المبدأ على بقاء ، والأشخاص إلى فناء ، ولا يضعف مجموع المؤمنين بما أصاب بعضهم من الجراح وبعضهم من القتل حتى ولو كان المقتول هو النبي نفسه ، لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربه ، وإنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربه وبيانه لهدايته وحكمته ﴿ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ﴾ ^(١) . وهم يثبتون بعد نبيهم كما يثبتون معه ، لأن علة الثبات واحدة في الحالتين ، وهو كون الجهاد في سبيل الله ، أى في الطريق التي يرضاها الله لحفظ الحق وحمايته ، وتقرير العدل واقامته ، وإذا ثبت المؤمن في جهاد أعدائه وهم أعداء الله فقد طبع نفسه على الثبات في كل أموره حتى أصبحت ملكة في النفس وخاصة في السلوك ، وإذا صبر على الأذى في سبيل الله فقد روض نفسه على الصبر امام كل الشدائد التي تقو بجانب الفتنة في العقيدة والعذاب في سبيل الله .

ولقد صمدت فئة بجانب النبي ﷺ وهو يواجه أعداءه فدافعت عنه وهي تعلم أنها تدافع عن الرمز وعن الحقيقة ، وثبتت معه فكانت في ظهور الحق على الباطل وإنتصار المؤمنين على الكافرين ، وكان صبرها سببا في حب الله لها ، ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ . وحب الله للإنسان يفتح له مغاليق الأمور ويوضح أمامه شعاب الحياة ، ويدافع عنه إذا ألم به مكروه ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ ^(٢) .

ولقد روى في صفة العبد الذي يحبه الله ((فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده الذي يبطش بها)) ، أى أن مشاعره وأعماله لا تكون مشغولة الا بما يرضى الله ويقيم سنته ويظهر حكمته في خلقه . ويتجلى احساس الإنسان بالله حين تقع به الشدة ويلم به المكروه ، حين ذلك يطمئن لقدرة الله ويرضى بقدره ويشعر برعايته له .

^(١) الكهف : ٥٦ .

^(٢) الحج : ٣٨ .

نجد هذا الموقف حين يهرع أصحاب موسى اليه والبحر أمامهم وفرعون من ورائهم " قال أصحاب موسى إنا لمدركون " فيجيب موسى بلهجة المؤمنين الوثائقين : " كلا " وأساس هذه الإجابة " أن معي ربي سيهدين " فلم يكن موسى يعلم ماذا سيفعل ، وكيف سيهديه ربه ، ولكن كان يعلم أن الله معه ﴿ وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ ^(١) . ومن ثم فقد كان الفرج عند الشدة وكان الحل عند الأزمة ، وكان قول الله عز وجل ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فإنفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأرسلنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ ^(٢) .

وهذا الموقف نفسه مع نبي الإسلام ﷺ إذ هو وصاحبه في الغار والعدو يستربص بهما والعيون تترقبهما ، فيمسح الرسول على قلب أبي بكر ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ فتكون نتيجة هذا الإيمان الوثيق بالله عز وجل ﴿ فأنزل الله سكنته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ ^(٣) .

ولقد يقول قائل: أن تأييد الله كان لأنبيائه ، حينما كان يتزل الوحي ، وحينما كانت صلة السماء بالأرض صلة مباشرة ، وكان هذا التأييد بمثابة المعجزات التي يسوقها الله ويعجز عن صنعها البشر وقد أنقضى الوحي ، وانتهت المعجزات ، ولم يبق للإنسان إلا حوله القاصر وقوته المحدودة .

وهذا القول يجرد الإنسان من أهم عنصر فيه وهو الروح ، فما كانت حسابات الإنسان بأحكام من تقدير الله ، وما كانت حوادث الأرض بأقوى من قوته وتدبيره ، ولا يشترط في التأييد أن يكون معجزة خارقة تتحدى العقل ويعلو على الأفهام ولكن .. تأييد الله لعباده توفيق ، كما أن هدايته إرشاد إلى الطريق .

ولم يقتصر نصر الله وتأييده على زمن النبوة وحدها ، بل أنه امتد على الزمان

^(١) النساء : ٤٥ .

^(٢) الشعراء : ٦١ - ٦٥ .

^(٣) التوبة : ٤٠ .

حتى يشمل العباد في كل زمان ، ولكن بالشرط الذى يتنزل بها النصر ، ويتم بها التأييد
فإن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم
الأشهاد ﴾ ^(١) .

كما هو واضح ليس للرسول وحدهم ، ولكن للمؤمنين أيضا ، وليس في يوم
القيامة فقط ولكن في الحياة الدنيا قبل يوم القيامة .

وغاية ما يطلب من الذين يسلكون طريق الكفاح أن يسلكوا منهاج النصر ،
وهذا المنهج يتطلب منهم أن يتجنبوا كل السبل المنحرفة ليسلكوا سبيلا واحدا هو سبيل
الله ، وأن يؤمنوا بأن السبيل الذى أختاروه هو السبيل الذى دلهم الله عليه وأرشدهم
الرسول إليه ، وأن يضعوا في اعتبارهم أن العقبات قد تعترض مسيرتهم وأن الأشواك قد
تفرش طريقهم وإن العذاب في سبيل العقيدة قد يقع عليهم ، فليستعدوا لذلك بجمه
عالية وعزيمة ماضية ونفس صلبة ، فإن الطريق الذى سار فيه الأنبياء يسير به المؤمنون وأن
الذى وعد به الأنبياء يحزره أيضا المكافحون الصادقون .

وخلاصة ذلك كله اختيار للطريق ، وإيمان بالحق ، وصبر على البلاء ﴿ قل هذا
سبيلي أدعو إلى الله على بصرية أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من
المشركين ﴾ ^(٢) .

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله
من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا
وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ﴾ ^(٣) .

^(١) غافر : ٥١ .

^(٢) يوسف : ١٠٨ .

^(٣) الشورى : ١٥ .

حضارة الاستقامة على المنهج

يقول الله عز وجل ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ ^(١) .

لقد دعا رسول الله ﷺ إلى الاسلام ﴿ دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا ﴾ ^(٢) . فدعا بذلك إلى منهاج واضح ومحجة بيضاء واخذ الناس إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض إلا إلى الله تصير الأمور ﴾ ^(٣) .

وما دام هذا الصراط مستقيما فإنه لا يضل سالكه ولا يهدى تاركه ، إذ ليس بعد الحق الا الضلال ، وليس أمام تارك النور الا الظلمات ، ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأني تصرفون ﴾ ^(٤) . ولقد روى في سبب نزول قوله ﴿ وان هذا صراطي مستقيما ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قرأ ﴿ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ثم قال ابن مسعود : تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد - أى الطرق - وعن يساره جواد ، وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم أنهى إلى الجنة ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الصراط المستقيم سبيلا واحدا وجعل السبل المخالفة سبلا متعددة ، لأن الحق واحد لا يتعدد والباطل طرق مختلفة ، وشعاب متفرقة ، فهو يشمل الأديان الباطلة من محترعات محرفة ومنسوخة وبدع وشبهات ، وان التفرق أيضا في الدين الواحد يجعله مذاهب ، ويتشيع لكل مذهب شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون من

^(١) الأنعام : ١٠٣ .

^(٢) الأنعام : ١٦١ .

^(٣) الشورى : ١٦١ .

^(٤) يونس .

يخالفه ، ويرمون المخالفين بالجهل والضلال أ والكفر والابتداع ، وذلك سبب لإضاعة الدين بترك طلب الحق المترل فيه .

والحق لا يمكن ان يكون محبوسا على طائفة دون طائفة ، ولا مقصورا على فئة دون فئة ، ولكنه معروض على كل ذى فطرة سليمة ونفس مستقيمة ، ومن أدركه فقد اهتدى وقد صار مكلفا بدعوة غيره إلى الهداية ، وهذا الحق القديم لا خلاف عليه ، ولأنه رسالة الانبياء ودعوة الصالحين ، ولأنه هو الفطرة النقية الخالصة فى نفس كل إنسان ، فإذا احتجب فى النفوس فذلك لأن الناس قد تجاهلوه أو اهملوه كالمصاييح تكون فى ايدينا فتتير لنا الطريق ، فإذا تركنا الغبار يتراكم عليها فقد حبسنا نورها بأيدينا وتعثرت بنا الخطوات فى الظلمات .

وقد روى أحمد والترمذى والنسائى : عن النواس بن سمعان مرفوعا : " ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان ان يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه فإنك أن تفتحه تلجئه فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم " .

ولعل هذا الواعظ هو ما يعبر عنه الناس بالوجدان والضمير والإستقامة على هذا الصراط إستقامة على امر الله عز وجل ، وسلوك لطريق الله الذى لا طريق سواه فهو صراط مستقيم ، لا يلتوى ولا يتعرج ، فقد قام عليه دين الله كافة وجاء به الإسلام مصدقا للأديان ومهيما عليها ، فهو يجمع بين صحة العقيدة فى الله ، وسلامة النظم الموضوعه للحياة وبين هذين (العقيدة ونظم الحياة) رباط محكم وعقدة وثيقة لا تنفصل ، فأى نظام للحياة بفصل نفسه عن العقيدة فى الله فهو نظام مبثور لا يستطيع ان يحقق الغاية النبيلة اتى هى رسالة الإنسان على الأرض كما ارادها الله ، لأن أساس كل

تشريع انساني يجب ان يكون قائما على ضمائر لا تستمد سموها ونقاءها الا باتصالها بالله الخالق ، والا على أساس من الدين الخالص ، فهي إذن مرتكزة على أصول ثابتة لا ترزعزعها الأنواء ولا تميل مع الأهواء ، وذلك هو سر التعقيب على الآية بقوله تعالى ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ والتقوى مراقبة الله وإخلاص العبادة له دون سواه ، والإلتزام بصراط المستقيم حتى لا تتفرق بنا السبل عنه ، وهذه السبل هي مفترق الطريق بين الشريعة الواضحة المستقيمة وبين غيرها من الاتجاهات المتعددة التي تصنعها أهواء البشر سواء كان ذلك شركا تمزقه أهواء الوثنية شيئا وفرقا وتقاليد ، أم كان مللا ونحلا تصنعها أفهام (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أم كان أفكارا مستوردة وبدعا مستولية على بعض المنتسبين إلى الإسلام ... وتلك وغيرها هي من (السبل) التي يحذر منها القرآن ، ويدعو المسلمين إلى الاعتصام عنها بالصراط المستقيم .

ولما كان اتباع الصراط المستقيم هو الرباط الذي يجمع المسلمين فلا ينحرفون ويوحد طريقهم فلا يضلون ، كان اتباع السبل المتفرقة هو البعد عن سبيل الله ، وكان هو الثغرة التي ينفذ منه الضعف إلى كيان الأمة والريح التي تهب على المسلمين فتترك وحدتهم ثوبا وأفئدتهم هواء .

ولقد أصيب المسلمون في فترات ضعفهم ، بسرعة الاستهواء ، فاتبعوا غيرهم شبرا بشير ، وذراعا بذراع ، فحل بهم ما حل من الضعف والتفكك والانهيار ، ولم يردعهم عن ذلك ما ورد من التحذير منه في كتاب الله تعالى وأحاديث الرسول ﷺ .

ولقد روى عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ أن الله أمر المؤمنين بالتمسك بالجماعة ، والاعتصام بالطريق المستقيم ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم انه انما هلك من كان قبلهم بالخصومات والتفرق وتشتت الأهواء مع أن الله قد دعاهم إلى الاتحاد والاعتصام بحبله في مثل قوله ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ ^(١) .

^(١) آل عمران : ١٠٣ .

ولقد ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود : " أن كتاب الله هو حبله الممدود من السماء إلى الأرض ، فمن اعتصم به كان آخذاً بالإسلام ، والمسلمون مأمورون بأن يجعلوا اجتماعهم ووحدهم بهذا الكتاب : عليه يجتمعون ، وبه يتحدون ، ومنه يستمدون المنهج ويسلكون الطريق المستقيم .

وقد أمرنا بالنزاهة في هذا الطريق وحده حتى لا نكون من ﴿ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ فمن مظاهر هذا التفريق : اتباع سبيل غير سبيل الله الذي يرسمه كتابه ، واحداث المذاهب المتفرقة والشيع المختلفة في الدين الواحد والتعصب لها دون دليل والعصبية الجاهلية التي تمزق شمل الأمة ولقد ورد في النهي عن هذه العصبية أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : " أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد في الحرام ، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق يهريق دمه " (١)

ولقد اعتصمت بعض الأمم غير المسلمة بجنسيات قائمة على عصبية كعصبية الجاهلية ، واقتفى أثرهم بعض المسلمين فحاولوا أن يجعلوا الوطن الإسلامي أوطاناً تنتمي إلى جنسيات وطنية وحضارات قديمة ، وليس الأمر كذلك ، فإن الإسلام يدعو إلى اتحاد أبناء الوطن الواحد ، وإن كانت بينهم جنسيات قديمة مختلفة ، ويأمر بالاعتصام بحبل واحد هو حبل الله الذي يسلك القوميات في قومية واحدة والجنسيات في جنسية واحدة ، وبذلك تتحقق الأخوة في الله على أساس من المحبة لا على أساس من العصبية . ولقد أشرنا إلى تذييل آية الأمر باتباع الصراط المستقيم بقوله تعالى ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

لأن الأمر باتباع صراط الحق المستقيم ، والنهي عن اتباع السبل الضالة المعوجة ، هو خلاصة الوصايا النافعة الموصلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، وهو التقوى التي أمر المسلمون بها في كل أحوالهم من عبادات ومعاملات وآداب وقاتل وسنن اجتماع وطعام وشراب .

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس .

وفي الصلوات اليومية للمسلم ، يردد دعاء في كل ركعة هذا الدعاء ضمن سورة .
من سور القرآن ولكنها " أم القرآن " أو " أم الكتاب " ، ولا صلاة للمسلم إذا لم يقرأها
.. فهو يدعو ربه " اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين " .

وهو بهذا الدعاء يطلب من الله هداية الوجدان النظرى ، وهداية الحواس
والمشاعر وهداية العقل والتفكير وهداية هي رأس هذه الهدايات وملاكها ، وهي الهداية
إلى الدين واتباع الصراط المستقيم ، وهي أيضا تهب كل موجود قوام وجوده ، وتجعل
لحياته سبيلا متصلا بالسماء وامتدادا خالدا فلا تنتهى بإنتهاء حياته على
هذه الأرض .

ولما كان الإنسان معرضا للخطأ على هذه الأرض ، ولما كانت الشهوات تحيط
به و الشعاب تفترق أمام ناظره ، فهو يحتاج إلى قوة أكبر من قوته ، وعون اعلا من
طاقته ومدد الهى يطلبه بقوله (اهدنا الصراط المستقيم) أى دلنا يا رب على الطريق
الواضح الذى لا زيف معه ، المستقيم الذى لا التواء فيه .. ثم اهدنا إلى سلوك هذا الطريق
والتزام السير فيه ، لأن حاجتنا اليه اشد من حاجتنا إلى كل شئ سواه فهو مستقيم لا
ينحرف عن الغاية بل يؤدى إليها ، وغاية المسلمين ان يرضوا الله وهم فى الدنيا وأن
يحصلوا على ثوابه يوم الحساب ، فهم هنا يسألون الله ان يهديهم الصراط المستقيم ، وفى
الآية الأخرى يؤمرون بأن يتبعوا الصراط المستقيم ، ولا تعارض بين السؤال والأمر ، فإن
الله سبحانه وتعالى بدلنا على الطريق بفضله وعلمه ، ونحن له ملتزمون هذا الطريق
بطاعتنا لله واتباعنا لصراطه المستقيم ، هو سبحانه يهدينا إلى الصواب ، ونحن نميل إلى
الصواب بسلوكنا أو نعيد عنه بأعمالنا ، والله عز وجل يقول ﴿ وهدينا النجدين ﴾
(^١) أى دللناه على الطريقين : طريق الخير وطريق الشر .. ثم يختار سلوك أحد
الطريقين ومنه أيضا قوله تعالى :

(^١) البلد : ١٠ .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ ^(١) .

فقد دلهم الله تعالى على طريقى الخير والشر ، فسلكوا سبيل الشر المعبر عنه بالعمى ، وتركوا طريق الخير المعبر عنه بالهدى وذلك هو الضلال المبين .

فهداية الله للمؤمنين هنا هى بيان الطريق لهم وإيقافهم على رأس الطريقين . المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدى اليه كل منهما وذلك تفضل من الله على عباده بدلالتهم على كل من الطريقين .

أما الهداية فى قوله تعالى ﴿ أولئك الذى هدى الله فبهادهم اقتده ﴾ ^(٢) . فهى إعانة المؤمنين وتوفيقهم للسير فى الطريق المستقيم بعد أن صدقت نيتهم وتوافر اتجاههم لسلوك هذا الطريق .

وأما السبل التى ينهانا الله عن اتباعها فى قوله ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ فهى سبل غير المؤمنين ، أولئك هم المغضوب عليهم وهم الضالون ، لأنهم فرقوا دين الله ورفضوا شريعته ، وجعلوا الحق الواحد الذى لا يتعدد شعبا متعرجة وفجاجا ملتوية لا تؤدى إلى الإيمان ولا تصل إلى غاية المؤمنين .

وهؤلاء هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، وبلغهم شرع الله ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه وهم ابلغ فى الجحود من الذين لم يعرفوا الحق أصلا فرفضوه عن جهل لا عن عناد ، وفى أمثال هؤلاء المعاندين يقول الله عز وجل ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ^(٣) .

وما دام طريق الحق واحدا لا يتعدد وإن تعددت حوله الشعاب واختلفت حوله الدروب ، وما دامت كلمة الله واضحة مستقيمة وإن زاغت المذاهب والتوت الآراء ..

^(١) فصلت : ١٧ .

^(٢) الأنعام : ٩٠ .

^(٣) البقرة : ٨٩ .

فإنه مطلوب من الذين ساروا في طريق الحق ان يثبتوا عليه وان طال بهم السير وأدمنت
أقدامهم أشواك الطريق ، فإنه هو الطريق الموصل إلى الله والمؤدى إلى الجنة ، وهو الذى
يثبت الله نبيه عليه بقوله ﴿ وانك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى
السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ ^(١) .

والذين اتبعوا كلمة الله فجعلوها منهجا لحياتهم على الأرض واساسا لتعاملهم مع
الناس ، ووسيلة تصلهم بالله عز وجل . ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ وعليهم ان يثبتوا مع
كلمة الله ، وان يستقيموا على طريق الإيمان ، ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل
عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى
الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من
غفور رحيم ﴾ ^(٢) .

(٢) حم سجدة : ٤١ - ٣٠ - ٣١ .

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣ .

التدين التزام وسلوك

الإخلاص لله ورسوله وعباده

يقول الله تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، الا الله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾

(الزمر ٢ ، ٣) .

لقد قامت عقيدة الإسلام على التوحيد الخالص الذى لا يختلط بشائبة من الشرك وهذا التوحيد هو الأساس الذى يقوم عليه بناء العقيدة ، وهو المدخل الذى لا بد أن يمر به كل من هداه الله إلى هذا الدين ، فيؤمن به عقيدة تسكن القلب ، وقولا يتحرك به اللسان ، وعملا تترجم عنه الجوارح .

وجوانب التوحيد تتضح فى توحيد المعبود ، وهو الله عز وجل حيث يقول ﴿وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾

(٥ البينة) .

وفى توحيد العباد فى أمة واحدة ﴿إن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم﴾

(٥٢ المؤمنون) .

وهذه الأمة الواحدة لها اتجاه واحد تمثله القبلة التى يتوجه اليها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾

(١٤٤ البقرة)

بل أن التوحيد الذى يجعله الاسلام ركيزة للعقيدة واساسا للدين يتطلب إلى المسلم أن (يوجد) عدوه كما وحد أمته ، فعادوا الاسلام عدو المسلمين فى كل مكان وزمان ، من ليس منا فهو علينا ، وملة الكفر واحدة .

والتوحيد بهذه النظرة الشاملة هو إخلاص الدين لله ، وإخلاص العبادة له وحده

سبحانه وتعالى ، وإذا قلنا ان الإسلام دين التوحيد فقد قلنا إنه دين الإخلاص ، وأن اخلاص العبد يفرض عليه أن يخص عبادته معبودا واحدا لا يشرك به شيئا ، ومن هنا سميت إحدى سور القرآن بسورة (الاخلاص) وصفها الرسول ﷺ بأنها تعدل ثلث القرآن وما دام الإخلاص أساس العلاقة بين الله وعباده ، وهم بهذا الاخلاص يعبدونه ولا يشركون به شيئا ، فإنهم يتعلمون من هذه العلاقة الربانية أن الاخلاص عبادة ، وأنه ان كان وسيلة إلى حسن صلتهم بالله وقربهم منه عز وجل فإنه ينعكس بعد ذلك - على الإنسان في سره وعلايته ، ينعكس عليه في سره فيكون بينه وبين نفسه مخلصا ، ويكون لبدنه مخلصا فيعطيه حقه ، ولا يحمله ما لا يطيق ويكون لعقله مخلصا فيصونه ولا يضيعه بالمسكرات ، ويكون لمشاعره مخلصا فلا يفسدها بالعبث والرذيلة ، والإنسان إذا لم يكن مخلصا لنفسه فيصون عقله من التردى في الضلال ، ويكبح هواه من التردى في الرذيلة ، ويحفظ آدميته من التردى في الحيوانية .

إن لم يفعل ذلك فليس بمخلص لنفسه ، ومن ثم فإنه لا يستطيع ان يكون مخلصا للناس ولقد جاء في هذا اللون من الإخلاص النفسى سؤال جبريل للنبي - عليه السلام - والصحابة جلوس حول الرسول يتعلمون ، فيسأل جبريل رسول الله . اخبرني عن الإحسان ، فيقول رسول الله : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ^(١) ، وهذا لون من الإخلاص يتميز بالتجرد في العبادة ، والصدق في خشية الله ومراقبته ، وينعكس الإخلاص الذي أمر به المسلم في عبادته على علاقته بالناس فأخلاصه هو أساس هذه العلاقة التي لا تحركها منفعة ، ولا يحكمها هوى ، ووجه للناس حب في الله والله ، والمتحابون في الله - عز وجل - كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام - على منابر من نور يوم القيامة ، فيفرح الناس وهم لا يفرحون ويخاف الناس وهم لا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وفي الاخلاص لله ولرسوله ولعباده يجد المسلم حلاوة الإيمان في قلبه ، يقول نبينا عليه الصلاة والسلام (ثلاث من

^(١) رواه مسلم .

كن فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار ، فحبه لله ورسوله إخلاص لهما ، وحبه للمرء هو ثمرة هذا الإخلاص ، وكرهيته للعودة إلى الكفر ترجمة نفسية لهذه العبادة .

ويقتضى الإخلاص في المودة أن يحرص المؤمن على أخيه غائبا أو حاضرا ، فهو يحفظ غيبته ويصون سيرته ، ولا يذكره إلا بخير ، وفي حضوره يحضه النصيح ويعينه على المعروف ، ويؤيده إذا أصاب ويرشده إذا ضل ، فإن كثيرا من ألوان الصداقات التي نراها في مجتمعاتنا الحديثة تقوم على المجاملة والمداراة يرى الصديق عيبا في صديقه فلا يدلّه عليه حتى لا يغضبه ، ويجده أحيانا على الطريق الغواية فيجاريه حتى يستدم مودته ، وكثيرا ما يمدح الصديق صديقه بما ليس فيه حتى يؤكد له حبه وهذالون من الخداع لا يتفق والإخلاص في الصداقة ، فإن الصداقة من الصدق ، وإن الصدق ينقى صفحة الإنسان ويجعل ظاهره كباطنه ، وإن أخاك يواجهك بكلمة الحق فيقومك ، خير من قريّن يداهنك ويجاريك فيفسدك وينسيك نفسك ، فمن ذلك على عيبك فقد دعاك إلى الإفلاخ عنه ، ومن جاراك في معصية فإنما هو عدو في ثياب صديق ، وهو يتخلى عنك حين تلم بك النوائب ويترل بك المكروه ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾

(البقرة ١٦٦) .

ولقد دعا القرآن إلى صدق التناصح في قوله عز وجل ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (سورة العصر) .

ودعا الرسول كذلك إلى هذه الفضيلة بقوله : " رحم الله امرءا هدى إلى عيوب نفسه " .، وافتتح بها أبو بكر خلافته حيث قال : (إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فقوموني) ، ذلك لأن إخلاص المرء في إبعاد أخيه عن

الباطل يعادل إخلاصه في إعانته على الحق .

ومن هنا حقق الإسلام مجتمعا رشيدا تسوده الفضيلة وتحكمه المبادئ ، وأرسى نظاما اخلاقيا يسوس الأرض بشريعة السماء ، وأقام دولة عادلة تحقق الأرض في ربوع الأرض وتبعث الأمن في نفوس البشر .. وبإختصار غرس الاخلاص في النفوس ، فجنى السعادة في الحياة .

ولا يعاني المجتمع الإنساني المعاصر شيئا بقدر ما يعاني من فقدان الإخلاص في نفوس الناس ، فعلى مستوى الفرد بينه وبين نفسه يفقد أمنه ، وتوازنه النفسي ولا يقدر كيانه حق قدره ، فتختل ثقته في نفسه حتى يستبد به الغرور ، وعلى مستوى الأفراد في معاملاتهم يضيع الإخلاص ، فيحل الشك محل الثقة ، وتطرد عوامل الخوف مشاعرا الأمن ، وتحتل الكراهية مكان الحب في القلوب .

وعلى مستوى الدول في علاقتها يزول الإخلاص فتتظر كل دولة إلى الأخرى بعين الحذر والتوجس ، وتتسابق الدول إلى تكديس السلاح ، والإستعداد للحرب رغم ما تعانيه فيها من ويلات ودمار ، ولكنها حين فقدت الإخلاص فقدت السلام ، وحين فقدت السلام فقدت الإحساس بالأمان .

والإنسان بذلك يحارب نفسه ، ويقضى على المعنى الإنساني المودع فيه ويتنكر لأسمى ما ركبه الله بين جنبيه وهو القلب ، ذلك الوعاء الذي يحمل الخير وينشره بين الناس ، وينبض في الضلوع ولكنه يتسع لخالفه ، ففي الحديث القدسي ومعناه (ما وسعتني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعتني قلب عبدي المؤمن) .

ومن هنا ندرك حكمة الإسلام حين عني أولا بتربية الفرد المسلم ، فهو يبنى عقيدته على الإخلاص ويربى نفسه على التجرد ويوقظ مشاعره على المراقبة وخشية الله .

فإذا وجد الفرد الصالح كان لبنة نظيفة في بناء الأسرة الصالحة وإذا تكونت الأسرة الصالحة وتماسكت حلقاتها بأسر صالحة على طرازها كان من هذا التلاحم مجتمع

إنسانى لا تهتر الثقة فى نفسه أو كما وصفه نبينا عليه السلام (لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه) .

والإخلاص فى التصور الإسلامى على هذا الأساس - ليس درسا يلقى ليحفظ أو فلسفة تشرح لتفهم ، أو كلمة تقال لتعرف ، وإنما هو حياة تصاحب الإنسان فتمتد إلى مشاعره تجردا للحق ، ومراقبة لله ، وهو سلوك يمارسه المؤمن حين يمارس حياته سواء كانت عبادة لله أم معاملة للناس ، وهو معرفة للحق والرجوع اليه والتزول على شريعته ، ولقد وصف القرآن إكمال الإيمان فى نفوس المؤمنين وتمام الإخلاص فى نفوس المخلصين فقال ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ .

(٦٥ النساء)

فالمؤمنون بتجردهم وإخلاصهم يحكمون الحق الذى يمثله نبيهم عليه السلام ، ويطردون كل إثارة للحرص النفسى بعد ان يقضى بينهم الرسول بالحق الذى يراه وقد لا يرونه ، ثم يسلمون تسليما كاملا بهذا الحق ، وقد رضيت به نفوسهم واطمأنت اليه مشاعرهم ، فالتزم به سلوكهم واضفوه على معاملاتهم .

فالإخلاص إذا تربية نفسية ، وترويض روحى وتدريب عملى ، ولئن كان هذا طريقا طويلا ، فإنه هو الطريق الذى يصل بها الأرض بالسماء ، ويحكم الحياة بالعدل ويهيئ الدنيا للآخرة .

ولقد رسمه الإسلام منهجا واضحا وطريقا مستقيما :- يبدأ بعلاقة الإنسان بربه فيخلص له العبادة ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾^(١) . ويتجرد فى خشية ومراقبته فلا يخشى غيره ولا يرهب سواه ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾^(٢) .

(١) الأنعام : ١٦٢

(٢) الأحزاب : ٣٩ .

وإذا خشى الإنسان الله ولم يخش سواه فلا خوف عليه أما إذا خشى غيره ، فقد طارت نفسه شعاعا فأخافه كل مخلوق ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ ^(١) .

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذى رسمه الإسلام للإخلاص أن يتجرد المؤمن من عبادته فيكون مخلصا كما لله الدين الخالص .

أما الخطوة الثانية فهي أن يخلص الإنسان لنفسه فيعرف طريق الخير ويتبعه ويعرف طريق الشر ويتعد عنه ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ^(٢)

والخطوة الثالثة أن يلزم الإنسان الإخلاص للناس : ويعينهم على الخير إذا عرفوه ويدعوهم إلى الطريق المستقيم إذا تركوه ، ويحرص على بقاء مودتهم كما يحرص على حسن معاملتهم ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ﴾ ^(٣) .

وإذا تماسكت حلقات هذه الخطوات ، وإذا التزم الفرد بهذا المنهج إيمانا وتطبيقا كانت ثمرته مجتمعا مخلصا يسعد به الناس وتستقر به الإنسانية ، وتأمين فى ظله دول العالم والإخلاص بذلك يكون صلة العبد بربه فيكون تجردا وتوحيدا ، ويكون صلة الإنسان بالإنسان فيكون صداقة ومودة ويكون صلة المجتمعات بالمجتمعات فيكون تكافلا ورحمة ، ويكون صلة الدولة بالدولة فيكون أمنا وسلاما .

ومن وراء ذلك إيمان يحرس هذه الصلات بأن الله مطلع على خلجات الإنسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم

^(١) آل عمران : ١٧٥ .

^(٢) الشمس : ٧ - ١٠ .

^(٣) فصلت : ٣٤ - ٣٥ .

القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴿١﴾ .

المؤمنون حقا

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (٢) .

الإيمان درجة يبدأها المؤمن تسليما بالشهادتين ، ثم يتدرج فيها صعودا بقدر ما تتسع له الطاقة وبقدر ما تشف به الروح وما يزال العبد يتقرب إلى ربه حتى يحبه ، فإذا أحبه كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن استعاذ به لعاذه ولئن سأله لأعطاه .

وإن الله ليقبل إيمان المؤمن وهو على أول درجات الإيمان ، وهو - سبحانه وتعالى - وأن كان يريد لعبده أن يصل إلى أعلى هذه الدرجات ، فإنه لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولا يحمل القلب الا ما يطيق .

ولقد ذكرت هذه الآيات صفات المؤمنين ، فجعلها خمس صفات : —

الصفة الاولى فهم ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إجلالا لذكره ، وأمثالا لأمره ، وخشية من عقابه ، فإن هذه الكلمات تجمع كل المعاني النفسية المعبرة عن الطاعة والخشوع ، ومثلها فى قوله عز وجل ﴿ وبشر المختبين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٣) . وهذا الشعور بالوجل يرقق القلب ويرهف المشاعر ويقرب الإنسان من الله ، ولقد قال أحد الصالحين :
إني لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا ومن أين لك ذلك ؟

(١) الأنبياء : ٤٧ .

(٢) الأنفال : ٢ - ٤ .

(٣) الحج : ٣٤ - ٣٥ .

قال : إذا أفسح جلدى ، ووجل قلبى وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لى .

وكأنها لحظة الإلهام التى يعينها عمر رضى الله عنه حين يدعو ربه ، فهو يقول " أنا لا أحمل هم الاجابة ، ولكن أحمل هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه " ، أى ان القلب يتحرك قبل الدعاء ، فيكون إلهام تقترن به الإجابة بالدعاء .
وهؤلاء الصالحون يجدون الوجل فى قلوبهم إذا ذكروا عظمة الله وسلطانه وجلاله ، ولكن ليس فزعاً ولا رعباً ، وإنما هو خشوع وتقرب واطمئنان إلى حسن الصلة بالله ، يؤيد ذلك قوله تعالى فى موضع آخر ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (١) .

الصفة الثانية من صفات المؤمنين أنهم ﴿ إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ .
وظاهر الآية يقتضى أستماعهم للقرآن وهو يتلى ، فيتدبرون معانيه ويخشعون لتلاوته ، فيزدادون إيماناً إذ الإيمان يزيد وينقص ، أو يزدادون عملاً بمقتضى هذا الإيمان ، واستعداداً لكل ما يتطلبه الإيمان من آداب النفس .

ولقد كان الرسول ﷺ يرتل القرآن ، ويحب أن يسمعه أيضاً من بعض اصحابه ، فيتأثر للأستماع كما يتأثر للترتيل .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ " اقرأ على القرآن فقلست : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب ان اسمعه من غيرى " ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ قال حسبك الآن ، فالتفت فإذا عيناه تذرفان " (٢) .

فإذا رسول الله ﷺ يتأثر استشعاراً لعظم المترلة التى اكرمه الله بها ، والمؤمنون يتأثرون إيماناً بوعده الله وآياته ، فيزداد إيمانهم ، وهذه الزيادة ثابتة فى آيات أخرى كقوله

(١) الرعد : ٢٨ .

(٢) متفق عليه .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ﴾^(١) .

وقوله ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾^(٢) .

وأين ذلك من الحلقات القرآنية التى تذاع فى هذه الايام وكأنها حفلات للطرب لا مجال للذكر يتخفى بها بعض القارئىن بآيات من القرآن الكريم فيراعون قواعد التطريب أكثر مما يراعون من جلال المعنى ويلتفت حولهم جمهور من المستمعين الذين يشدهم جمال الصوت فيصيحون استحسانا لكل مقطع صوتى ، فلا يفرقون بين آيات الوعد وآيات الوعيد ، ولا تعنيهم ان تعرض الآيات صورة للجنة أو صورة للنار .

ولقد كان ابو حمزة الشارى يصف اصحابه بقوله (إذا مر احدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه) ، ولقد ذكر الله ذلك فى الأثر بقوله فى آية اخرى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاققشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهذى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾^(٣) .

وأما الصفة الثالثة فهى قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ والتوكل على الله أعلى مقامات التوحيد ، لأنه تفويض الأمر لله ، وإخلاص العبودية له دون سواه ، والأطمئنان إلى قضائه وقدره والرضا بهما والتسليم لهما ، ولقد روى ابو هريرة رضى الله عنه قول الرسول ﷺ : " يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير " ^(٤) . أى ان قلوبهم رقيقة من حسن صلتهم بالله وتوكلهم عليه .

ولما كان معلوما فى الشرع والطبع والعقل أن للإنسان كسبا اختياريا ، فإنه

^(١) آل عمران : ١٣٧ .

^(٢) الفتح : ٢٣ .

^(٣) الزمر : ٢٣ .

^(٤) رواه مسلم .

يجب عليه ان يسعى بجهده لينال نتيجة عمله ، ثم يرضى بقضاء الله ، وهذا هو حسن التوكل على الله ، أما ترك الاسباب وانتظار النتائج دون مقدمات ، وتسمية ذلك توكلا فإن هذا من الجهل بطبيعة التوكل ، والجهل بسنن الله التي لا تتحول ولا تتغير ، فإن الله قد أمر عباده بالعمل ، وأعد لهم الثواب على الإحسان وربط الرزق بالسعى حيث قال ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ .
وأما الصفة الرابعة ففى قوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ فالصلاة اتجاه بالقلب إلى الله ، وخشوع بالجوارح لعظمته ، وهى إظهار الحاجة المخلوق وافتقاره إلى خالقه ، من ثم فهى فى خلاصتها دعاء وتبتل .

وهؤلاء المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ، يرتفعون بها عن المعانى المادية كالالتزام الوقت ، وضبط الحركات ، واكتمال الهيئة ، ويجعلونها فى المقام الأول توجهها إلى الله تعالى ، وخشوعا قلبيا لعظمته وجلاله هذه الحقيقة الخاشعة القائمة فى الداخل تنعكس على الهيئة الخارجية ، فتعنى الجباة وتخضع العيون ، وتستكين الجوارح .
وإذا لم يكتمل فى الصلاة هذا المعنى فلا يصدق على المصلى انه اقام الصلاة ، ولكنه قد يؤدى حرركاتها ولا يدرك معناها فيكون من الغافلين .

ولقد قصر كثير من المسلمين فى هذا العصر حتى فرطوا فى اداء الصلاة أو أهملوها ، ولم تعد الصلاة تحتل جانبا من أوقاتهم أو تشكل جزءا من جوانب حياتهم ويبدو هذا حين تنعقد بعض المؤتمرات أو الاجتماعات فتشغل وقتين أو أكثر من أوقات الصلاة ، ولا تدع للمجتمعين فرصة لأداء الفريضة ، وكأن الصلاة لا تؤدى إلا والمسلمون فارغون ، أو كأنها إن اقيمت فإنها تشغلهم عن قضاياهم التى تملأ فراغ أوقاتهم ، مع أنها هى العبادة التى تحدد السلوك وتضبط الحياة ، فالمسلم فى صلاة دائمة تنعكس على معاملاته مع الناس والحياة أمامه مسجد كبير يستمد جلاله من جلال الحراب الذى يؤدى فيه الصلاة ، ومن أجل ذلك فقط جعل الاسلام الصلاة ، عماد الدين ووصى المسلمين بإقامتها والاصطبار عليها لأنها من أبرز ملامح الخشوع ، من أهم معالم

الإيمان ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ^(١) . ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وأما لكبرة الا على الخاشعين ﴾ ^(٢) .

وأما الصفة الخامسة ففي قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فإن الإنفاق في سبيل الله من أظهر علامات الإيمان ، وان الرزق الحلال الطيب ينفق في وجوهه المشروعة الصالحة .

والآية هنا تحث المؤمنين على ان يتحروا الحلال ، وعلى أن يطلبوا الرزق من وجوهه المشروعة فإن الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الرزق لا يجرى الا على طاليه بوسائل الطلب التي دعا القرآن اليها وحث على الاخذ بها .

كما حثتهم الآية على الإنفاق من هذا الرزق ما دام قد تحصل لهم ، فإن كثيرا من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ، حتى إذا عرضت لهم من الدواعي ما يقتضي البذل والانفاق قبضوا أيديهم ، وبخلوا برزق الله على عباد الله .

وهكذا يكون الانفاق محك اختبار الإيمان ، ومقياس الصدق فيه ، لأنه بذل للمال الذي تتعلق به النفوس ، ومقاومة للنفوس التي جبلت على الشح ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ فمن وجد في نفسه داعية لبذل أحب الاشياء اليه وهو المال ، فهو مستعد لقبول هداية القرآن ، والامتثال لأوامره .

وحين تجتمع هذه الصفات في نفوس المؤمنين فإن الله يقول فيهم ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

القصد حتى في العبادة

يقول الله تعالى ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ^(٣) ، ويقول ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ^(٤) .

(٣) الحج : ٧٨ .

(٤) البقرة : ١٨٥ .

(١) طه : ١٣٢ .

(٢) البقرة : ٤٥ .

لقد جاءت الأديان للإنسان : تخاطب قلبه بالهداية لينعطف اليها ، وتخاطب عقله بالفكر ليتدبر فيه ، وتخاطب طاقته بالتكاليف ليقدر على حملها ، ولقد جاء الاسلام خاتم الأديان ، كما جاء رسوله خاتم الرسل ، فكان هذا الدين الخاتم تجميعا لهدايات الأديان وخلاصة لإرشادها ، وكان هو الحنيفية السمحة ، التي جاء بها رسول الله ﷺ هداية للباحثين عن الدين الخالص ، وهداية للحيارى الذين فقدوا الطريق وكان النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام رسولا تلتقى أصوات الأنبياء السابقين فى صوته وإماما تجتمع تعاليمهم فى تعاليمه ، وهو كما قال عن نفسه "" إنما انا رحمة مهداة "" ، وكما قال عنه ربه ﴿ لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم . حريص عليكم . بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ^(١) .

وهاتان الصفتان - الرأفة والرحمة - من اعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل الا فى كمالها ، ورأفته ورحمته ﷺ صفات نفسه ، وانه كان يرفق بالناس ويرحم ضعيفهم حتى قبل بعثته ، ثم حمل هذه الرسالة إلى الناس وهو مزود بفضائله النفسية فخاطب منهم القلوب ، ودعاهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان رفقته وسيلة إلى جذب قلوبهم ، وكانت رحمته وسيلة إلى تأليف مشاعرهم وقال له ربه عز وجل ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم .. وشاورهم فى الأمر ﴾ ^(٢) . وإرساله رحمة للعالمين وللمؤمنين بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التي هى من اسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها .

وإذا كانت السماحة فى طبيعة هذا الدين ، وإذا كانت الرحمة فى طبع الرسول ﷺ فإن الذين تخاطبهم تعاليم الإسلام ، والذين تلقى عليهم تكاليفه ، بقدر الله فيهم الطاقة الانسانية فيكلفتهم بما يطيقون ، ويعرف فيهم الضعف البشرى فلا يحملهم ما لا يطيقون ،

^(١) التوبة . ١٢٨ .

^(٢) آل عمران : ١٠٩ .

لأنه سبحانه ﴿ لا يكلف نفسا الا وسعها ﴾ ولقد جعل القرآن من ملامح المؤمنين قولهم
لربهم ﴿ ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا
طاقة لنا به .. واعف عنا .. واغفر لنا وارحمنا ﴾ ^(١) .

فهم يستغفون الله ابتداء من التكليف الشاقة التي تتجاوز حدود طاقتهم ،
ويطلبون منه ان يحملهم اليسير الذي يسهل عليهم حمله ، وان يوفقهم لحمل ما كلفهم به
حتى لا يتعرضوا للتقصير الذي يوجب العقوبة .

وإذا جاز للمؤمنين أن يسألوا الله التخفيف فيستجيب لهم ويخفف عنهم ، فلا
يجوز لبعضهم ان يتكلفوا المشقة وقد عافاهم الله ، ولا يجوز ان يطلبوا العسير وقد
يسر الله عليهم .

فعن ابي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين
احد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة
وشئ من الدلجة " ^(٢) .

ومعنى ذلك ان تستعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم
وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصدكم ، كما أن المسافر
الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل إلى مقصده بغير تعب .
وما ينفيه الله تعالى من الحرج عن عبادة ، إنما هو قاعدة من قواعد الشريعة ومقصد من
مقاصدها الجليلة .

ولقد خاطب الاسلام المسلمين بالتكاليف ليرفع همهم عن القعود ويرفع
نفوسهم عن الرخاوة ولكنه كان رفيقا بهم في هذه التكاليف ليرفع عنهم المشقة ، وليبعث
في نفوسهم الأمل بالقدرة على الطاعة .

وأن القيام بما في طاقة الانسان من التكاليف ليس من الحرج في شئ ، وقد نفى

^(١) البقرة : ٢٨٦ .

^(٢) رواه البخارى .

الله الحرج عن المؤمنين بعد تكليفهم بالجهاد في سبيله حق الجهاد ، وهو بذل الجهد لإقامة سنن الله وحكمته ، ولا يصعد الانسان إلى مستوى الكمال الا ببذل الجهد في معالي الأمور . .

وأما الحرج فهو الضيق والمشقة فيما ضرره ، أكبر وأرجح من نفعه كالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة وكأستعمال المريض الماء في الوضوء أو الغسل مع خشية ضرر ، ولقد صرح القرآن الكريم بعد بيان فرضية الصيام والرخصة للمريض والمسافر بالفطر بأنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر .

ولقد دخل النبي ﷺ المسجد ، فإذا جبل مشدود بين الساريتين فقال : ما هذا الجبل ؟ قالوا: هذا جبل لزنب ، فإذا فترت تعلقت به ، فقال : النبي ﷺ : حلوه ، ليصل احدكم نشاطه ، فإذا فتر فليرقد ، وقال : إذا نعس احدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه ^(١) . وهذا الحديث يضرب لنا المثل على طبيعة الإسلام السمحة ، وعلى تكاليفه القائمة على التيسير وعلى علاقة العبد بربه من حسن صلة تحددها طاعة العبد ورحمة الله .

ولقد بنى العلماء على أساس نفى الحرج والعسر واثبات إرادة الله تعالى اليسر بالعباد في كل ماشرعه لهم من عدة قواعد وأصول ، وفرعوا عليها كثيرا من الفروع في العبادات والمعاملات منها : إذا ضاق الأمر اتسع ، وهو قريب من قوله تعالى ﴿ ان مع العسر يسرا ﴾ والمشقة تجلب التيسير ، وهو متأثر بقوله تعالى ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ﴾ ^(٢) . والضرورات تبيح المحظورات ، وهو مستمد من حكمة الله في قوله ﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ ^(٣) .

^(١) متفق عليه .

^(٢) البقرة : ١٤٨ .

^(٣) المائدة : ٣ .

وهذا يدل على أن مقياس حسن الصلة بالله ليس في كثرة العبادة التي تشق على الإنسان ، ولكن في إخلاص نيته وصدق اتجاهه ، ولقد كانت صلاة النبي قصدا بين الطول والقصر ، كما كانت خطبته قصدا ^(١) ، وقد ذم المتشددون المتعمقين في غير موضع التشديد بقوله " هلك المتنطعون " قالها ثلاث ^(٢) .

ولقد ناط الفقهاء معرفة المشقة التي تجلب التيسير وتكون سبب التخفيف بعرف الناس فيما لا نص فيه ، وهذا لا يعرف إلا بمعاشرة الناس وتعرف شئونهم وأحوالهم وقدرتهم على حمل الأعباء والقيام بالتكاليف ، وهذه القدرة لا تحددها طاقة إنسان واحد قد يكون قويا وقد يكون ضعيفا ، ولكن يحددها استقرار الطاقة العامة للإنسان ، والمعرفة الواعية بما يستطيع وما لا يستطيع فلا تكون قوة القوى حكما على ضعف الضعيف ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أخبر النبي ﷺ أني أقول : والله لأصومن النهار ، ولأقومن الليل ما عشت ، فقال رسول الله ﷺ " أنت الذي تقول ذلك " فقلت له قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال : فإنك لا تستطيع ذلك فصم وافطر ، ونم وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشرة أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر " ، فشددت على نفسي قلت : يا رسول الله إني أجد قوة ، قال صم صيام نبي الله دواد ولا تزد عليه ، قلت : وما كان صيام داود ؟ قال : نصف الدهر ، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ^(٣) .

وقوله ذلك يفسر قول النبي " لن يشاد الدين أحد الا غلبه " ، فقد يشتد حماس المسلم ، ويحملة وجدانه الإسلامى على الاجتهاد في العبادة ، وتحمل المشاق في سبيل ذلك ، فهو يقضى النهار صائما ، ويسهر الليل قائما ، ويلتزم بألوان من الرياضات الروحية لم يلزمه بها الإسلام ، وقد يكون في اتجاهه هذا حسن القصد سليم النية ، فهو

^(١) من حديث رواه مسلم عن جابر بن سمره .

^(٢) رواه مسلم .

^(٣) رواه الشيخان .

بذلك مشكور على قصده الحسن ، محمود على نيته السليمة ، ولكنه إن اندفع في الاجتهاد بعض الوقت بحماسة ، فهو مروود عن ذلك بقية الوقت بطاقته ، ولئن ساعدته على المبالغة في العبادة فطرته فلقد خذلته عنها قدرته ، فلم يستطع أن يواصل السير ، ولم يقدر على تحقيق القصد ، وقد ينتج عن اجتهاده أولا ان يتعب اخيرا ، وقد يترتب على تعب ان يفتر عزيمته ، وقد يترتب على هذا الفتور ان تقعد به الهمة فيتراخي ويتكاسل وبدلا من نشدانه الكمال فإنه يعجز عن أداء الواجب المطلوب وبذلك فهو (المنبت .. لا أرضا ولا ظهرا أبقي) ومن أجل ذلك ندرك حكمة الإسلام البالغة في الترخيص لعباده في أداء العبادات في بعض الحالات ، وهذه الحكمة إن غابت عن العباد فلن يستطيعوا الوصول إلى مراميها ، فإنها لا تغيب عن الله سبحانه وتعالى فهو الذى خلق الإنسان وهو أعلم به فقد رخص للمسافر ورخص للمريض ، ورخص للخائف في العبادات وقد لا يدرك هؤلاء حكمة الترخيص في بعض الاحيان ، ولكنهم ان لم يدركوها مبكرين فقد يحسون بها متأخرين .. وحين ذلك يحسون أن الله هو احكم الحاكمين ، فعن على بن أمية قال : (قلت لعمر بن الخطاب : أرأيت إقصار الناس الصلاة وأما قال عز وجل ﴿ إن خفتن ان يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد ذهب ذلك اليوم ؟ فقال عمر : عجبت مما عجبت منه فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ^(١) . فهنا نجد الرجل قد فهم أن الرخصة مقيدة بقيد هو الخوف ، وذلك مصداق لقوله تعالى ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة .. ان خفتن ان يفتنكم الذين كفروا ﴾ ^(٢) .

ولكن الرسول ﷺ يبين لنا ان الرخصة صدقة ، وان الصدقة عامة في الخوف وفي الأمن ، وأن الله يحب ان تقبل منه صدقته ، وأن نحمده تعالى على رحمته ويسر عبادته

(١) رواه الجماعة .

(٢) النساء : ١٠١ .

وإذا كنا نبغى بعبادتنا وجه الله ، وتتوجه بها ونطلب رضاه وإذا كان هو سبحانه الذى خفف عنا حيث علم فينا ضعفا ، فما بالنا نشق على أنفسنا ورحمة الله واسعة ؟ ! . وما بالنا نطلب العسير من العبادة والدين يسر ؟ ! .

إن المؤمن إذا دوام على عبادته القليلة فأحبها وتعلق بها ، خير منه إذا شق على نفسه بعبادة كثيرة حتى تعب منها وملها ﴿ ان الله لا يمل حتى تملوا ﴾ ^(١) .

والمقصود بملل الله ان يقطع ثوابه عنكم وجزاء اعمالكم ، ولا يفعل ذلك حتى تملوا فتتركوا ، فينبغى لكم أن تأخذوا من الأعمال ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم .

ولقد خلق الله الملائكة يصلون ، ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ^(٢) ﴿ ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون ﴾ ^(٣) .

ولكنه خلق البشر على الأرض وكلفهم برسالة فيها ، وجعل السعى على الرزق من العبادة ، وقال لهم ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ ^(٤) فطبيعة البشر غير طبيعة الملائكة وان كانوا جميعا خلق الله ورسالة البشر غير رسالة الملائكة وان كانوا جميعا عباد الله .

وقد روى أن حنظله وهو أحد كتاب رسول الله ﷺ دخل على رسول الله فقال: يا رسول الله نافق حنظله .. تكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا نراهما رأى العين ، فإذا خرجنا من عندك نسينا . فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ، لو تدومون على ما تكونون عليه عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظله ساعة وساعة " ثلاث مرات " ^(٥) .

^(١) متفق عليه .

^(٢) الأنبياء : ٢٠ .

^(٣) النحریم : ٦٠ .

^(٤) الملك : ١٥ .

^(٥) رواه مسلم .

وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾.

الثقة بالله وحسن التوكل عليه

﴿ إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم ﴾ (١) .

إن إيمان المؤمنين يصنع لهم جنة في الدنيا قبل أن يصيروا إلى جنة الآخرة ، وإن حسن صلته بالله يهيئ لهم حياة يتفيئون ظلها حين تكون حياة غيرهم جحيما ، ويشعرون بلذاتها حين تكون حياة غيرهم معاناة ، وكيف لا وقد قالوا ﴿ ربنا الله ﴾ .. كلمة اهترت لها مشاعرهم قبل أن تتحرك به السستهم وسكنت بها قلوبهم قبل أن تسلم بها جوراحهم ، فإذا قالوها فقد نطق بها كل شئ فيهم ، وإذا تقربوا بها احباتا إلى ربهم ، كان سمعهم الذي يسمعون به ، وبصرهم الذي يبصرون به ، ولئن سألوه لأعطاهم ، ولئن استعاذوا لأعاذهم .

ولقد سلك أنبياء الله ورسله هذا الطريق الآمن ، فواجهوا الدنيا الملحدة بإيمانهم الراسخ ، وقابلوا الحياة المضطربة بقلوبهم المطمئنة ، فإذا بقلوب الناس وكأنها في أيديهم يشكلون - بإذن الله - كما يشاءون ، وإذا بأفئدة القوم وكأنها أوعية يصبون فيها كلمة الله التي هم بها مرسلون .

بهذا الايمان الراسخ واجه موسى وهارون جيروت فرعون ، وحين أحسب بالضعف البشرى قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، ثبت الله قلوبهما بالطمأنينة فقال : لا تخافا انني معكما أسمع وأرى (٢) .

(١) طه : ٣٠-٣٢ .

(٢) طه : ٤٥-٤٦ .

وكانت ثمرة هذه الثقة في الله أن أطمأن فؤاد موسى حتى لحظات الخطر حينما حوَّصر وقومه بين البحر بأموأجه الهائجة وفرعون يُجنوده الجبارين .. حين ذلك ﴿ قال اصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وحين ذلك أيضا أجاب موسى بيقين الواثق بالله ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ ولم يكن يعلم كيف ستكون الهداية ، وكيف تتحقق النجاة حتى كان الله عند ظن عبده به فأوحى اليه ﴿ ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ^(١) . وبهذا الايمان يتسلح المؤمنون فلا يعينهم أوقعوا على الموت أو وقع الموت عليهم ، ما داموا قد زرعوا في نفوسهم ثقة بالله ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقى في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ^(٢) .

وهذه الثقة بالله تكون علامة على اكتمال الايمان في نفس المؤمن ، لأنه بما يسلم أمره كله لله ، ويضع مصيره كله في يد الله ويطمئن قلبه بها وإن خاصمته الدنيا كلها ، ولقد كان من أدعية الرسول ﷺ يتوجه إلى ربه بها (اللهم لك أسلمت ، وبك أمنت ، وعليك توكلت ، واليك انبت ، وبك خاصمت ، اللهم اعوذ بعزتك لا اله الا انت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون) ^(٣) .

والثقة أيضا يستمدّها المؤمن من إيمانه بأنه على الحق وإن كان قليل الاعوان ، وبأن عدوه على باطل وإن كان كثير الإخوان ، فإنه ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ^(٤) .

ولقد كان القرآن يثبت هذه الحقيقة في قلب النبي ﷺ بمثل قوله عز وجل :

^(١) الشعراء : ٦١ - ٦٣ .

^(٢) رواه البخارى .

^(٣) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم واختصره البخارى .

^(٤) البقرة : ٢٤٩ .

﴿ فتوكل على الله إنك الحق المبين ﴾ ، فلماذا يتردد وهو يعلم انه على الحق ؟ ولماذا يخاف وهو يعلم أنه في رعاية الله ؟ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾^(١) يعد وحده زادا نفسيا يستعين به على مصاعب الطريق ، وقوة روحية يتغلب بها على مشقة الدعوة إلى الله ، فما دام المؤمن قد عرف الله فهتف به وجدانه وخشعت له جوارحه ، وما دام قد استقام على أمر هذا الإيمان فلم يلبسه بظلم ولم يشبه بأى لون من ألوان الشرك ، فقد أصبح سالكا لطريق الله ، وأصبحت نيته خالصة لوجه الله ، ومن كان كذلك فإن الله لا يتخلى عنه ولا ينساه ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾^(٢) .

والإنسان في هذه الحياة يسير وهو يتحسس خطاه ويقدر لقدميه موضعها على الطريق ، لأنه دائما مشدود الأعصاب يتوجس الشر من المجهول الذى يحيط به ، ويتوقع الخطر في الطريق الممتد أمامه ، من ثم فهو خائف لا يطمئن ، وقلق لا يهدأ ، وليس له مصدر يهديه الأمن ويهبه الاستقرار ، وهذه إحدى مشكلات العصر لأن الانسان فيه أصبح عالما قائما بذاته منظويا على نفسه ، وأصبحت غايته أن يبنى نفسه وإن كان ذلك البناء على انقراض الآخرين ، وفي مثل هذا العالم تنقطع اسباب المودة وتنكمش الروابط ، وينحصر الوصول إلى الغايات في وسائل مادية مرتبطة بأسباب الارض مبتوتة الصلة بأسباب السماء ، فإذا عزت هذه الوسائل على السالكين ضاعت منهم الغايات التى يصبون اليها ، وعميت عليهم الأهداف التى ينشدونها ، وهى في حد ذاتها غايات ضيقة واهداف محدودة.

ومن ثم يسود الخوف فيسيطر على النفوس ، ويحكم اعمال الناس ، ويلون تصرفاتهم ولكن الاسلام يأتى ويرتفع بأعمال المسلمين ويسمو بغاياتهم ، فالأعمال المقبولة

^(١) الطور : ٤٨ .

^(٢) يونس : ٩ - ١٠ .

هى الأعمال الصالحة ، والأيدى التى تعمل هى الأيدى النظيفة ، ثم يكون الله سبحانه وتعالى غاية كل عمل ووراء كل نية ، وعلى قدر شرف الغاية يكون شرف الوسائل ، فإذا كان الله غاية المؤمن فى كل أعمال فهو يسير فى الطريق ثابت الخطوات ، مطمئن الخاطر واثقا بتوفيق الله .. إن حقق هدفه أحس بالأمن لوعده الله .. وإن لم يحققه رضى لأن أزيمة الأمور بيد الله ﴿ وكل شئ عنده بمقدار ﴾ ^(١) .

ومن هنا يعلم الرسول ﷺ اتباعه درسا فى حسن الثقة بالله والرضا بقضائه فيقول (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز . وإن أصابك شئ فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا .. ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن " لو " تفتح عمل الشيطان) فلا تطير نفس المؤمن شعاعا إذا قصر به الطريق ، ولا تطير نفسه فرحا إذا واثته النعمة وإنما هو صابر فى الأولى شاكرا فى الثانية ، ليس كمن وصفهم الله بقوله ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصيهم سيئة يقولوا هذه من عندك .. قل : كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ ^(٢) .

وتحرص الآيات على نفى صفتين عن المؤمنين المتوكلين على الله وهما الخوف والحزن .. فالخوف يشتمل الانسان ويبدد ملكاته فلا يجيد عملا من الأعمال ، والحزن يقبض صدره ويشغل نفسه ويغلق أمامه أبواب الحياة . يخاف الإنسان ان يبدأ الطريق ، ويخاف ان يزاحمه الناس إن هو بدأ ، ويخاف من الفشل ان انتهى عن العمل وترقب النتيجة .

ويحزن كذلك ان لم يحقق نجاحا ويحزن ان حقق بعض النجاح لا كل النجاح ، ويحزن ان شاركه الناس نجاحه وساروا فى نتيجته .

فهاتان الصفتان اذن - الخوف والحزن - مصدر قلق الانسان فى حياته ، ومبعث اضطرابه وفقدان أمنه ، ومن هنا تكفل الله عز وجل بإعفاء المؤمنين منهما لتصير

^(١) الرعد : ٨ .

^(٢) النساء : ٧٨ .

نفوسهم نفوسا مطمئنة ، وليستقبلوا حياتهم بصدور منشرحه ومشاعر واثقة ، فهو يوحى إلى المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ﴿ الا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ ، وذلك يزرع الأمن في قلوبهم والرضا في نفوسهم فلا يعينهم بعد ذلك ما نالته أيديهم أو ما ضاع منهم ، فما نالوه فهم ينفقونه في سبيل الله ، وما ضاع منهم فهو مدخر لهم عند الله .

ورسول الله ﷺ يوفر على المؤمنين قلقهم على ارزاقهم فيقول فيما يرويه عمر رضي الله عنه (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله . لرزقكم كما يرزق الطير تعدو حماسا وتروح بطانا ^(١)) .

معناه انها تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع ، وترجع اخر النهار ممتلئة البطون من الشبع .

وليس معنى ذلك أن الرزق مكفول بمجرد التوكل على الله وحسن الثقة فيه ، فإن السماء - كما قال عمر رضي الله عنه - لا تمطر ذهبا ولا فضة .

ولكن من حسن التوكل على الله ان يطلب الانسان الرزق من مصادره ومن حسن ثقته فيه أن يؤمن بالأسباب المؤدية إلى النتائج ، وما انتصر المؤمنون في حروبهم الا لأنهم توكلوا على الله حق توكله فحملوا السلاح في وجه عدوه ، وعملوا بقوله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلموهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ ^(٢) .

حب المؤمنين لله ورسوله

﴿ قل ان كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد

^(١) رواه الترمذى : وقال حديث حسن .

^(٢) الأنفال : ٦٠ .

في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿١﴾ . في فطرة كل انسان ميل الانتماء ، واعتزاز بالأهل والعشيرة ، وحب المال والولد ، ولا ينكر الاسلام عليه ذلك ، فالله سبحانه هو الذي خلقه بهذه الفطرة وهو الذي ركب فيه غرائزه التي يحيا بها فيسعى على رزقه طلبا لاستمرار الحياة ، ويخوض الاخطار التي تحيط به رغبة في البقاء ، ويثمر ماله اشباعا لغريزة الاقتناء وهكذا .

ولكنه رغم هذه الغرائز المركبة فيه ، ورغم حب التملك المختلط بفطرته ، فهو انسان له اشواقه وله شفافيته وسموه ، ولقد جاء الاسلام ليوجد في الانسان توازنا بين ماديته وروحانيته ، بين غرائزه الدنيا ومشاعره السامية ، فلم يفصله عن بشريته ليخلق به في السماء ، ولم يجرده عن روحانيته ليلصقه بالارض ، ولكنه خاطبه من منطلق هذين الاتجاهين ، وعامله في ظل هاتين الترتعتين .

فالمسلم مثلا يقرأ قول الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (٢) .

فيجد أن الله قد أباح له أن يتمتع بزينة الحياة ، وأن يأكل من رزق الله الحلال ، ثم يقرأ كذلك قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واحشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغركم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ (٣) . فيجد أن القرآن يذكره بيوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ، ويحذره ان يغتر بزينة الحياة الدنيا وهي فانية فينسى الحياة الآخرة وهي باقية ، ثم يعود فيقرأ مثل قوله تعالى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ (٤) .

(١) التوبة : ٢٤ .

(٢) الأعراف : ٣٢ .

(٣) لقمان : ٣٢ .

(٤) القصص : ٧٧ .

فيجمع بين طلب الدنيا وطلب الآخرة ، ويتوسط بين المتعة الفانية والثواب الباقي
ويأخذ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الهرم ، ومن الحياة
قبل الموت .

فإذا فعل ذلك فهو الإنسان السوى الذى إرادته الله وجعله فى الأرض خليفة ،
يقيم ميزان الله على الأرض ، ويجعلها مزرعة يأكل منها ، ولكنه وهو يأكل ويطعم ذريته
لا ينسى ان الدنيا كلها مزرعة للآخرة . لأن الإنسان فى خلال إندفاعه فى زحام الحياة ،
وفى حرارة طلبه للقمّة العيش قد ينسى نفسه فيجعل هذا الاندفاع هو الغاية ، ويجعل
الرزق الذى يحصل عليه هو الهدف النهائى الذى يسعى اليه .

وهو فى انحصاره فى هذا الافق الضيق يرتبط بأهله وعشيرته ارتباط تعصب ،
ويحب ماله وتجارته حبا طاغيا ، فيتحول سعيه على الرزق إلى حب ممقوت ، ويتحول
حبه لذويه إلى أنانية مذمومة .

وهنا يذكره القرآن بأن الله هو الرازق لما يسعى اليه من مال ، وهو الخالق لمن يحبهم
من الأهل والولد ، وهو الجدير بأن ينتهى اليه السعى كله ، وبأن يتعلق به الحب كله .
إن الله عز وجل لم ينكر على الناس حرصهم على المال ، ولم يؤاخذهم على مجرد
حبهم للأهل والولد ، فهذا من حظوظ الدنيا ولذاها الغريزية ، ولكنه - سبحانه - رتب
المواخاة على تفضيل هذه الحظوظ والشهوات الدنيوية فى الحب على حب الله ورسوله .
فحب الابناء للآباء شئ من غرائز النفس وشعورها ، والولد بضعة من أبيه يرث
بعض صفاته الجسدية والنفسية والخلقية ، وتقترن صورة الوالدين فى خيال ولدهما بكل
محبوب لديه فأمه مثال على الحب والرحمة والحنان ، وأبوه مثال على العظمة والقدرة
والإجلال .

ولقد كان العرب يتفاخرون بأبائهم فى أسواقهم وفى مواسم الحج حتى قال الله
تعالى ﴿ فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذاكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾ ^(١) .

^(١) البقرة : ٢٠٠ .

ولم يأت القرآن لينهى الأباء عن ابنائهم ، أو الأبناء عن حب آبائهم ، ولكنه يحذرهم ان يكونوا أحب اليهم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، ولا تعارض بين الحبين فإن حب الإنسان لإهله وولده في نطاقه المشروع حب لله وإجلال لقدرته التي اودعت في النفوس والمشاعر وفي القلوب الحب ، ولقد بين القرآن الكريم ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، والله لم يحرم الزينة التي اخرجها لعباده ، ولكنه ارتفع بهمهم وعواطفهم من التعلق بهذه الزينة إلى الاعتراف بفضل صاحبها سبحانه ، حتى يكون الاتجاه صحيحا ، والحب في مكانه المناسب ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ ^(١) . ومعنى ذلك أن الاعمال الصالحة التي يبقى ثوابها للإنسان بعد الحياة الدنيا خير من زينة المال فيها ثوابا ، وخير من البنين فيها أملا ، وقد يحب الوالدان ولدهما للأمل في نصرته والإعتزاز به ، وقد قيل لبعض الحكماء : أى ولك أحب اليك ؟ فقال : صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ .

وإذا ظل هذا الحب احساسا نفسيا تغذيه مشاعر الانسان وتحرسه عاطفته فهو من باب العاطفة الحانية والحب القطري ، اما إذا زاد ففيه الخروج وفيه التعارض بين حق الله وحق الإنسان .

ولقد ضرب القرآن الكريم للإنسان مثلا في ذلك ، حيث صور الرجل الصالح وهو يعلم موسى ، فيقتل الغلام ثم يفسر ذلك لموسى بقوله ﴿ وأما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ﴾ ^(٢) .

وليس معنى ذلك ان يقتل كل انسان ولده إذا ازداد حبه له حتى تفرغ عاطفته لحب الله ، ولكن العبرة في ذلك ان يعتدل كل والد في حب أولاده ، والا يلهيه هذا الحب فيجعله ينسى صاحب النعمة ، وهو إن فعل ذلك جعل الله هواه ، وعبد أهله

^(١) الكهف: ٤٦ .

^(٢) الكهف : ٨٠ - ٨١ .

وولده من دون الله ولكنه ان ربط حبه الكبير لله بحبه المحدود للولد ، لم تبطره النعمة إذا حازها ، ولم يقتله اليأس إذا فقدها ، ولكنه يؤمن بأن الله ما اعطى والله ما أخذ ، وكل شيء عنده بمقدار .

ولقد يكون حب الزوجية نوعا خاصا من شعور النفس ، فهو الذى يزرع فيها الطمأنينة والسكن ، وهو الذى يمتن الله به على عباده فى قوله ﴿ ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ^(١) . وهو الذى يتحد به بشران فيكون كل منهما متمما الآخر ينتجان باتحادهما بشرا مثلهما ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ ^(٢) .

ففى ظل الاحساس بنعمة الله يكون هذا الحب ، فنعمة الله فى التأليف بين زوجين متباعدين من آياته ، ومن أجل ذلك يختم القرآن هذه الآية بقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

وتناسل الذرية من هذا الزواج أيضا علامة على قدرة الله سبحانه ﴿ وكان ربك قديرا ﴾ .

ولقد عرض القرآن كذلك لإلوان من حب الإنسان وتعلقه ، كحبه للعشيرة ، وهو حب عصبية وتعاون وإعتزاز ، ويكون على أشده فى أهل البداوة حتى يصل إلى درجة التناصر بالحق والباطل ، ولقد اضعف الاسلام هذه النعرة بالدعوة إلى الحب فى العقيدة والمساواة بين المسلمين فى أخوة الاسلام ﴿ يأيتها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ^(٣) .

وحب الأموال المقترفة - المكتسبة - أقوى من حب الأموال الموروثة ، لأن عناء الإنسان فى اقترافها يجعل لها فى النفس منزلة خاصة . وحب التجارة وحب المساكن وغير

^(١) الروم : ٢١ .

^(٢) الفرقان : ٥٤ .

^(٣) الحجرات : ١٣ .

ذلك من أنواع الحب ظواهر طبيعية في نفس الإنسان ، ومن شأنها ان تشده وتلهيه وتنسيه ، لكن حب الله تعالى فوق كل حب ، لأن كل شئ محبوب في الوجود من صناعه وفيض احسانه ، فيجب على المؤمنين ان يوجهوا حبهم إليه ، وتعلقهم به وعبادتهم له ، فإنه سبحانه هو خالق الحب ، وانه سبحانه هو المعبود ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القسوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾^(١).

علاقة المخلوق بالخالق

معصية العبد وتوبة الله عليه

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك إعتدنا لهم عذابا أليما ﴾^(٢) .

لقد قال بعض الحكماء : إن الله ركب الملائكة من عقل دون شهوة ، وركب الحيوانات من شهوة دون عقل ، وركب الإنسان من العقل والشهوة ، فمن غلب عقله على شهوته فهو كالملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو كالحيوان وبقي أن نقول في مجال هذه القسمة : إن من وازن بين عقله وشهوته وعدل بينهما فهو إنسان ، وهو المخلوق الوسط بين الميل المادى والسمو الروحى .

والله الذى خلق الإنسان وسواه أعلم به ، فقد خلقه من طين ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهو بهذا الطين قد يشده الذنب وتجذبه الخطيئة ، وبهذه الروح يرتفع درجات إلى عالم الملائكة .

^(١) البقرة : ١٦٥ .

^(٢) النساء : ١٧ - ١٨ .

ولقد وصف الله المؤمنين الذين أحسنوا إلى أنفسهم باجتناب بئائر الامم والفواحش ، ثم استثنى من تلك الذنوب صغائرهما فسماه " اللمم " وغفر لعباده ، وبين الحكمة من ذلك فجعلها في أطلاعه على نشأة عباده ومعرفته بطبيعتهم منذ خلقهم ، ومنذ كانوا أجنة في بطون أمهاتهم .

فلنقرأ معا قوله سبحانه وتعالى ﴿ ليحزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة في بطون امهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو اعلم بمن أتقى ﴾ (١) .

فهاتان الآيتان وأمثالهما تبين موقف الإنسان من ذنوبه ومعاصيه ، فقد يتعرض للذنوب أو يتعرض الذنوب له ، فيدفعها ما أستطاع ، فيفلح في اجتناب بعضها ، ويتغلب عليه البعض الآخر ، وهو بين الوقوع في الخطأ ، والاعتصام منه آدمى أنشأه الله من الأرض فهو يهفو إليها ، وخلق له قلبا فهو يتوب به ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ .

وباب التوبة مفتوح للعصاة والمذنبين ، لا يغلقه الله في وجه أحد ، ولا يوصده أمام طالب ، بل أنه لينادى ، كل مسيء ليقلع عن سيئته ، ويدعو كل مذنب ليتوب عن ذنبه ، فعن أبي موسى الاشعري عن النبي ﷺ انه قال (ان الله تعالى ييسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها) (٢) .

وليس الله سبحانه بحاجة إلى توبة عباده ، فإنه - سبحانه - لا تفيده توبتهم ولا تضره معصيتهم ، وهو الذى يقول في الحديث القدسى : ((إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضرى فتضرونى)) ، ولكنه يفتح باب التوبة لعباده ، ليفتح امامهم باب الأمل ويغفر لهم الذنوب لييسط لهم يد الرحمة ، ويقبل منهم العودة اليه بعد

(١) النجم : ٣١ - ٣٢ .

(٢) رواه مسلم .

إعراضهم عنه لأنه هو الذى يقول ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون
ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ (١) .

والآيتان اللتان صدرنا بهما المقال تفيدان ان الله قد كتب على نفسه الرحمة ، وانه
تعالى قد اوجب على نفسه قبول التوبة بوعده الذى هو أثر كرمه وفضله ، وما دام قد
كتب على نفسه الرحمة واوجب على نفسه قبول التوبة ، فإن ذلك وعد يثق فى صدقه
المؤمنون ، ويطمئن إلى تحقيقه المذنبون التائبون ، أولئك هم الذين ﴿ يعملون السوء بجهالة
ثم يتوبون من قريب ﴾ فهم يعملون السوء ، وهو العمل القبيح الذى يسوء فاعله إذا كان
عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس ، وان علامات الايمان فى نفس المؤمن ان تسره حسنته
وأن تسوء سيئته ، وان الفرق بينه وبين غيره انه يلم بالذنب فيندم عليه ويتوب عنه ،
وإن غيره يرتكب الخطيئة فيستمر فيها ويصر عليها ﴿ ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من
الشیطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدوهم فى الغي ثم لا يقصرون ﴾ (٢) .

وأما الجهالة التى تصاحب الإنسان عند عمل السوء فهى حالة نفسية تغلبه ،
وتلابس نفسه عند ثورة الشهوة ، أو ثورة الغضب ، فتذهب علمه ، وتنسيه الحق ولو إلى
وقت قصير ، ولكنه يعود من قريب فى وقت قريب تسكن فيه تلك الثورة ، أو تنكسر به
تلك السورة ، ويثوب اليه حلمه الذى غاب عنه ، ويرجع إليه عقله الذى زايله ، وكلما
قرب وقت التوبة من وقت إقرار الذنب كان الرجاء أقوى ، وكلما بعد الوقت
بالإصرار والتسويق وعدم المبالاة كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح .

والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها على المعصية ، وتدفعه إلى الإستغفار عن
الذنوب وكذلك علم الرسول ﷺ اصحابه فعن ابى هريرة - رضى الله عنه - قال :
سمعت رسول الله ﷺ يقول : (والله إني استغفر الله واتوب اليه أكثر من سبعين مرة) (٣)

(١) الأعراف : ١٥٦ .

(٢) الأعراف : ٢٠١ .

(٣) رواه البخارى .

وإذا كان ذلك من الرسول الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فهو تعبير عن الشكر ومعرفة فضل الله ، ومن أجل ذلك فقد قال لسائله " أفلا أكون عبدا شكورا ؟ " وأولى بالمؤمنين ان يستغفروا ربهم فى كل يوم وليلة .

ولقد أغتر بعض المذنبين بحلم الله ووعدده بقبول توبة التائبين ، وجرأهم ذلك على الإصرار على الذنوب والآثام ، وقد ظنوا ان هذا الإصرار لا يضر المذنبين إذا تابوا قبل ان تبلغ الروح الحلقوم ، وصاروا يسوفون بالتوبة حتى يغرم التسويف ، فيموتوا قبل أن يتمكنوا من التوبة وما يجب ان يقترن بها من أصلح النفس بالعمل الصالح وقد استثنى الله من العذاب اولئك الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيمًا ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾ (١) وقد قال رسول الله ﷺ (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) .

ولايتنا فى ذلك مع ما ورد من الأحاديث والآثار عن قبول التوبة إلى ما قبل الغرغرة أى وقت الاحتضار ، كحديث ابن عمر وأحمد والترمذى : " ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر " ، فإن المقصود من ذلك عدم اليأس من رحمة الله ، وإغراء العبد بالتوبة فى أى وقت فإن الله ينادى عباده بقوله سبحانه وتعالى ﴿ يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٢) .

وإن نفس الإنسان لتتدنس بالذنوب بالتدريج ، فإذا طال الأمد على مزاولتها تمكنت منها ورسخت فيها حتى تصير نكتة سوداء فى قلبه ، وأن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ولا تزول آثار الذنوب إلا بالتوبة الصادقة التى تطهر النفس بالعمل الصالح ، والصبر على تخليصها من الدنس فى زمن طويل يناسب الزمن الذى قضته فى المعصية ، لأن المعصية إذا تكررت صارت عادة تحتل نفس الإنسان وتستبد بمشاعره ، فإذا حاول التخلص منها فكأنما يقتلع ملكة من ملكات نفسه ، وذلك من

(١) الفرقان : ٧٠ - ٧١ .

(٢) الزمر : ٥٣ .

أعسر الأمور وأشققها ، ومن هنا كان لابد للإنسان ان يبادر بالتوبة قبل أن يستمر في المعصية ، وأن يقلع عن الذنب قبل ان تحيط به الخطيئة ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ^(١) .

ومن كان قوى الإيمان بحيث لا يقع منه الذنب إلا عن بادرة غضب أو شهوة ، أو جهل بأنه معصية تستوجب العقوبة ، فهو من أولئك الذين يقع منهم سوء هفوة بعد هفوة وأولئك يتوب الله عليهم حيث يقول الله عز وجل ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ ، وقد ختمت هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ لأنه بعلمه - سبحانه - قد أطلع على نفوسهم حين امتزجت بالمعصية وألم بها الذنب فوجدها تقع تحت ضغط قوى اكبر من إرادته واشد من مقاومته ، ثم ندمت على ما فعلت في وقت ينفع فيه الندم ، فاقترضت حكمته - جل شأنه - ان يقبل توبتها وأن يتوب عليها ، والله يتوب على من تاب .

وهكذا شأن الإنسان في جميع أعماله الاختيارية ، فإنه لا يقدم على عمل الا إذا توقع المنفعة منه أو جهل الضرر المترتب عليه ، ولا يصدق عمل السوء من الإنسان الا مع التلبس بالجهل وعدم إقامة ميزان القسط في الترجيح بين الفعل والترك ، فإذا زال الجهل عن قريب فتاب كانت توبته مقبولة حتما ، وذلك بأن يتوب في حال الصحة والأمل في الحياة .

ومن أجل ذلك فقد ذكر القرآن الكريم " السوء " ليشعرنا أن التوبة تقبل ممن يقع منهم الذنب هفوة وتلم بهم المعصية ألاما ، ولكنهم لا يصرون عليها ، بل يتوبون من قريب .

وقال فيما لا تقبل توبتهم ﴿ يعملون السيئات ﴾ لأن السوء تراكم بعضه على بعض حتى صار سيئات ، ولأن الذنب قد تكرر إرتكابه حتى أصبح ذنوبا ، ولأن الجهل قد تكاثف على النفس الجانية حتى صارت مثل الظلمات .

^(١) البقرة : ٨١ .

هؤلاء يعملون السيئات ويعلمون انها سيئات ، ويصرون على المعصية ويعتقدون انها معصية لله عز وجل ، ويتبعون هوى أنفسهم ويؤثرون إرضاء شهواتهم على رضوان الله ومنفعة عباده ، حتى يصير الخطأ ملكة تصرف إرادتهم ويتعذر معها التوبة ، وهي التي عبر عنها القرآن الكريم بالختم على القلوب والرين عليها ، وإحاطة الخطيئة بها ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ﴾ ^(١) ، ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ ^(٢) . وان من الناس من تغلب شهواته فيطيعها ثم تقوم في نفسه الخواطر الإلهية فيندم على ما فعل ويعزم على الاقلاع عن الذنوب فأولئك أيضاً من التوابين ، ومنهم فريق جعل المجاهدة رياضة نفسية تقويه على اجتناب كبائر الإثم والفواحش الآل للهم ، وتظل الحرب في نفس هؤلاء سجالاً بين ما يلمون به من الصغائر وبين الخواطر التي هي جند الإيمان وهي واعظ الله في نفس كل إنسان .

وبعض الناس يقعون في الأثام ثم يتوبون ويستغفرون ثم يعودون إلى الأثام مرة أخرى ثم يتوبون ويستغفرون ، وهكذا تظل نفوسهم موزعة بين ارتكاب الذنب والندم عليه ، وهؤلاء في أدنى مراتب التوابين ، وهم في ذلك في محل الرجاء والعودة إلى الله ، لأن في نفوسهم قوة زاجرة تلومهم على الذنب ، وتذكرهم بالله ، وقد يكون في تكرار اللوم ، وتكرار الذنب قدرة قاهرة على التغلب على إلحاح الشهوات وهمزات الشياطين ، فيلحق أصحاب هذه النفوس بالتوابين المتطهرين ، اما إذا انكسرت الزواجر النفسية امام الشهوات فقد أحاطت الخطيئة بصاحبها فأصبح من المصيرين الهالكين .

ولقد نفى الله سبحانه وتعالى قبول التوبة للذين يعملون السيئات ولا يتوبون عنها الا إذا حضر احدهم الموت بقول ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ﴾ ولم يقل : " وليست التوبة على الله ... " . كما قال : ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ وذلك لأنه - سبحانه - لا يوجب على نفسه قبول توبتهم إذا تابوا ، ولكنه ينفي وقوع التوبة

^(١) البقرة : ٧ .

^(٢) البقرة : ٩ .

الصحيحة منهم ، ولو تابوا توبة صحيحة صادقة لتابوا من قريب ، ولقصروا المسافة بين إرتكاب الذنب وبين الندم عليه ، ولكن سنة الله قد مضت عليهم فأحاطت بهم خطاياهم وسيئاتهم فلم تدع للطاعة والحسنات مكانا من نفوسهم إلى ان حضر أحدهم الموت ويئس من الحياة التي تمتع فيها ... عند ذلك قال : إني تبت الآن ... وما هو من التائبين . ولقد قرنت الآيات امثال هؤلاء في رد توبتهم بالذين يموتون وهم كفار ، لأنه إذا لم يكن للمؤمن المذنب توبة عند حضور الموت ، فالأولى الا تكون هذه التوبة للكافر ، والكفر رأس الكبائر وقمة المعاصي .

كسب المخلوق في ظل مشيئة الخالق

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾^(١) .
يوقن المؤمن ان كل شئ في هذه الحياة بإذن الله ، وانه يخطط طريقه في الدنيا تحت مظلة من قضاء الله وقدره ، وهو لا ينفع نفسه ولا ينفع الناس إلا بشئ قد كتبه الله له ، ولا يضر نفسه ولا يضر الناس إلا بشئ قد كتبه الله عليه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

ولكن رغم هذا الإيمان اليقيني بالقضاء والقدر فإنه مكلف بأن يسعى بمشاعره صادقة وعينين مفتوحتين ونفس راضية ، فهو يطلب الخير لنفسه ويحرص على ما ينفعه ، وذلك بناء على ما زوده الله به من فطرة تعرف الخير وعلى ما هيا له من ملكات يستعين بها على شق طريقه في الحياة ، وعلى ما بث به من غرائز يستعملها في المحافظة على نفسه واستبقاء حياته وتحقيق مصلحته .

حتى إذا استكمل هذه الأدوات الإنسانية ، وأدى دوره وقام بواجبه نحو نفسه ، فقد استكمل أركان التوكل على الله ، ومن ثم فهو يسير ثابت الخطوات على الأرض موصول القلب بالسماء ، لأن عليه ان يسعى وليس عليه إدراك النجاح ، ولكن سعيه هذا

^(١) الأعراف : ١٨٨ .

على أساس من اليقين ، وفي ضوء من التوكل عليه - سبحانه - يؤنسه ويهديه لأن الله لا يضع أجر من أحسن عملا .

وهو إذن يسعى بقدميه ويدعو بقلبه ، ويتسلح بغرائزه ويهتدى بفطرته ، كالزارع يبذر الحب ويطلب الثمار من الرب ، وينفق جهده في وقت الغرس ويرجو البركة في وقت الحصاد .

وهو إذا خرج من بيته طالبا رزقه كان كالطير تغدو حماسا وتروج بطانا لأنه قد توكل على الله حق توكله ، ومن هنا نجد الرسول ﷺ يقول فيما يروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (من قال - يعنى من خرج من بيته - باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان)^(١)

الإنسان اذن مكلف أن يحرص على مصلحته ويطلب الخير لنفسه من جهة ، وهو من جهة أخرى مطالب بالإيمان بقضاء الله ، وان إرادة الله خير له ، وأنه إذا اختار لنفسه فبهداية الله له وتوفيقه إياه ، فهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا مستقلا بقدرته ، وإنما يملك ما يملك بقدره الله ومشئته ، وذلك هو معنى الاستثناء في قوله تعالى :

﴿ إلا ما شاء الله ﴾ وهو يبين عجز المخلوق عن الاستقلال والاستغناء عن الله ، فهو لا يملك لذاته بذاته ، بل بمشيئة الله تعالى .

وإذا كانت هذه الآية خطابا للرسول ﷺ ، وبياننا من الله أنه لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفعا ولا ضرا بل يعجز عن ذلك بمقتضى بشريته ، فإن غير الرسول أولى بهذا العجز ، وأبعد عن الإطلاع على الغيب الذى هو شأن الخلق دون المخلوق .

والقلق النفسى أساس من أسس مشكلاتنا المعاصرة ، فهو موجة مدمرة وظاهرة عامة تحتاج الشباب وغير الشباب ، وهذا القلق قلق على المصير وقلق على الرزق وقلق على العمر ، والرزق معدود ومحدود ﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ﴾ ، والأجل مكتوب ومقدور ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ،

^(١) رواه ابو داود الترمذى والنسائى .

ومن هنا كان الإيمان ملاذ الخيارى وملجأ الخائفين وكان القلق سمة من سمات الضعف البشرى حين يتجرد الإنسان من أسباب اتصاله بالسمااء لشدة التصاقه بأسباب الأرض .

وان أساس العبودية الخالصة لله فى توجيه العباد إلى ربه فىما يرجون من نفع ويخافون من الضر ، والله المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع ، وهو غير مقيد ولا خاضع للأسباب العادية التى تعارف عليها الناس ، والمقاييس التى هى من صنع البشر .
ولقد عاب الله على المشركين عبادتهم لآلهة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، فقال :
﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ﴾ (١) .

وقال فى عجل بنى إسرائيل ﴿ أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ﴾ (٢) .

ولما كان ملك الضر والنفع بيد الخالق وحده سبحانه وكان الطلب الذى يتوجه به الناس لجلب النفع وكشف الضر عبادة لا تجوز أن توجه إلى غير الله من العبادة ، فلقد أمر الرسول ﷺ ان يصرح بالبلاغ عنه بأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ، ولقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم كثيرا ، ومنها قوله تعالى ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ﴾ (٣) .

ولقد ظهر ذلك المعنى فى قول الرسول ﷺ لأبنته : " يا فاطمة بنت محمد ، أعملى فى لا أملك لك من الله شيئا " .

ومن هنا أمر الله نبيه أن ينفى عن نفسه العلم بالغيب ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ولو أن النبى يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، وتجنب الضر .

فإن الناس يرغبون فى خيرهم الذى يجلب لهم المنافع المادية كالمال والمعنوية كالعلم والجاه ، ويفرون بقدر ما يستطيعون من كل مصدر يجلب لهم الأذى ويسبب لهم الآلام

(١) المائدة : ٧٦ .

(٢) طه : ٨٩ .

(٣) يونس : ٤٩ .

ولكنهم بالغيب أجهل ، وعن فطنة الأطلاع عليه ابعد ، فقد يطلع الله انبياءه على بعض الأمور التي هي من علم الغيب ، والتي تتعلق بوظيفة الرسالة كالملائكة والحساب والثواب والعقاب ، وأن ما يطلع عليه الرسل من ذلك لا يكون من علمهم الكسبي ، لأن النبوة غير مكتسبة ، ويقول الله عز وجل ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ (١) .

وهذا الفهم يحرر العوام من استيلاء بعض الدجالين عليهم لادعائهم انهم يطلعون على المستقبل ، ويكشفون للناس عما سيكون لهم من أمور الدنيا ، وهذا تنجيم نهي عنه الإسلام ، ووصفه نبيه بالكذب والضلال ، كما أنه يقعد بالهمم فيعطل الناس عن السعي ويجعلهم يتعلقون بأوهام وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، وهذا الادعاء يدل على ضعف النفوس التي تدعى علم ما لاسبيل إلى علمه ، ويدل كذلك على تفاهة العقول التي تصدق ذلك الوهم ، وتخضع لتلك الخرافات ، مع ان الله سبحانه يأمر انبياءه بأن ينفوا عن أنفسهم هذا العلم الغيبي ، ليفرغوا عقائد قومهم لعبادة الله وحده والتوجه إليه دون سواه ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم أنى ملك إن اتبع الا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ (٢) .

فما دام الله تعالى لم يؤت الرسل ما لم يؤت غيرهم من التصرف في المخلوقات ومن علم الغيب ، فليس لمن هم اقل منهم مرتبة وأدى مقاما ان يدعوا لأنفسهم ما ليس لهم ، وان يخذعوا العوام فيصرفوهم عن التوجه إلى الله بالتوجه اليهم ، وعن دعائه بالتعلق بهم ، مع أن الدعاء - كما قال رسول الله ﷺ (مخ العبادة) أى خلاصتها وحقيقتها .

وحين يتقلص ظل الدين في قلوب المنتسبين اليه ، تضعيع حقيقته من نفوسهم فلا تبقى منها إلا الظنون ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ فالقرآن الذى أنزله الله ليخرج

(١) الجن : ٢٦ - ٢٨ .

(٢) الأنعام : ٥٠ .

الناس من الظلمات إلى النور يتحول من قلوب الكسالى نورا وهدى إلى اسماعهم نغمات وألحانا ، وآيات الرزق التى تحت المؤمنين على السعى والطلب يفهمها القاصرون على انها تدعو إلى الكسل والتواكل وطلب الرزق ونحن نيام .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد دعانا إلى الإيمان بالغيب مما لا تدركه حواسنا وان كان حقيقة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، فإنه قد دعانا كذلك إلى كشف ما يمكن ان تصل إليه الحواس ، وإلى أستغلال كل ما يمكن ان نكشفه من طاقات ، وإلى ان ننقب فى الأرض فنستخرج مكنونها ، ونغوص فى البحر فنستخرج كنوزه ، ونخلق فى الفضاء فنعرف أسرارها ، وحين نفعل ذلك فإننا لا نشارك ربنا فى الإطلاع على الغيب ، ولكننا نستقبل فضله فى إقدارنا إلى البحث والتنقيب فى حدود إيماننا بقدرته التامة على النفع والضرر ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم . قل انتظروا إلى معكم من المنتظرين ﴾ (١) .

العدالة شريعة الله

﴿ يأيتها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خير بما تعلمون ﴾ (٢) .

إن العدل صفة نبيلة من صفات المؤمنين ، وعليها قامت الدعوة إلى دين الله وبها أمر الله كما أمر بغيرها من الصفات النبيلة فقال ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ (٣) . وقال فى موضع آخر ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ (٤) . فالعدل واجب فى الأقوال كما انه

(١) يونس : ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) المائدة : ٨ .

(٣) النحل : ٩٠ .

(٤) الأنعام : ١٥٢ .

واجب في الأفعال ، وبه تصلح شئون الناس ، ويقوم أمر العالم ، ولا يجوز لمؤمن أن يحابي فيه أحدا ، لقرابة أو لصداقة أو غير ذلك ، وفي هذا إختبار لعدالته وإيمانه ، فإن الإسلام يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى رفيع يقوم على أساس من هدى العقيدة في الله ، ويتره المؤمنين عن الضعف البشرى الذى يضطره أحيانا إلى الجور والتعصب ، والإنقياد للآهواء ويدعو إلى إقامة الشهادة لله بالحق ولو كانت على النفس أو الوالدين والأقربين .

لأن العدل فوق الحقوق الشخصية وحقوق القرابة غيرها ، ولقد شاعت محاباة الأقربين والتعصب لهم بالحق والباطل في الجاهلية ، حتى جعلت الواحد منهم يحمل سيفه ويحارب بجانب أهل عصبته ظالمين أو مظلومين ، فهم لا يسألون أخاهم برهانا على صدق قوله أو عدالة موقفه ، ولكنهم يندفعون معه منقادين لعصبية مذمومة ونداء ظالم ، وجاء الإسلام فحظر محاباة المرء نفسه أو أهله وإعطاءهم ما ليس لهم من الحق ، ولقد روى عن ابن عباس أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كانت البقرة أول سورة نزلت ، ثم اردفتها سورة النساء ، قال : فكان الرجل تكون عنده شهادة قبل ابنه أو ابن عمه ، أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عسرتة حتى يوسر فيقضى ، فترل قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(١) .

ولقد جاء الأمر بالعدل في الشهادة في قوله عز وجل ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ . لأن القوامين بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها ، لذلك فقد أمر الله تعالى بإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط لتأكيد العناية بهذه الأشياء .

ومن كان قواما بالقسط فقد أصبحت العدالة لازمة فيه وملكة راسخة في نفسه . وللعدل مجالات كثيرة تتلمسه فيها ونحتاج اليه حين تواجهنا هذه المجالات ، فهو مطلوب فيما يجب من العلاقة بين الزوجات والسلطان عليهم .

^(١) النساء : ١٣٥ .

ولقد كان ينبغي ان يكون المسلمون بمثل هذه التعاليم الربانية أعـدل الأمم وأقومهم بالقسط ، كذلك كانوا عندما كانت تعاليم الكتاب احكاما تنفذ لا مجرد آيات تتلى ، وصدق عليهم قول الله عز وجل ﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ ^(١) .

ولكن حين انحرف الخلق عن سيرة السلف ، ونبذوا هداية القرآن وراء ظهورهم ، صارت أمم العالم تفخر عليهم بالعدل ، وصار الذين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه يلتمسون من الأمم الأجنبية القسط والعدالة وهداية القانون .

وحين تكون الشهادة لله فإن المؤمن يجب عليه أن يتحرى الحق الذى يرضى الله لا الناس ، فهو لا يجامل أحدا لقربته أو صداقته ، ولا يميل مع أحد لمطامعه وأهوائه ، وإنما هو يقيم الشهادة إمتثالا لأمر الله وإتباعا لشريعته المستقيمة التى لا تنحرف ولا تجور . ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها ، لأن الشهادة إظهار الحق ، ومن أقر كذلك بالحق على أهله وأقاربه فقد أنصفهم لأنه كفهم عن الظلم وأبعدهم عن الباطل ، ولقد روى عن رسول الله ﷺ أنه حث المؤمن على ان ينصر أخاه ظلما أو مظلوما . قيل يا رسول الله أنصره مظلوما ، فكيف انصره ظلما . قال : أن تأخذ على يده فتكفه عن الظلم ، وذلك نصره ... وليس من بر الوالدين أو صلة الأقرين ان يعينهم على ما ليس لهم بحق ، أو أن ننكص عن الشهادة من أجل إرضائهم ، وإنما البر والصلة فى الحق والأمر بالمعروف وإقامة الشهادة على وجهها .

وإن الذين يتعاونون على هضم حقوق الناس ، يتعاون الناس كذلك على ظلمهم وهضم حقوقهم ، فتكون المحاباة فى الشهادة ، من أسباب إنتشار الظلم والعدوان وذلك من المفاسد التى تعود بالضرر على الأفراد .

وان شهادة الشاهد تكون لإرضاء الله لا لإرضاء الناس ، والعدل ميزان الله فى الأرض به ينتصف الله من الشديد للضعيف ، ومن المبطل للمحق ، وبالعـدل يصدق

^(١) الأعراف : ١٧١ .

الصادق ويكذب الكاذب ، ويوضع كل منهما في موضعه الصحيح ، وكم من مجاملات في حياتنا تجور فتقصي الأكفاء وتقرب الجهلاء فلا تجنى الأمة من ذلك الا الضياع والخسران .

وإذا وقعت المحاباة في الشهادة أو إختل ميزان العدالة بين الناس ، زالت الثقة بينهم وتقطعت روابطهم الإجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، حين ذلك يسلط الله عليهم بعض عباده فيزيلون أستقلالهم ، ويذيقونه من الظلم الذى أذاقوه لغيرهم ، وتلك سنة الله التى شهدناها فى الأمم الحاضرة ، وشهد بها تاريخ الأمم الغابرة ، فكأن الإسلام ينبه الغافلين إلى أن الذى يجور منهم فإنما يجور على نفسه ، والذى يحطم ميزان العدالة اليوم ، فإن الدوائر تدور عليه فى الغد ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (١) .

فلا عذر لمؤمن فى ترك العدل وعدم إثارة على الجور والمحاباة ، بل عليه ان يجعله فوق الأهواء وحظوظ النفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببها ، ولقد كان من آيات العدالة كما اشار القرآن ان يعدل الإنسان حتى مع أعدائه والمبغضين إليه ، فلا تمنعه عداوتهم وبغضاؤهم من قول كلمة الحق ، لأن هذه الكلمة فى هذا المجال هى أقرب إلى التقوى والبعد عن سخط الله وعقابه وقد يرى الإنسان بفكره الضيق ونظرفته المحدودة ان الخير فى كتمان الشهادة أو تحريفها ، وانه إن أداها على وجهها الصحيح فسيجلب عداوة الأصدقاء ونفور الأقارب وشماتة الأعداء وهو من أجل ذلك يؤثر السلامة ، ويخلص إلى الطريق السهل الذى يستبقى صداقته لأصدقائه ومودته لأقاربه ، ولكنه لو درى عاقبة ما يفعل لأدرك أن الصداقة المبنية على الباطل لا تلبث ، أن تنهار ، والصلة الممتدة بحبال المجاملات لا تلبث ان تنقطع ، ومن أجل ذلك المعنى ختمت الآية بعد الأمر بإقامة الشهادة ومراعاة واجب العدالة والتقوى بقوله تعالى ﴿ ان الله خبير بما تعملون ﴾ لأن الخبرة هى العلم الدقيق الذى يؤيده الاختبار والله لا يخفى عليه شئ من أعمال الناس ظاهرها

(١) يونس : ٤٤ .

وباطنها ، ولا من نياتهم وحيلهم فيها ، فهو الحكم العدل القائم بالقسط ، وهو الذى يجزى الناس بالعدل على تركهم العدل وقد مضت سنته فى خلقه لأن جزاء ترك العدل وإقامة القسط فى الدنيا هو ذل الأمة وهوانها ، وإعتداء غيرها من الأمم على استقلالها ، ولقد قال نبينا عليه السلام " (إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو) ^(١) .

وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوأ أو تعرضوا إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

إحساس المؤمنين بعدالة الله فى الثواب والعقاب

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ .

إن حواس المؤمنين يقظة دائما لكل ما خلقه الله ، ومشاعرهم دائما مشدودة إليه تبغى رضاه ، هم يوقنون إن ميزان الله عادل لا يجور ، وحكمته بالغة لا تقصر ، وحسابه قائم لا يحابي ولا ينحاز ، ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ^(٢) . فأساس القرب من الله أو البعد عنه هو الإحسان أو الإساءة والطاعة أو المعصية .

والمؤمنون رغم صلتهم بالله وقرب منزلتهم منه يمثلون هذا المقياس العادل دائما ، ويلتزمون به فى كل ما يأتون وما يدعون ، فلا يغرمهم رضا الله عنهم فيقصرون ، ولا يقنطهم غضبه عليهم فييأسون ، وإنما هم سائرون على الطريق ، مجتهدون ليصلوا إلى الغاية ، متيقظون لحلم الله على المسئ ، ورحمته بالمخطئ ، وفرحته بالتائب ومع ذلك فإنهم لا يأمنون مكر الله لأنه ﴿ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ ^(٣) .

^(١) رواه الطبري عن جابر .

^(٢) النجم : ٣١ .

^(٣) الأعراف : ٩٩ .

ولقد روى عن ابى بكر انه كان يقول : لو كانت احدى قدمى فى الجنة والاخرى خارجها ما أمنت مكر الله . وهذا لون من استشعار الرقابة الالهية ، ومعرفة بطبيعة العدالة الربانية ، فإن الله قد يعفو وقد يغفر ، ولكنه لا يضل ولا ينسى .

فإذا زل العبد للضعف البشرى المركب فيه ، فإن الله يفتح له باب التوبة ويمد له حبال الأمل ، ويقول للمذنبين مثل قوله عز وجل ﴿ قل يا عبادى الذين اسرئوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾^(١)

ولكنه إذا استمر فى المعصية واغتر بالغفران ، فإنه حينئذ لم يقدر عفو الله حق قدره ، ولم يؤمن حق الإيمان بأن ، القادر على العفو قادر على البطش ، وبأن (الغفور الرحيم) هو شديد العقاب ، وهذه الآيات التى تزرع الأمل فى نفوس المذنبين .. تمتد لتبعث النذر فى نفوس المتهاونين . ﴿ وأنبيوا إلى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتىكم العذاب ثم لا تنصرون ، وابتعوا احسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتىكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون ﴾ .

وإن غضب الله على المنغمسين فى الخطايا ليعد غيرة على حدوده التى يجب ان تحفظ ، وعلى محارمه التى يجب ان تصان ، لقد جاء فى الحديث النبوى الشريف (إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار . وغيره الله أن يأتى المرء ما حرم الله)^(٢) . واقتراف المحرم لجرائمه ، وانسياقه وراء شهواته ، إنما يعد استهانة بحدود الله ، مخاصمة للملك شديد العقاب ، وتمردا على رب ﴿ تسبح له ما فى السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا ﴾^(٣) .

ولولا أن رحمة الله تسبق غضبه ، وأنه يمهل الظالمين ليفسح لهم مجال التوبة فيهدتوا بعد ضلال ويرشدوا بعد غي .. لولا هذا لأخذهم بذنوبهم ، ولأناهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) الإسراء : ٤٤ .

(٣) رواه البخارى .

يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً^(١) .

مع ذلك الأمهال الذى يستوجب العرفان ، وهذا الغفران الذى يقتضى الإقلاع عن الذنوب ، فإن الإنسان ما يزال يقارف المعصية ، ويرتكس إلى الرذيلة ، فإذا أسرع الله بعقابه فقد حكم فعدل وقدر فانتقم ، وعاقب فأصلح الأرض وطهر العباد ، وإذا أجل عقابه فليحذر وينذر ، وليوقظ المشاعر الحية بالعفو ، وبينه النفوس الناسية بالحلم لعلها تفتى إلى أمر الله ، وتعود إلى طريق الرشاد ، وأن الذى يدعو إلى الدهشة فى طباع البشر ، ان يد الله تعمل من حولهم ، وان قدرته تحيط بهم ، وانهم يجدونه فى كل لحظة من لحظات حياتهم فى اليقظة والنام ، وإذا غفل احدهم عن الله حين تكلؤه النعمة ، فإنه يتذكره ويتجه اليه حين ترزؤه النعمة ، ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل ، وجعل الله اندادا ليضل عن سبيله .. قل تمتع بكفرك قليلا إنك من اصحاب النار ﴾^(٢) .

ومع ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون فلا يعود مكرهم إلا عليهم لأنه ﴿ لا يحيق المكر إلا بأهله ﴾ . ويظل الذين أفلتوا من عقاب اله العاجل آمنين سادرين ، وكأنهم ليسوا فى قبضة الله الذى يمهلهم ان شاء ويأخذهم بذنوبهم ان شاء ، بل ليسوا هم وحدهم فى قبضته ﴿ فالأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾^(٣) .

وهؤلاء الغافلون لا يخشون ان تمتد اليهم يد الله فى صحوهم أو منامهم ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى البلاد للتجارة أو السياحة أو غير ذلك ، أو يحل بهم العذاب وهم يتوقعونه متيقظين لوقوعه ، فلا ترد يقظتهم شيئا من أمر الله ، ولا يحول توقعهم شيئا من قدر الله .

(١) فاطر : ٤٥ .

(٢) الزمر : ٦٧ .

(٣) الزمر : ٦٧ .

لأنهم لما وقعت منهم المعصية لأول مرة ، وقعت في الخفاء وعلى استحياء ، ثم زاولوها وقد تبلدت مشاعرهم وتجمدت ضمائرهم ، ثم صاروا على كثرتهم مجتمعاً يتعارف أهلهم على الخطيئة ، يلتقى أفرادهم على الآثام .

فإذا انحط المجتمع إلى هذا الدرك فهو مجتمع الخطيئة وقد جاهروا الله بالحرب فانتقم منهم بالعدل ، والعدل هنا أن يحمي حدوده من العدوان ، وأن يدافع عن محارمه من التبذل ، وهو حين ينتقم فإنما ينتقم عادلاً ، وإذا عفا فإنما يعفو قادراً .
﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون ﴾ ^(١) .

ومن هنا نتبين أن الإسلام يفرق بين نوعين من المعاصي :

النوع الأول : ذلك الذي يأتيه صاحبه دون قصد ، أو في لحظة من لحظات الضعف البشري الذي يلم بالناس جميعاً ، فإذا استيقظت نفسه ، وتنبه ضميره ندم على ما فعل ، وأحس بالذنب فأصلح العمل ، واستشعر المعصية فجدد التوبة ، ولا يخلو بشر من خطأ ، كما لا يخلو مجتمع نظيف من نكتة سوداء .

ومثل هذا العبد يفسح الله له طريق الإصلاح ، ويفتح له باب التوبة ، ويدعووه إلى أن ينهض من كبوته ، وأن يستأنف السير في الطريق الواصل إلى الله .
أما النوع الثاني : فهو الذي يأتيه صاحبه عن وعى كامل وعمد قديم ، وقد قطع فيه شوطاً طويلاً فاستمرأه وأصر عليه وواجه المجتمع به .

وهذا النوع من العصيان لأوامر الله ، والتحدى لتعاليمه يعد حرباً سافرة يعلنها العصاة على الله ، والله سبحانه وتعالى لا يقهر ولا يغلب ، فكان من رحمته أن يعفو عن الذين وضعوا أقدامهم على أول الطرق المعصية ليرجعوا عنه ، وكان من عدله ، أن ييطش بالغارقين في الآثام ليكونوا عبرة لمن عداهم ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله حلماً حكيماً ﴾ .
وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال :

^(١) العنكبوت : ٤ .

﴿ انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا اليما ﴾ ^(١) .
والتعارف على الخطأ والصواب يتم فى (وسط اجتماعى) والخير كما عبر
الرسول ﷺ يتطلب الأعوان عليه ليصير علامة واضحة فى طريق الحياة ، وليصبح سمة مميزة
فى سلوك الناس .

ومن ثم كانت تربية النشء رسالة يجب ان يتنبه لها المصلحون الغيـورون ، وأن
يغرسوا الفضائل فى النفوس حتى تصير ملكة هادية .

ودستورا رشيدا ولا يتم ذلك الا على أساس من العقيدة الصالحة ، فالشباب
الذى لا عقيدة له ، أو الذى تنفصل عقيدته عن مشاعره ، يعيش حياته قلق النفس موزع
الخواطر ، لأن العقيدة هى مصدر الإيمان ، والإيمان هو الذى يخلق وسائل النجاح بين
طيات العدم واليأس ، فإذا فقدت الأمة عقيدتها فقدت إيمانها بكل شئ وكانت هدفا
لنقمة الله و غضبه ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من
بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها
رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كان مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون ﴾ ^(٢) .

^(١) النساء : ١٧ - ١٨ .

^(٢) القصص : ٥٨ - ٦٠ .

الإسلام دين الإنسانية الشامل

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

لقد جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعاضدون في الأنساب والألوان والأوطان ، فيرى شعب انه فوق الشعوب ويرى جنس انه سيد الأجناس ، ويفتخر قوم على قوم آخرين بلون أو قومية أو أرض .. ثم صاح الإسلام في الناس صيحة واحدة ، ودعاهم إلى الوحدة الانسانية الجامعة ، هذه الوحدة التي لا تنتمي إلى جنس ، ولا تتعصب لمذهب ، ولا تنحصر في حدود وطن الإسلام ، والإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده ، ووطن هذا الدين الأرض كلها ، لأن رسول الله ﷺ قد بعث إلى الناس كافة ، الأبيض منهم والأسود على السواء ، ولا فضل لعربي على أعجني الا بالتقوى .

والقاعدة الأصلية لهذه الوحدة الجامعة في الإسلام هي وحدة الأمة ، مصداقاً لقوله عز وجل مخاطباً أمة الإسلام ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) ولقد بين الله سبحانه وتعالى انه خاطب الانبياء جميعاً بهذه الوحدة حيث قال ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٣) .

وإذا كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، فإن أمة محمد ﷺ هي الناس جميعاً ، وان وطن هذه الأمة هو الأرض كلها ، وقد فرض الله تعالى على هذه الأمة الإيمان بجميع رسله وعدم التفريق بينهم ، لتتم في التقاء الأديان وحدة الدين وتتم في التقاء الأمم وحدة الإنسانية ﴿ آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٤)

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) الأنبياء : ٩٢ .

(٣) المؤمنون : ٥١ - ٥٢ .

(٤) البقرة : ٢٨٥ .

وبذلك كانت وحدة الإسلام وحدة في الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم ، ووحدة في الدين بإتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر حيث سوى بينهم في أحكامه وفي آخرته الروحية وعبادته ، فالصلاة مثلا تجمع بين الأغنياء والفقراء والملوك والسوقة ، والحج مؤتمر عالمي يجمع الشعوب المتباعدة على صعيد واحد ، وإذا الفروق في اللون والجنس والأرض قد ذابت في بوتقة واحدة هي بوتقة الإيمان ، وقد بلغ النبى ﷺ ذلك للأمة يوم العيد الأكبر بمعنى في حجة الوداع هذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف وإلى ترك التعادى بالتحالف ﴿ يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير ﴾ (١) .

ومن ثم فإن الناس في شريعة الله سواء ، لا يفضل بعضهم بعضا الا وفق مقاييس عادلة وضعها أحكم الحاكمين ، ووحدة التشريع بالمساواة تجمع الخاضعين لأحكام الإسلام في الحقوق بالعدل المطلق الذى لا ينحرف ولا يجوز ، فكل البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية في الحقوق العامة ، وحكم الإسلام في معابد الملل كلها انما خاصة بأهلها ولها حرمتها ، ولا يجوز لغير أهلها دخولها بغير اذن منهم ، المسلمون منهم وغيرهم في هذا سواء .

ولقد كان من ملامح الوحدة الإنسانية في هذا الدين ، ان كتابه المنزل قد نزل بلغة عربية مبينة جمعت الناس عليه بالتلاوة والتدبر ، وكان المؤمنون مسوقين بإعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله ، حيث كانت هذه المعرفة في حد ذاتها لونا من ألوان العبادة ، يتقرب بها المسلم إلى الله كما يتقرب اليه بالصوم والصلاة .

وكان حرص الرسول ﷺ على وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها وإن تباعدت اطرافها وتعددت ، انه ان كان ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق والعصية ، ويشبه وحدتهم الجامعة بالجسد الواحد ، حيث يقول : (مثل المؤمنين في توادهم

(١) الحجرات : ١٣ .

وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (١) .

وكانت تلك الدعوة إلى الجنس النسي الذي يعرفه سائر الجنس البشرى ، ثم يرجع إلى هذه الدعوة دعوة أخرى تقوم على وحدة اللسان ، فعن أبي سلمه بن عبد الرحمن قال : (جاء رجل إلى حلقة سلمان الفارسي وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ، فما بال هذا ؟ فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فأخذ بتلييه ، ثم أتى النبي ﷺ بمقالته ، فجاء النبي ﷺ مغضباً بجر رداءه حتى أتى المسجد فخطب في الناس : (يأيها الناس ان الرب واحد ، والأب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية فيكم بأب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي) (٢) .

والرسول ﷺ - هنا - لا يدعو إلى التمسك باللسان العربي بقدر ما يدعو إلى نبذ العصبية بالجنس العربي ، فالإسلام ذوب الجنسيات ، وجعل الفارسي والرومي والحبشي أبناء أمة واحدة ، فسلمان من أهل البيت ، وصهيب سابق الروم وبلال مؤذن الرسول ، فالكل يتجهون إلى قبلة واحدة هي أساس الوحدة في الصلاة وهي رمز الوحدة في الحياة .

ولو ظل المسلمون على هذه التربية الرشيدة ، يحفظونها تعاليم دين ، ويسلكونها منهج حياة ، ويلتزمون بها قانون أمة ... لو فعلوا ما دب الخلاف بينهم ، وما حكم الشقاق أحوالهم ، وما كان لهذه الفواصل من الجنس أو اللون أو اللغة حياة في صفوفهم ، فلقد كانوا باسم الإسلام قائمين على رياسة روحية يدين لها المشرق والمغرب ، ولو أوتوا من العلم والحكمة ما يحسنون به القيام ، ومن الحزم والعزم ما يعززون به القيادة ، ومن النظام ما يحكمون به السياسة ... لأمكنهم ان يسوسوا ويمثلوا العالم عدلابعد ان ملأه

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم .

(٢) رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري .

حكامه جوراً... ولكن لأن حضارة الإسلام مرتبطة دائماً بمبادئه ، فإن المسلمين يتخلفون عن الحضارة لأنهم يتخلون عن المبادئ ، وبقدر التزامهم بهذه المبادئ يحكمون بها أنفسهم قبل ان يحكموا غيرهم تهدى القلوب إلى دينهم إيماناً به ، كما تسارع الشعوب إلى امتهم تمسكاً به .

وإيمان المسلمين بوحدهم يجب ان يكون نابعاً من إيمانهم بأن دينهم هو الدين . وبأن عقيدتهم هي العقيدة ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ^(١) . ﴿ ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ^(٢) .

فليست الدعوة إلى الوحدة - حينئذ - دعوة إلى العصبية ، وليس الانتماء إليها لوناً من الانتماء الجاهلي الممقوت ، وإنما هي الوحدة الشاملة التي تظلها العقيدة ، والعقيدة هي الملة التي أختارها الله لعباده ليصحح بها اتجاه البشرية فيما يتعاملون وفيما يدينون .

وحين جعل الله أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس ، لم يكن ذلك لأنهم يتنسبون إلى اشرف جنس ، أو لأنهم يمثلون أقدم قومية ، ولكن لأنهم يرتبطون بدعوة هي الدعوة التامة ، ويكونون أمة هي الأمة الواحدة ، ويحملون كتاباً هو الكتاب الجامع ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾ ^(٣) .

وحين نزل القرآن بمبادئه يلزم بها اتباعه الذين آمنوا به ، ويدعو إليها اعداءه الذين خالفوه كان يدعو الانسان بالمعنى الشامل للإنسانية ، الانسان الذي كرمه الله فخاطبه ، وشرفه فكلفه وقدره فجعل نسبته اليه ، فهو الإنسان الرباني الذي يسمع بسمع الله ويرى ببصره ويهتدى بنوره .

^(١) آل عمران : ١٩ .

^(٢) آل عمران : ٨٥ .

^(٣) آل عمران : ١١٠ .

فليس الإسلام - اذن - هو الدعوة الإقليمية التي تلصق أهلها بقطعة من الأرض وتدعوهم إلى حماية مساحة من التراب ، وليس صيحة قومية تشيد بأهلها فترفعهم - بالحق وبالباطل - على سائر القوميات ، وليست فكرة ذهنية تلتف حولها مجموعة من الدارسين لها إهتمام بالنظريات والفلسفات .

ولكنه دعوة شاملة للإنسان في كل بقاع الأرض دين ودنيا عقيدة وحياة ، مبدأ وسلوك .

به يصير العبد إنساناً بعد أن لم يكن ﴿ شيئاً مذكوراً ﴾ وبه يحيا حياة الإنسان بعد ان كان ميتاً ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ ^(١) .

^(١) الأنعام : ١٢٢ .

من القيم الخلقية القرآنية

- ﴿وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرُ مَمْنُونٍ . وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾
(سورة القلم / ٤، ٣)
- ﴿.. وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾
(سورة آل عمران / ١٥٩)
- ﴿خَيْرٌ مَا أُعْطِيَ النَّاسُ خُلُقٌ حَسَنٌ﴾
(مسند احمد ابن حنبل حـ ٤ / ٢٧٨)
- ﴿إِنْ مِنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا مَوْطُونًا أَكْنَفًا.. الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُولِفُونَ﴾
(البخارى: فضائل الصحابة / ٢٧ - الترمذى البر / ٧١، ابن حنبل حـ ٤ / ١٩٢)

التربية بالأخلاق الطيبة

حملة القرآن على النفاق والمنافقين

﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾^(١).

لا تُفسد النفوس صفة كما تفسدها صفة النفاق، والنفاق إذا عَشَّشَ فى النفوس وانطوت على الخداع، والتوت فيها الحقائق، وانحطت الإنسانية إلى درك لم تخلق لأجله، فلقد خلق الله الإنسان ليعمر الأرض بالخير، ويظهر القلوب بالإخلاص، ويزكى النفوس بالعبادة، وهو فى هذه الصورة المشرقة قد جعله الله فى الأرض خليفة، ثم هو فى الجزء المقابل لهذه الصورة مخلوق نسى الله فنسيه الله، أو نسى الله فأنساه نفسه، وإذا نسى الإنسان نفسه لم يكن شيئا مذكورا، وهو - حينئذ - ينحط إلى درك الحيوانية بل أضل من ذلك، لأن الحيوان هكذا خلق، وهكذا كان.. لم يتغير، ولم يغير نفسه، أما الإنسان الضال فهو الذى أوْتَمَنَ على أمانة فضيعها، ووكل إليه أمر شريف فخانه وأسند إليه رسالة فنكص عن أدائها، ولقد صور القرآن الكريم هذا الصنف من الخلق بقوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.. أولئك كالأنعام بل هم أضل.. أولئك هم الغافلون﴾^(٢)، والذين يتصفون بصفة النفاق لا يرون وسيلتهم إلى مطامعهم فى المال ومطامعهم إلى الجاه إلا الكذب والرياء، وهم يلقون الناس بوجوه متعددة الألوان، ويخاطبونهم بالسنة ناعمة الأقوال، ويخفون عنهم صدورا رديئة الخصال كما قال تعالى فيهم: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾^(٣).

(١) النساء/١٤٢-١٤٣.

(٢) الأعراف/١٢٩.

(٣) المنافقون/٤.

والمنافق يحاول أن يرضى كل أحد بما يرضيه ويحببه إليه، ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الانتفاع منهم أو يخشى ضررهم، فهو يلبس للصالحين مسوح الرهبان، ويخلع أمام الفساق ثوب الحياء، ويضفى على المغرورين عبارات الإطراء، ولا تظهر هذه الصفة الذميمة إلا فى نفوس ضعيفة بين قوم أقوياء، فهى تخشى سطوتهم فتماثلهم، وتتقى بأسهم فتتافقهم، وتحاول أن تجد لهم مكانا بينهم فتعيش على الدس والخديعة، وتجعل الطرق المتلوية سبيلها إلى الوصول .

ومن هنا نتبين السبب فى ظهور المنافقين فى المدينة لافى مكة، فقد كان مجتمع المسلمين فى مكة مجتمعا مستضعفاً، يستخفون بدينهم من عدوان الكافرين، ويستخفون بأنفسهم من إيذاء المشركين، ولكن فى المدينة صار للإسلام قوة ودولة، إذ أسلم أكثر الأنصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم، ولكن هذا النور لم يظهر لكل فرد منهم على سواء فاضطر بعضهم إلى الدخول فيما دخل فيه قومهم، وإلى الظهور بما ظهر به سائر الناس، فهم فى الحقيقة لم يؤمنوا بل مالوا بتظاهرهم، ولم يقتنعوا بل داهنوا بألفاظهم . وسبيل الإسلام أن من أعلن إيمانه عومل بمقتضى هذا الإعلان كما يعامل سائر المسلمين، لأن قاعدة الإسلام هى الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ومحاسب على النيات .

وإذا كان الله ﷻ قد كره هذه الصفة الذميمة، وذم المتصفين بها، وتوعدهم بأسفل دركات النار يوم القيامة حيث قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾، واستثنى منهم الذين تابوا عن النفاق، وأصلحوا أعمالهم، وأخلصوا نياتهم لله حيث قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١)، فإن هذه الصفة نفسها تتشكل فى نفوس أصحابها وتتلون كما تتلون الحرباء، فهم يرونها أحيانا فطنة وذكاء، ويسمونهم أحيانا مرونة اجتماعية، وتدخل هذه الصفات على مجتمعاتنا الحديثة فتغير العلاقات وتلون أساليب المعاملات، وتجعل الرياء والمداينة محل الصدق والإخلاص، ويكون ذلك أحيانا

(١) النساء/ ١٤٥ - ١٤٦ .

باسم "الدبلوماسية" التي تلون بعض العلاقات على مستوى الدول والشعوب. ولقد قص الله علينا في إحدى سور القرآن ما كان من علاقة بين اليهود والمنافقين في المدينة، حيث كان أساس هذه العلاقة الغش والخداع، فلم تنفعهم معاهداتهم، ولم يصدقوا في عهودهم فلا خير لأحد الفريقين في الفريق الآخر: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معهم، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾^(١).

وهكذا دائما تكون العلاقة التي يحكمها النفاق، هي علاقة لا أساس لها كالبناء على الرمال قد يرتفع، ولكن مصيره الأنهار.

ولقد كان من حكمة الإسلام في معاملة المنافقين بظاهر إسلامهم مع ترك سرائرهم إلى الله المطلع على ما في القلوب، أن من يلتزم شعائر الإسلام وأحكامه ولو بغير إيمان يقيني قد يرجي له الخير فيذعن قلبه لما أذعنت له جوارحه، ويطمئن فؤاده لما أعلن بلسانه، والإسلام يحث أتباعه دائما على أن يعاملوا الناس على أساس من الجانب الخير المتوقع منهم والمفروض فيهم.

ولكنه مع ذلك أيضاً لا يجب لهم أن ينخدعوا بالمظاهر البراقة تخفى وراءها حقائق كاذبة، ولا أن يميلوا مع ألفاظ معسولة في طياتها حقد دفين، ولكنهم أن عاملوا الناس بما ظهر منهم، فانهم يجب أن يكونوا على حذر حتى لا يقعوا في شرك نسجها لهم حسن نياتهم، ولقد كان عمر رضى الله عنه يقول: "لست بالخب، ولا الخب يخدعني" ذلك لان المؤمن - كما قال نبي الإسلام ﷺ - "كيس فطن" والمنافق إن دارى حقيقته وراء مظهره، وإن أخفى حقه وراء ابتسامته فانه مفضوح تنم عليه حركاته، وتعلن عنه رنة كلماته. يقول الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿ألم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو

نشأ لأرينا كهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفتهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم^(١).
فلقد وصفتهم الآية بأن فى قلوبهم مرضاً، وأى مرض اشد على القلب من التواءه
وقد خلقه الله مستقيم الفطرة خالص الإتجاه ؟

كما أنهم مخدوعون، يظنون أن حقيقتهم خافية وسرهم مكنون، ولكن الله قادر
على "أن يخرج أضغانهم" وكلمة "يخرج" هنا أبلغ فى فضحهم، وأبعد فى كشفهم فالله
يخرج أضغانهم ليطلع عليها كل ذى حس، ويرأها كل ذى بصر.

فإذا لم يكشفها الله لعباده كشفاً، ولم يخرجها أمامهم إخراجاً، فإن ملاحظهم
الحائلة ونظراتهم الزائغة لتدل عليهم، وإنهم ليلوون ألسنتهم بالحديث كما التوت قلوبهم
على حقيقة الايمان، فإذا بدت بغضاء من أفواههم، فإن ما تخفى صدورهم اكبر، ومن هنا
فان المنافق يخدع نفسه قبل أن يخدع الناس، ويخفى الحقيقة عليها قبل أن يخفيها على
غيره ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين
آمَنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً، ولهم
عذاب أليم بما كانوا يكذبون^(٢).

فالمنافق يرى نفسه ضعيفاً ويرى غيره قوياً فيرائيه وينافقه، وهو بذلك يكبت معالم
الإنسانية فى نفسه، ومن أبرز ملامح الإنسانية إن الله خلقه حراً فصنع القيد لنفسه،
وخلقه عزيزاً فاختر لها الذلة والخنوع .

ولو سأل أصحاب النفوس الضعيفة أنفسهم: علام يحرصون وهم ينافقون الناس ؟ وما
الذى ييغونه وهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم لوجدوا أنهم يتاجرون فى الجبن
فلا يربحون إلا الندم، ويزرعون الشك فلا يحصدون إلا الشوك، ويحرصون على حياة هى
أشبه بالموت .

وإذا كان القرآن قد عرض صوراً من النفاق فى الدين والتظاهر فى العقيدة، فلقد

(١) محمد / ٢٩ - ٣٠ .

(٢) البقرة / ٨ - ١٠ .

امتد هذا النفاق حتى شمل كثيراً من جوانب الحياة، وحتى صار سلعة يتبادلها الناس فيما بينهم على كل المستويات.

ولكن كما اتسعت المعارف وتطورت المخترعات، فقد تبارى الناس فى إيجاد المعاذير لحجب الحقائق، وفى كشف المبرر للظهور فى كل وسط بلون، والتحدث فى كل مجتمع بلسان .

وإذا شاعت هذه الصفة فى المجتمع كانت كلمة الحق مرة على النفوس، ثقيلة على الآذان، وكان أصحابها وهم يحملونها كأنهم يجاهدون الناس بالسيف والسنان، ولكنهم رغم صعوبة موقفهم، ورغم ضخامة رسالتهم فانهم كبار فى عيون الناس، وأمثلة طيبة فى قلوبهم، وسيرة عطرة على ألسنتهم.

فلقد كان المشركون يحاربون الرسول ولكنهم يُكبرونه، ويعترضون طريقه ولكنهم يهابونه، لأنه جهر بكلمه الحق من أول يوم، ودعاهم إلى الحق فكان ذلك مفترق الطريقين ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوؤا رءوسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون. سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين﴾^(١).

الكبر والمتكبرون فى تصوير القرآن

﴿ولا تصغر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك واخفض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾^(٢)، يحب الله المتواضعين من العباد ولا يحب المتكبرين، لأن التواضع يبرز الجانب اللين من الإنسان، فينجذب الناس إليه، ويحبهم فيه، وأما التكبر فهو التعالى عليهم، وهو الغرور الذي يعمى صاحبه من معرفة نفسه فلم يقدرها ولم يضعها فى مكانها الصحيح، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

(١) المنافقون / ٥-٦ .

(٢) لقمان / ١٨-١٩ .

ويكفى في تبغيض الكبر في النفوس أن أول من مثله هو إبليس، فجعله هذا الكبر يفضل نفسه على غيره، ودفعه كذلك إلى أن يتمرد على إرادة الله، فكان جزاؤه الطرد من الجنة، وكان مصيره الابتعاد عن رحمة الله، فهو يؤمر - كما تؤمر الملائكة - بالسجود لآدم، فتسجد الملائكة ويمتنع هو عن السجود، فيقول الله له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرجك منك من الصاغرين^(١)، فهو قد امتنع عن السجود متكبراً، فأخرجه الله من الجنة صاغراً.

والتكبر تكلف الكبر، أي أن الإنسان يرى نفسه أكبر مما هو عليه في الواقع، ولقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر^(٢) فقال رجل: أن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً.. وفعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس. ويبين من هذا الحديث أن الكبر صفة تخالف رغبة الإنسان في الظهور بمظهر حسن، فإن الله لم ينهنا عن التزين والتمتع بالزينة، بل أباحها وحث عليها فقال: "يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد"، وقال: "قل من حرم زينه الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق"، ولكن الكبر هو عدم الانقياد إلى الحق، وحرمان الناس من حقوقهم، وإنكار ما لهم من فضل.

وهذا تفسير للكبر بمظهره العلمي الذي يترتب عليه جزاء، وهو أن المتكبر لا يذعن للحق إذا ظهر له، بل يدفعه أو ينكره تحميراً وترفعاً، أو يحتقر غيره بقول أو عمل يدل على عدم الاعتراف له بمزيته أو فضله، أو بتنقيص تلك المزية بادعاء أن ما دونها هو فوقها سواء ادعى ذلك لنفسه فرفعها على غيرها بالباطل، أو ادعاه لغيره بأن يفضل بعض الناس على بعض بقصد احتقار المفضل عليه وتنقيص قدره.

ومن ثم فإن الكبر - بناء على هذا التصوير - مزيج من الرذائل النفسية التقت في نفس المتكبر فكانت صفة واحدة، ففيها الظلم الذي يدعو إلى إنكار حقوق الناس، وفيها الغرور

(١) الأعراف / ١٢-١٣.

الذى يضل صاحبه، وفيها احتقار الإنسان لأخيه الإنسان وهو من أسوأ الصفات البشرية التى يحاربها الإسلام .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال " بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم " (١) .

وإذا كان إبليس - كما ذكرنا - هو الذى رفع راية الكبر وانقاد لنفخة الغرور، فإن هذا الكبر سيظل سمة شيطانية فى ظل كل متكبر، وكما امتنع إبليس من السجود لآدم حيث أمره الله، فقد منع كثيرا من المتكبرين الانقياد للحق الذى حمله أنبياء الله . منع فرعون عن الإستجابة للحق الذى جاء به موسى، ودعاه إلى اللجاجة والانقياد للهوى حتى رأى نفسه إلها فقال لقومه: ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ (٢)، والكبر أيضاً هو الذى منع قوم نوح من الإستجابة له، وركبهم غرورهم فقالوا له: ﴿ ما نراك إلا بشرا مث لنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأى، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ (٣)، فلقد تكبروا على نوح لأنه بشر، وتكبروا على المؤمنين به فأروهم اقل منهم، وتكبروا على الحقيقة نفسها حين جحدوا الفضل الذى يميز المؤمنين على الكافرين . والكبر كذلك هو الذى حوّل وجوه قريش عن دعوة الحق التى جاء بها رسول الله ﷺ، وأبى عليهم غرورهم أن يضمهم والمستضعفين منهم مجلس واحد وان كان مجلس إيمان، وكان القرآن مع المستضعفين والمؤمنين على المتكبرين الكافرين ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ (٤) .

(١) رواه مسلم .

(٢) القصص / ٣٨-٣٩ .

(٣) هود / ٢٧ .

(٤) الكهف / ٢٨ .

وليس للإنسان -إذا وعى- أن يتكبر وهو مخلوق، ناصيته بيد خالق مقتدر إن شاء حفظه وإن شاء ضيعه، إن شاء أرسله وإن شاء قبضه، وإذا تبادر إلى وهم المخلوق أنه كبير فليعلم إن الخالق أكبر، وأن الكبرياء -كما جاء في الحديث القدسي- رداء الله لا ينازعه فيه أحد .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " قال الله ﷻ: العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني في واحد منها فقد عذبتة"^(١). على أن هذا المخلوق الصغير وهو إنسان يصير كبيراً إذا انتسب إلى خالقه، ويصبح عزيزاً حين يستمد عزته من ربه، فله العزة ولرسوله وللمؤمنين.. ولكن المنافقين لا يفقهون .
والإسلام يزكي هذا الإنسان الرباني، ويدعوه إلى الاستمسك بهذه العزة التي هي من عزة الله، وليست من باب "العزة بالإثم" .

ولكن حين تتضخم شخصية الإنسان فينسى خالقه، ويستبد به هواه فينقاد لغروره ويرى نفسه كبيراً، وماعداه صغيراً حين ذلك يوقظه القرآن من أوهامه، فيذكره بأنه شيء صغير في ملك الله الكبير، وهذا الإنسان أن كان كبيراً فإن الله أكبر ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقة فقدره ثم السيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾^(٢)، وحتى يطامن من غروره ولا يتمادى في كبرائه فإنه يلفته إلى أصل خلقه، وإلى أنه من ماء مهين ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب ﴾^(٣) .

وكأن الذي يتكبر على غيره إنما يكذب على نفسه، لأنه يتجاهل أصله، ويتناسى الطينه التي خلق منها، ويدعى أنه من معدن غير معادن الناس، وهو في الحقيقة يصنع لنفسه عالماً من الوهم يقصيه عن الواقع ويبعده عن قلوب الناس في الدنيا وعن رحمة الله

(١) رواه مسلم .

(٢) عبس / ١٧-٢٢ .

(٣) الطارق ٥-٧ .

فى الآخرة، ولو علم انه بهذا الكبر إنه إنما يزيد النار وقوداً يوم القيامة ربما أشفق على نفسه ليدفع عنها العذاب .

عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: "احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فى الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فى ضعفاء الناس ومساكنهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتى أرحم بها من أشاء، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء، ولكليكما على ملؤها ^(١)، ولقد صنع هذا الكبر سوراً عالياً بين الأمم فافتخرت كل أمة بنفسها وتاهت على غيرها، وظهرت تيارات عرفت فى عصر من العصور بالشعوبية، وهى افتخار جنس على جنس أو عصبية شعب على شعب، فرفعت ألمانيا يوماً شعاراً هو "ألمانيا فوق الجميع"، وسمت إنجلترا نفسها "بريطانيا العظمى"، أو "الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس"، ورأى اليهود أنهم "شعب الله المختار" وكان القرآن شمساً ساطعة يبدد هذه السحب المتكاثفة ﴿يأيتها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابؤوا بالألقاب بئس الإثم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ ^(٢).

كما دعا هذا الكبر الأمم إلى الافتخار فقد منعها من اللقاء وباعد بينها وبين السلام .

وكما صنع بالأمم فقد صنع بالأفراد، فالرجل يعلن رأياً ثم يكشف الحق فى غيره، فيمنعه الكبر أن يرجع إلى الحق فيتمادى فى الباطل، ويختلف الرجال على شئ، وتتسع بينهما شقة الخلاف حتى يظهر وجه الحق فلا ينزل أحدهما عليه، ولا يتنازل أحدهما لأخيه، فيضيع بينهما الحق ولقد لعن الله قوما ضاع الحق بينهم، ولقد حث رسول ﷺ على لين الجانب وعلى التواضع بقوله: "أن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا

(١) رواه مسلم .

(٢) الحجرات ١١/ .

يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد" (١).

ولقد هدد الله المستكبرين بصرف قلوبهم عن هداة، وإغفال أفئدتهم عن ذكره، لأنهم تهادوا في طريق الباطل بغير حق فقال: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل ألغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ (٢).

الإحسان إلى المسيئين من أخلاق المسلمين

﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا، وقال إننى من المسلمين، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (٣).

يقولون إن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ومعنى ذلك أن الإنسان لم يخلق لنفسه، وإنما خلق للناس جميعا، فهو ينفعهم وهم ينفعونه، ويحرص عليهم فيحرصون عليه، ويميل إليهم فيميلون إليه .

وهذه طبيعة الإنسان، وقال عنه علماء الاجتماع: الإنسان مدنى بطبعه، أى انه بطبيعته مشدود إلى الناس، ميال إلى التعارف عليهم والحياة معهم، ولا يميل إلى الانطواء إلا فى ظروف نفسية قلقة، أو كان مزاجه غير طبيعى فهو لا يألف ولا يؤلف .
والرسول ﷺ يقول: "إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم لقيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنفا، الذين يألفون ويؤلفون".

وهى صورة مثالية لما يجب أن يكون عليه المسلم مع الناس: فهو حسن الخلق معهم، لين الجانب فى معاملتهم، وتلك من الصفات الطبيعية التى تجلب المودة وتحافظ على الأصدقاء، وُصف بها رسول الله ﷺ فقال: له ربه ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (٤)، وبين

(١) رواه مسلم .

(٢) الأعراف / ١٤٦ .

(٣) فصلت / ٣٣-٣٥ .

(٤) القلم / ٤ .

له إنها من عوامل استبقاء الناس حوله والتفاقم به^(١) ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك^(٢)، وجعل الرسول ﷺ حسن الخلق من أعلى الصفات التي تدخل صاحبها الجنة، فعن أبي إمامة الباهلي رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه"^(٣).

"والموطنون أكتافا" هؤلاء الذين تلتقى بهم فتلتقى فيهم بنفسك، وتحس في مخالطتهم بالأمان، وتجد في مودتهم الإخلاص، فهم على سجيتهم النقية وعلى فطرتهم الخالصة لا يتكلفون ولا يتصنعون، ولا يجيدون من القول بقدر ما يجيدون من الصدق في المودة، لا لأنهم تعلموا الصدق درسا فاستوعبوه، بل لأنهم فطروا عليه طبيعة فأحبوه والتعارف والتآلف من صفات المسلمين، فإذا التقى أحدهم بأخيه عرفه وعرفه بنفسه، وإن من السنة التي علمنا رسول الله ﷺ إياها أنه إذا أحب أحدنا أخاه فليخبره بذلك رجاء استبقاء المودة في الدنيا وابتغاء الأجر عند الله، وذلك هو الحب في الله، ولقد قال أبو إدريس لمعاذ: إني أحبك في الله عز وجل. فقال له: أبشر ثم أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش. يفرع الناس وهم لا يفرعون، ويخاف الناس وهم لا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قيل فمن هؤلاء يا رسول الله؟ قال: هم المتحابون في الله.

ولقد أوجد الإسلام للمسلمين مجالات كثيرة للقاء، يتعرف فيها القريب على البعيد، ويصافح فيها الأبيض الأسود، وتذوب فيها كل القوميات والجنسيات إلا الأخوة في الله، ومن هنا نستشعر الحكمة في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٣)، فالحج والصلوات الجامعة والمؤتمرات من مجالات التعارف بين المسلمين.

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(٣) الحجرات / ١٣ .

والتعارف أول مراحل المودة والإخلاص، فليس كل من تعرفه تألفه، وليس كل من تلتقى به تميل إليه، فكم من حالات يتم فيها التعارف ويتبعها التنافر، لأن الأرواح - كما قال رسول الله ﷺ - "جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وكم من علاقة تسمى فى عرف المجتمع الحديث "صداقات"، ولكنها محكومة بالمنفعة وقائمه على الأهواء .

ولكن الصداقة فى عرف الإسلام هى "الحب فى الله"، أى الحب الذى لا تحدده غاية إلا رضا الله، ففيه الصدق وفيه الشفافية، وهو أقرب ما يكون إلى العبادة . ومن أبرز ملامح هذا الحب التسامح والتغاضى عن العيوب، فإن من عداد المتقين الذين وعدهم الله بجنة عرضها السماوات والأرض .. الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس " . لأن هذه الصفة إذا توفرت فى نفس الإنسان، فإنها تدل على حرصه على مودة أخيه والإبقاء على صداقته، فليس يخلو إنسان من عيب، ولا تخلو علاقة من شائبة، ومادام هذا العيب سيئة بجانب حسنات كثيرة، فان "الحسنات يذهبن السيئات"، ومادامت تلك الشائبة لا تطغى على العلاقة فتكدرها، فإنها كقشة صغيرة فى بحر كبير، وأى الناس تصفو مشاربه ؟ وكظم الغيظ درجة خلقية من درجات التقوى، لأن الغيظ يؤلم النفس ويستثيرها إلى التشفى والانتقام، فإذا كظم الإنسان هذا الغيظ فقد أمسك على ما فى نفسه من الألم وتذرع بالصبر، ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن خادما لها غاظها، فقالت: "لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء " .

ثم يأتى العفو عن الناس درجة أرقى فى التقوى من كبت الغيظ، إذ هو التغاضى عن ذنب المسيئ، والتحكم فى سورة الغضب، ثم هو محو الأثر النفسى السيئ الذى يشعر به المعتدى عليه تجاه المعتدى، وتلك مرتبة فى ضبط النفس والحكم عليها قل من يتبوأها، لأنها سيطرة على اندفاع النفس فى الغضب، ثم غفران وصفح عن المسيئ .

فإذا أضيف إلى هذين المنزلتين - وهما عظيمتان - منزلة الثالثة هى الإحسان، كان الإنسان قد وصل إلى درجة عالية من الأدب النفسى، لأن الله يصف من كظم غيظه وعفا

عن المسيء إليه بقوله: "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور" ^(١)، فكيف به إذا كظم الغيظ وعفا عن المسيء ثم أضاف إلى هاتين الفضيلتين فضيلة الثالثة هي الإحسان إلى من أساء إليه .

ولقد روى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظا شديدا، فهمم بالانتقام منه، فقال الغلام "والكاظمين الغيظ"، فقال: كظمت غيظي، قال الغلام: "والعافين عن الناس"، قال عفوت عنك، قال "والله يحب المحسنين" قال: أذهب فأنت حر لوجه الله .

فهذه الواقعة تبين الدرجات النفسية الثلاث لمقابلة الإساءة: كظم الغيظ أولاً، والعفو ثانياً، والإحسان ثالثاً ولا يطالب بهذه المراتب إلا ذوو النفوس القوية والقلوب النقية، لأن الإنسان الطبيعي يمارك فيه من بشرية يغضب للإساءة، ويشور للعدوان، ويرغب في رد السيئة بسيئة مثلها، وهو في ذلك ليس معتدياً ولا جائراً، إنما هو بشر يعبر عن طبيعته البشرية، وقد أعطاه القرآن هذا الحق فقال له: "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، ثم دعاه إلى المنزلتين الساميتين-العفو والإحسان- فقال له: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ فواقعية الإنسان-كما أثبتها القرآن- أن يغضب وإن يثور، وسموه في الإنسانية أن يعفو ويحسن، ولقد قابل النبي ﷺ أشواك الطريق إلى الله بالصبر، وأحجار الأذى في سبيل الله بالغفران، ولما عرض الله عليه أن ينتقم من الذين آذوه قال: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً" ^(٢)، وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى الرسول ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" ^(٣). ولنا في رسول الله أسوة حسنة، نهتدي بها في حياتنا، ونستضيء بها في تعاملنا، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يتعلمون منه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله. إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ،

(١) الشورى ٤٣ .

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وأحلم عنهم ويجهلون على. فقال: "لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل - أى الرماد الحار - ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم ما دمت على ذلك" (١)، والحسنة والسيئة لا تستويان في نظر الإسلام، فالحسنة عنوان على اعتدال النفس وسلامة الطبع، والسيئة دليل على اعوجاج الخلق وانحراف الطبع السيئة داء والحسنة دواء، والمحسن بإحسانه يعطف القلوب النافرة، ويلين الطباع الخشنة، ويطامن من غلواء المعتدين، فإذا تحركت قلوبهم بهذا الإحسان أقلعوا عن العدوان، ونسوا موجبات العداوة فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

ولأنها درجه عالية من درجات الإنسانية، ومرتبة سامية من مراتب الغفران، فلا يتهياً لها إلا ذوو النفوس الكبيرة التى اطمأنت فلا تغضب، وإلا ذوو الحظ العظيم الذى أعد للمتقين، هكذا دعا الله وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وهكذا دعا الله نبيه ودعا المؤمنين به خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٢).

(١) رواه مسلم .

(٢) الأعراف / ١٩٩-٢٠١ .

ملاحح الأخلاق فى النفوس

الاقتصاد فى اليمين والوفاء به

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم، واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾^(١).

ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم" فى القوم الذين كانوا قد حرموا على أنفسهم بعض الطيبات التى أحلها لهم، قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا خلقنا عليها فأنزل الله تعالى "لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم" واللغو كما فسرته السيدة عائشة رضى الله عنها هو فى قول الرجل: "لا والله"، "بلى والله"، "وكلا والله". وما إلى ذلك، وهذا اللغو فى القول كالعيب فى الأفعال، فهو مالا يكون بقصد من القائل أو الفاعل، فلا يعتد به.

والإنسان فى الواقع لا يلجأ إلى اليمين إلا إذا أراد أن يؤكد به كلامه، وهو لا يلجأ إلى تأكيد كلامه إلا إذا كان يحس الشك من سامعه، أو كان هو نفسه يعلم ان فى كلامه ما يستوجب التأكيد، ولكن الإسلام يعلم المسلم ألا يكون ثثارا يبعثر كلماته فى كل مناسبة وفى كل مجلس، فلا يعبأ بما قال لأنه لا يدرى ماذا قال، ومن هنا سمى اليمين الذى يصدر فى هذا المجال "لغو"، وعلى الرغم من أن الله لا يؤاخذنا به فإنه يجعله من نافلة القول، ومن الكلام الذى لا يؤبه به وخير للمسلم أن يحاسب نفسه على الأقوال كما يحاسبها على الأفعال ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾^(٢)، ولقد قال أحد الحكماء إن الله قد أعطانا أذنين ولسانا واحدا لنسمع ضعف ما نتكلم، ولقد

(١) المائدة / ٨٩ .

(٢) الأسراء / ٢٦ .

حذر رسول الله ﷺ من جناية اللسان على الإنسان، ومن خطورة الكلام على مصيره فى الدنيا والآخرة، فيقول: "وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم"؟!.

فإذا كان الإسلام بذلك قد دعا المسلمين إلى التحكم فى ألسنتهم فلا يصدر عنها إلا شديد القول، وحذرهم من اللغو ومن العبث بالأقوال والأفعال، فإنه أشد تحذيراً لهم من التواء القلوب التى تشوه الحقيقة، ومن تعقد النفوس التى تتعمد الكذب، وإذا كان لامناص للإنسان من أن يحلف فى بعض الأحوال، فليستحضر نفساً صافية وقلباً نقياً وعزماً صادقاً، وليحلف بالله سبحانه وتعالى فلا يحلف بغيره، فلقد روى أن النبى ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أولي صمت"^(١)، وإن الحلف بالمخلوقات كالكعبة والملائكة والمشايخ والآباء ونحو ذلك ليس من أيمان المسلمين، بل هو منهى عنه باتفاق أهل العلم وحديث الرسول السابق أما أيمان المسلمين فهى الحلف بالله أو ما فيه معنى الحلف بالله، ويقصد بهذا الحلف تعظيم الخالق لا تعظيم المخلوق .

ولقد روى أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال: إنكم تنددون (أى تتخذون لله أنداداً)، وإنكم تشركون وتقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقول أحدهم ما شاء الله ثم شئت^(٢)، وذلك لبيان أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، وكان ذلك من عادة بعض الناس فى الخطاب، وليس المراد أنه كان مشروعاً ثم نهى عنه لقول اليهودى وإذا كان الحلف بالله عقداً بين المسلم وربّه على فعل أو ترك، فمتى عقد المسلم يمينه فقد وثق عقده، وأحكم نيته وعزمه، ولا بد أن يكون لهذا العقد جلاله وهيبته واحترامه، لأنه عقد مع الله، وهذا يشبه البيعة التى بايع فيها المؤمنون رسول الله ﷺ على الصدق فى الجهاد، فإن الله يقول له:

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه أحمد والنسائى وصحيحه ابن ماجه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْهُ جَزَاءٌ عَظِيمًا﴾^(١)، ويحث الله على الوفاء بالعهد، والحفاظة على عقد الأيمان الوثيقة فيقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾^(٢).

وإذا كان الله قد تفضل بالعفو عن أيمان اللغو فلم يجعل لها كفارة لأن عنصر النية مفقود فيها، فانه يكرهها، لأنها تعود الإنسان على التحدث بما لا يقصد، وعلى الله بما لا يحفل به.

والحساب على الأفعال متصل بالنية المصاحبة لها، ومن ثم فإن هذه النية يجب أن تكون ميالة إلى الخير نزاعة عن الشر، ويكره أن تكون معقودة على تحصيل شر أو تقويت خير، وإذا كانت كذلك فيجب أن ينقض الحالف عقده، وأن يتحمل نتيجة هذا النقض، وهو الكفارة، ثم يكره في النهاية أن يعمد المرء إلى نقض عقده مع الله حين لا يكون في معصية، ويوجب الوفاء به، فإذا نقضه كانت الكفارة كذلك جزاء على نقضه.

وهذه الكفارة في ذلك الوقت أشبه برّد لاعتبار العقد الذي نقضه الحالف، وعودة إلى نية الوفاء من جديد، واعتراف من الحالف نفسه بأنه قد أحلّ بعهدته وأن هذا الإخلال غير جائز، ومن ثم فإن الكفارة تحرك ضميره وتوقظ حواسه، فيعيش فترة نفسية يندم فيها على خطئه، ويعزم فيها على الالتزام بالوفاء في عهوده، فلا تكون الكفارة حينئذ مقصودة لذاتها، وإنما لأثرها النفسى والأخلاقي على المطالبين بها.

ولقد تنوعت الكفارة في اليمين، وتعددت أشكالها من إطعام للفقراء، أو كسوة للمساكين، أو تحرير للرقاب، أو صيام لبعض الأيام وذلك ليتحقق الشعور بالخطأ، وتحقق الرغبة في إصلاح هذا الخطأ في أى صورة من صور الإصلاح.

ولقد قدم الله البر بالفقراء والمساكين في كفارة اليمين على الصيام لبيان للناس أن بر بعضهم ببعض يرضيه، وأن رعاية الأغنياء للفقراء سبب في رحمته وعفوه، وأن الصلة

(٢) النحل ٩١/

(١) الفتح ١٠/

الإنسانية الرحيمة تمحو كثيراً من السيئات، فإذا لم يستطع الإنسان لضيق ذات يده أن يكفر عن يمينه بالإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقاب، فليكن التكفير صياماً لأيام متتالية بلحّ فيها الجوع والعطش على مشاعره، ويكون الحرمان فيها عاملاً على إيجاد حالة وجدانية يعرف فيها خطأه ويجدد فيها توبته .

على أن لسان الإنسان قد يسبق نيته فيجرب باليمين ، أو قد يسيطر عليه غضبه فيحلف على فعل شيء كانت المصلحة في تركه ، أو على ترك شيء كانت المصلحة في فعله ، ومن هنا يكون تحقيق المصلحة أرجح من البر باليمين ويكون الخير في الحنث فيه ، ولا بأس حينئذ أن يحنث في هذا اليمين ليحقق المصلحة ، وإن يكفر عن حنثه ليتعود على التروى فيما يقول . وروى أحمد والشيخان أن رسول الله ﷺ قال: " إذا حلفت على يمين ، فرأيت غيرها خيراً منها ، فأتت الذي هو خير ، وكفر عن يمينك " . ولقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على تحريم ما أحل الله له في واقعة معلومة ، وامتن عليه وعلى المؤمنين بأنه فرض لهم تحلة أيمانهم ، وذلك مبين في أول سورة " التحريم " حيث يقول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، تَتَّبِعِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ إِيمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(١) وإذن فإن اليمين قيد يقيد الإنسان نفسه . وعهد يلزمه الوفاء به ولا يسعى الإنسان إلى القيد إلا إذا كان هناك مبرر له ، ولا يربط نفسه بعهد إلا إذا قدم النية على الوفاء به .

وكثيراً ما يعمد بعض الخالفين إلى أسلوب ملتو ليدخلوا على سامعيهم فكرة معينة فهم يحلفون على شيء ويقصدون بنياتهم شيئاً آخر ، أو يحلفون بألفاظ تحتمل تأويلات متعددة ، وهم بذلك يحسبون أنهم لم يحلفوا على شيء ، أو لم يحنثوا في يمين .

ولكن أمر اليمين مبنى على العرف العام بين الناس لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع ، ولقد روى أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ، قال ، قال رسول الله ﷺ " يمينك على ما يصدقك به صاحبك " .

^(١) التحريم ٢-١ .

فليحذر الذين تسرع ألسنتهم إلى الحلف من الكذب ، وليقتصدوا فى أيمانهم حتى لا يوقعوا أنفسهم فى الحرج ، وليعلموا أن الأيمان التى تكون وسيلة إلى هضم حقوق الناس أو إلى الغش والخديعة لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لا بد من التوبة وأداء الحقوق والإستقامه ، فلقد قال النبي ﷺ : " من حلف على يمين وهو فيها فاجر يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان " (١) وقال تعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ۝ ﴾ (٢)

تهذيب الكلام وتهذيب الإستماع

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ۝ ﴾ (٣) يجب الإسلام من المسلمين أن يحرصوا على فضائله ، وأن يتأدبوا بأدابه ، والمؤمن إذا تحرك لسانه كان نطقه ذكرا ، وإذا صمتت جوارحه كان صمته فكرا ، فهو لا يتكلم إلا بخير ، ولا يختار لسمعه إلا ما هو خير ، وإن ربنا عز وجل لينبه مشاعرنا إلى أهمية اختيار ما نسمعه وما نراه وما نفكر فيه فيقول : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ۝ ﴾ .

وإذا كان الكلام شهوة عند كثير من الناس ، فإن من صفات المؤمن أنه يتسامى على شهواته فيهدبها ويرتفع بها ويتحكم فيها ، فهو يتكلم حين يكون الكلام ضرورة لا بد منها ، فيدلى مثلاً بالشهادة ولا يكتمها فإن من يكتمها فهو آثم قلبه ، والصمت حينئذ نكوص من الشهادة وتخلف عن الحق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

(١) رواه الشيخان .

(٣) سورة الأنعام / ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) سورة النحل / ٩٤ .

ولكن حين يكون الكلام ثرثرة لا تؤدي إلى شيء ، أو نحوى تستهدف نهش
الأعراض وإيذاء الناس ، فإن الإمساك عن الكلام حينئذ واجب ، وإن الإمتناع عن سماع
هذا الكلام حينئذ حكمة ، ورحم الله امرءاً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم .

وإن إجتماع الناس فى مكان ما لا يخلو من متكلم وسامعين ، ولا يمكن أن يلتقى
الناس على صمت الا فى مواضع خاصة ، بين بعضها رسول الله ﷺ فى قوله : " إن الله
تعالى يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنائزة " (١)
فالصمت عند تلاوة القرآن لتدبر معانيه وتأمل أحكامه حيث يقول الله تعالى : ﴿ وإذا
قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ وعند التقاء الصفوف فى الجهاد لأن السكوت أهيب
وأرهب ، وعند الجنائزة لتأمل حكمة الحياة والموت ، ومن ثم فقد كان الرسول اذا شهد
جنازة أكثر الصمات وأكثر الحديث إلى نفسه .

ولكن الأحاديث تستهوى الناس ، والمسامرات تجذب النفوس ، وتضيع أوقات
كثيرة بين كلام المتكلمين واستماع المستمعين ، فلا يكون الهدف من قضاء هذه الأوقات
الا التسلية وإزجاء الفراغ الطويل ، والإستمتاع بتعليقات الظرفاء من الناس ودعابات
المازحين والمتفكهين .

وفى مثل هذه الجلسات يطلب من المؤمنين أن يفرزوا الخبيث من الطيب ، وأن
يميزوا بين الغث والسمين ، وأن يتزودوا بملكاتهم الواعية وفطرتهم السليمة ليختاروا
لأنفسهم ما ينفع ، ويختاروا لأسماعهم ما يفيد . فليس كل ما يتكلم به الناس نافعا وإن
كان ممتعا ، وليس كل ما يسمعون طيب الأثر وإن كان خفيف الظل .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله عز وجل : ﴿ لا خير فى كثير من
نحوهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة
الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (٢) .

(١) للطبراني فى الكبير

(٢) النساء : ١١٤ .

فلقد نفت الآية الخير عن كثير مما يجرى بين الناس من نجوى ، واستثنت من ذلك ما يكون من النجوى فى الخير كالأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس ، فتلك من الأبواب الطيبة التى تطرقها الأحاديث فتؤدى إلى الآثار المحمودة بين الناس .

وليس معنى ذلك أن يلتزم المسلمون باتجاه واحد فى أحاديثهم، وأن يتيقّدوا بصرامة الجدل فيما يقولون فلا يعرفون البسمة ولا يطبقون المزاح ، فلقد كان رسول الله ﷺ يمزح ، ولكنه لا يقول إلا صدقا. ولكن المقصود من ذلك أن يكون الكلام فيما يفيد ، فإذا لم يكن فيما يفيد ، فلا يكن فيما يضر ، فإن الكلام فى الشئون الخاصة كالزراعة والتجارة وغيرها من الكلام المباح الذى ينظم أمور المعاملات فى الحياة .

ولقد خاطب الله المؤمنين لتنظيم أمور أحاديثهم ونحوهم بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَتَنَاجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ^(١) . وأبواب البر والتقوى كثيرة لا يحصرها الإسلام فى وجه واحد من الوجوه ، ولكنه يعددها ولا يحددها حتى يقبل الناس عليها كل بحسب استعدادة ، وكل بحسب طاقته .

ولقد بين رسول الله ﷺ كثيراً من أبواب البر أمام المسلمين فى قوله فيما يرويه أبو هريرة عنه : " كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الإثنين صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة - وتميط الأذى عن الطريق صدقة " ^(٢) .

والعبرة المستفادة من آداب الإسلام فى الصمت والكلام أن يختار الإنسان الكلمة التى يتكلم بها ، كما يختار الوقت الذى يتكلم فيه ، وأن ينتقى الكلمة التى يسمعها ، كما يحدد المجلس الذى يجلس فيه ، فقد لا يعاب بكلمة يقولها أو كلمة يسمعها فتجره هذه الكلمة الى عواقب وخيمة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : " إن

^(١) المجادلة ٩/

^(٢) متفق عليه .

العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ، يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب " (١) أو إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي بالا يهوى بها فى جهنم (٢) والمتكلم الذى لا يلقي بالا إلى ما يقول من ألفاظ ، كالطاعم الذى لا يعبأ بما يلقيه فى جوفه من طعام ، فكلاهما يضر نفسه بغفلته ، وكلاهما أخضع نفسه لشهوته ، وكما طلب الإسلام من المسلمين حماية أنفسهم بتنظيم طعامهم فقال رسول الله ﷺ : " ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . فإن كان لا محالة فاعلاً ، ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " ، ولقد طلب منهم أن يحفظوا ألسنتهم وأن ينظموا أحاديثهم لتنظم حياتهم ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : " إذا أصبح ابن آدم ، فإن الأعضاء تكفر اللسان أنها تذلل وتخضع له ليتقى الله فيها وكأنه القائد الذى يقودها ، فإذا أحسن القيادة فقد أدى بها إلى نتيجة حسنة ، وإذا أساء القيادة فقد عرضها لعاقبة وخيمة .

ولقد قال المثل العربى : (المرء مخبوء تحت طى لسانه) ، لأنه يظل مجهول الشخصية غير واضح النفسية ، فإذا تكلم أفصح لسانه عنه ، وشهد كلامه له أو عليه . فقد يدعو مظهر الإنسان إلى احترامه ، وقد تدعو هيئته إلى مهابته ، ولكنه إذا تكلم لم يتطابق قوله مع مظهره ، ولم تتفق كلمته مع هيئته ، وحينئذ يضيع احترامه وتسقط مهابته حيث كشفه كلامه ونم عنه لسانه . وقد يهزل الإنسان فينال بهزله من الناس دون أن يقصد الإيذاء ، وهزله حينئذ عبث يترفع الإسلام بالمسلمين عنه ويحذرهم منه ولو كان لغواً لأنه يريد أن يعودهم على الجذ من جهة ، وعلى إدارة الكلمات فى نفوسهم قبل أن تدور على ألسنتهم من جهة أخرى ، فإن كان مزاحاً فليكن حميداً لا يؤذى ولا يضر . ولقد حكى عائشة رضى الله عنها واقعة حدثت منها أمام رسول الله ﷺ

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخارى .

فقلت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا - تعنى أنها قصيرة - فقال : " لقد قلت كلمه لو مزجت بماء البحر لمزجته " ^(١) أى خالطته مخالطه يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة تأثيرها .

وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن إطلاق اللسان فى عيوب الناس وإن كانت على سبيل الدعابة والمزاح ، ويكفى فى ذلك أن يسأل رسول الله ﷺ : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فيجيب سائله : ثكلتك أمك . وهل يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم " ^(٢) ؟!

وكما يطلب من المسلم أن يحفظ لسانه فلا ينطق الا بالخير ، ولا يتكلم الا فى النافع له وللناس فانه يطلب منه أن ينزه سمعه عن فحش القول وعن بذى الكلام ، يقول الله تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٣) فهم منصرفون عن اللغو من القول : لا يفعلونه لأنهم عودوا أنفسهم على الجحد من القول ، ولا يسمعون لأنهم يؤمنون بمسئوليتهم عن السمع والبصر والفؤاد . فإذا كان الكلام سخرية أو لمزا فهو أولى بالنهى وأجدر بالتحذير عن قوله وسماعه ، بل يكون المسلم إيجابياً إذا سمع هذا الكلام فمنعه ، ورد الأذى عن أخيه ، فعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : " من رد عن عرض أخيه ، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة " ^(٤) ولقد نهانا الله عن السخرية واللمز فقال : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(٥) .

^(١) رواه أبوداود والترمذى

^(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

^(٣) القصص : ٥٥ .

^(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

^(٥) الحجرات : ١١ .

الرضا بالرزق والعفة في الطلب

﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلخافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾^(١) .

في طبيعة الإنسان حب المال والحرص عليه والعمل على استثماره وتنميته ، ولم ينكر عليه الإسلام هذه الرغبة ، ولم يحارب فيه هذه الطبيعة ، بل دعاه إلى السعى والعمل وعن طريق السعى والعمل يجمع المال ، وبالمال يفتح أبواباً للخير ويكون من المنفقين في سبيل الله .

ولكن إذا كان الإسلام يدعو إلى جمع المال لإنفاقه في وجوه البر ، فإنه يدعوهم لأن يجعلوه في أيديهم لا في قلوبهم ، وفي داخل جيوبهم لا في طيات نفوسهم ، أو بمعنى آخر يدعوهم إلى أن يستولوا على المال ، ولا يرضى لهم أن يستولى المال عليهم ، فالمال يخدمهم ولا يخدمونه ، ذلك لأن حب الإنسان للمال غريزة ، والغرائز ظواهر فطرية في الإنسان فلا سبيل إلى إنكارها ولا إلى كبتها ، ولكن هناك سبيل إلى إعلانها كما يقول علماء النفس ، والإنسان ينظم غريزته فتخدمه ، ويضعف أمامها فتلتهمه . ومن هنا يبحث الإسلام أتباعه على أن يطلبوا الأمور بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير ، فطلب المال محمود ، ولكن التكالب عليه مذموم ، ولا تقاس ثروة الإنسان في نظر الإسلام - بكثرة المال ، ولكن بقوة النفس ونقاء الضمير ، و " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس " ^(٢) وغنى النفس معنى شامل لكل المعاني الإنسانية ، لأن المتصف به مطمئن الخاطر مرتاح الضمير ، لا يأخذ بصره بريق الحياة ، ولا تذهب نفسه لما في أيدي الناس ، ولا تلعب به من الأطماع ما يؤرقه وما يرهقه ، فقد استغنى بقناعته عن الغرض ،

^(١) البقرة / ٢٧٢ - ٢٧٣

^(٢) متفق عليه .

واستغنى برضاه عن المتاع . عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فاعطاني ، ثم سأله فاعطاني ، ثم سأله فاعطاني ، ثم قال : يا حكيم . إن هذا المال خضر حلو ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بأشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان الذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى " قال حكيم : " فقلت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ، فكان أبوبكر رضى الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبى ﷺ حتى توفى . (١)

حكيم هذا مثل من الأمثلة البشرية الواقعية ، فهو يسأل المال فيعطاه ، ثم يعرف قيمته فيتعفف عنه ويزهد فيه ، ولا يطلبه الا بعفة نفس ، ولا يأخذه الا عن طيب خاطر . وحسب الإنسان راحه بال أن يأتيه الرزق بعزة نفس ، وأن يحوز المال براحة ضمير ، فإذا أنفقه أنفقه وهو يعلم الغاية من كسب المال والوسيلة إلى إنفاقه ، وإذا ضاع منه المال لم يحزن على شئ عزيز ضاع منه ، فشأن المال أن يأتي ويذهب ، ولا يبقى بعده الا الأحاديث والذكر ، وبهذه المشاعر المطمئنة يعيش حياته فلا يفرح لشئ أصابه حتى يبطره الفرح ، ولا يأسى على شئ فاتته حتى يقتله الأسى ، فمن بات آمناً فى سريره ، معافى فى بدنه ، وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .

ولأن المؤمن يعلم أن المال رزق ، وأن الرزق مكفول ، لأنه ﴿ ما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ (٢) فهو يبيت قرير العين راضى النفس ، مطمئناً إلى قضاء الله ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (٣) وعلى هذا أيضاً تأدب صحابة رسول الله ﷺ ، تعلموا منه دروساً ، وأخذوا منه قدوة ، ووضعوا

(١) متفق عليه .

(٢) هود : ٦ .

(٣) الحديد : ٢٢ - ٢٣ .

المال حيث يجب أن يوضع ، ونظروا اليه النظرة اللائقة به ، فلم يحتقروه حتى يكفوا عن طلبه ، ولم يتشبثوا حتى يؤولوه فلقد روى عن عمر بن تغلب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بمال أو سبي ، فقسمه فأعطى رجلاً وترك رجلاً ، فبلغه أن الذين تركوا عتبوا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ، ثم قال : " أما بعد فوالله إننى لأعطي الرجل وأدع الرجل ، والذي أدع أحب إلي من الذى أعطى ، ولكنى إنما أعطى أقواماً لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلوع ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب " قال عمر بن تغلب : فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم .^(١)

فالرسول ﷺ هنا يعطى فلا يكون الإعطاء دليلاً على الرضا ، ويمنع فلا يكون المنع دليلاً على السخط ، ولكنه لا يريد أن يتعلق أصحابه بغاية قرية أو عرض زائل ، إنما هم يجاهدون فى سبيل الله ، فيجودون بالمال ويجودون بالنفوس التى هى أغلى من المال ، لأنهم يتاجرون مع الله ، والله قد اشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة ، أفيربطون غايتهم بعد ذلك بعرض قريب وأجر عاجل ؟ ! .

وهكذا يجب أن يكون المؤمنون فى كل زمان ومكان : ثروتهم فى القناعة التى تغنيهم عن كل شئ ، وجنتهم فى رضاهم الذى يجعل مشاعرهم برداً وسلاماً ثم هم بعد ذلك يرون الأرض ذلولاً فيمشون فى مناكبها ويطلبون الرزق الحلال من الله فى غير إفراط ولا تفريط .

ولقد كان على بن أبى طالب يقول : الرزق رزقان : فرزق تطلبه ورزق يطلبك . فإن لم تأتته أذاك غير أن الرزق لا يأتى عفواً ، ولا يدق على الناس أبوابهم ، وإنما هو مكفول بشتى نواحي العمل والحركة والنشاط ، ومقيم حتى يأتية طلابه ويسعى إليه خطابه .

والله جل شأنه ييسط الرزق لمن يشاء وينزله بقدر على من يشاء ، فلقد ورد فى

^(١) رواه البخارى .

الحديث القدسي " إن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه الا الغنى ، ولو أفقرته لفسد حاله ، وإن من عبادى المؤمنين ، من لا يصلح إيمانه الا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك " ولقد عرض القرآن لصورة من صور التعفف فى طلب المال مع شدة الحاجة إليه وجعل لها نموذجاً أولئك الذين أحصروا فى سبيل الله ، فعجزوا عن طلب الرزق لسبب خارج عن إرادتهم ، فهم : " لا يستطيعون ضرباً فى الأرض " ، ولا يجدون إلى السعى على الرزق سبيلاً ، ولكن نفوسهم أكبر من أن يتعرضوا لسؤال الناس ، وعزتهم أغلى من المال الذى يعرضهم للهوان ، فيلوذون بالصمت ، وينطوون على الآلام ، حتى ليخيل إلى من لا يعرفهم أنهم أغنياء .

وذلك فى الواقع لون من الغنى النفسى يرفع صاحبه فى عيون الناس ، ويحيطه بمهابة قد يغبطه عليها كثير من ذوى الجاه والسلطان ، وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله : " ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس " (١) وهو من الذين يصفهم القرآن بقوله " لا يسألون الناس إلحافاً " أى لا يسألون الناس شيئاً مما فى أيديهم سؤال إلحاح ، وإذا كان ظاهر الآية نفى الإلحاح فى السؤال لا مطلق السؤال ، فإن ظاهر السياق يفيد نفى السؤال مطلقاً ولقد روى أحمد وأبوداود عن رسول الله ﷺ قوله : " من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جهر جهنم . قالوا : يا رسول الله . وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه أو يعيشه . والأصل فى المؤمن أن يكون عزيز النفس ينزهها عن السؤال ما استطاع ، وينبغى أن يجعل الغنى قدراً معيناً من ماله الذى يعده للصدقات لما يعرض من الحاجات والضرورات حتى لا يلجئ إخوانه إلى السؤال .

أما أولئك الذين احترقوا السؤال وهم قادرون على العمل فلا حق لهم فى العطاء ولقد رأى عمر رضى الله عنه سائلاً يحمل جراباً فأمر أن ينظر ما فيه فإذا هو خبز ، فأمر

(١) رواه الشيخان .

بأن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

ولقد دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى ترك المسألة لأنها لا تحل الا لثلاثة : لذي فقر مدقع ، أو لذي غرم مفطع ، أو لذي دم موجع ، وقال لبعض أصحابه : ألا تبايعون رسول الله ؟ فقالوا : قد بايعناك يا رسول الله . فعلام نبايعك ؟ قال : " أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا الله " وأسّر كلمة خفيفة " ، ولا تسألوا الناس شيئا " ، فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه ^(١) .

غير ان الرسول ﷺ لم يكن يقصد السؤال الذي يدل على تعاون المسلمين بعضهم مع البعض الآخر ، ولكنه كان يقصد السؤال الذي يصدر عن غير حاجة ، وهو الذي يعذب به صاحبه يوم القيامة ، وقد روى أحمد ومسلم وابن ماجه عنه ﷺ : " من سأل الناس أموالهم تكثرا ، فانما يسأل جمرا ، فليستقل منه أو يستكثر " .

وخلاصة القول أن الإسلام يربى المسلمين على عزة النفس ، ويرفع همهم حتى تعلو على المعاني الأرضية التي ارتبطت بها همم الناس ، فإذا احتاجوا أخذوا عن تعفف وغنى نفس ، وإذا أنفقوا أنفقوا عن سماحة وإيمان ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ^(٢) .

^(١) رواه مسلم .

^(٢) الحشر / ٩ .

أداء الأمانة من الدين

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(١)، وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢)،

الأمانة سمه فاصلة من سمات الإنسان، أودعها الله في طبيعة البشر، فهم بها يتعاملون مع الله، وهم بها يتعاملون مع بعضهم البعض، وإذا وصف بعض المخلوقات بالامانة فهذا من باب التجاوز في الوصف، لأن الامانة خلق، ولأن الخلق لا يكون إلا عن وعي بقيمته ومعرفة بمعناه، ومن هذا خوطب الانسان بالامانة وكلّف بها لأنه يعرفها ويعرف مفهومها ويستطيع ان يتصف بها .

والأمانة حق على المكلف يتعلق به حق غيره، فإذا أودع الإنسان ودیعة لدى أخيه، فإنه يضمن الوفاء بها بحق الامانة المفوضة فيه، وسواء أكان المؤمن على هذه الوديعة قد تعاقد مع المودع بعقد قولي ام لم يتعاقد، فان الامانة تقتضى ان يحفظ الانسان الوديعة وان يؤديها إلى اهلهاء، ولقد روى في سبب نزوله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عن ابن عباس انه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعّا عثمان بن طلحة، فلما اتاه قال: أرني مفتاح الكعبة، فلما بسط يده اليه قام العباس فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أجمعه لي مع السقاية، فكفّ عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: هات المفتاح يا عثمان، فقال: هاك أمانة الله، فقام ففتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل يأمره يرد المفتاح فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ حتى فرغ من الآية فالرسول ﷺ يضرب المثل على الأمانة في رد الوديعة، والقرآن قد سمى الودائع "الأمانات"، لأن قبولها أمانة، والمحافظة عليها أمانة، وأدائها عند طلبها امانة فضارت الودائع بالتزام الامانات أمانات كذلك .

(١) النساء / ٥٨ .

(٢) الأحزاب / ٧٢ .

ولقد أئتمن الإنسان على كثير من الأمانات، وهو مطالب برعايتها وحفظها وأدائها إلى أصحابها.

فقد ائتمن على الدين والفرائض، فهو يحافظ على الدين ويدعو إليه الناس، ويحافظ على الفرائض ويؤديها في أوقاتها، ولقد قال ابن عباس: ان الأمانة هي الطاعة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال قبل ان يعرضها على آدم فلم يطقها، فقال لآدم: اني قد عرضت الأمانة على السموات والارض والجبال، فلم يطقها فهل انت آخذ بما فيها قال: يارب وما فيها قال: إن احسنت جزيت وان أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وحملها الإنسان انه كان ظلوما جهولا﴾ .

وإما كان تفسير الأمانة المقصود في الآية، فإن الإنسان قد أئتمن على ودائع، وان أمانته تقتضيه ان يصونها وان يحافظ عليها حتى يحين وقت أدائها .

والعلم أمانة في عنق الإنسان، وقد عهد اليه ان يحفظه وان يعلمه الناس ويرشد به، وقد أخذ الله العهد العام على الناس بأداء أمانة العلم وعدم كتمانها فقال: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾^(١)، ولذلك فقد عُدَّ علماء اهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبي ﷺ ، فيجب على العالم ان يؤدي امانة العلم إلى الناس كما يجب على من اودع مالا ان يرده الى صاحبه .

ولكن كيف يؤدي العلماء أمانة العلم ؟ ان طريق أداء هذه الأمانة يختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف: فنشر العلم بتدريسه لطلابه أداء للأمانة، ونشره بجمعه بين دفتي كتاب متداول بين الناس أداء للأمانة، ومراعاة الصدق والدقة في الأجابة عن السؤال أداء للأمانة .

ولقد ائتمن الرسول ﷺ على أداء الرسالة وتبليغها إلى الناس ، كما ائتمن قبله جبريل في أدائها اليه ، فسمى كل منهما أميناً، وقال الله لرسوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما

(١) آل عمران / ١٨٧ .

أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴿١﴾ . وما كان للوحى أن يكتم شيئاً من هذه " الأمانة " فلا يبلغها الرسول ، وما كان للرسول أن يكتم شيئاً من القرآن أو يحرفه ، وإلا كان حاشاه ، قد خان الأمانة ، والله عز وجل يقول له: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذن لا نخذوك خليلًا﴾ . ثم يقول له: ﴿إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ .^(٢) والسر بين إثنيين أمانة ، فمن أفضى إليك بسرّه فقد أثمنك عليه ، فيجب ألا تفشيّه أو تبوح به ، وقد جاء فى الحديث : ﴿إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فهو أمانة﴾ .^(٣)

وكثير ما يدب الخلاف بين اثنين ، فيعمد كل منهما إلى كشف سر الآخر وإخراج المكنون منه ، فكأن كلا منهما يتخلى عن ودیعة صاحبه عنده ، وكأنه بذلك يتنكر للأمانة المفروضة فيه ، وحين يضيع الإنسان الأمانة التى أثمن عليها ، فقد ضيع صفة من أبرز صفاته الإنسانية وأجلّها .

ولقد حدّث الرسول ﷺ عن رفع الأمانة فقال: ﴿ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة﴾ .^(٤)

والأمانة من الأمن وهى طمأنينة النفس وعدم الخوف ، ومنها قوله تعالى: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾^(٥) .

لأن الانسان إذا آمن أخاه على ودیعة فقد أمن عادينه وأطمأن اليه كما أطمأن على ودیعة عنده ، وإذا سادت الأمانة بين الناس ، ساد الأمان ، وسادت الطمأنينة .

وإن أزمة المجتمع المعاصر فى فقدان الثقة على مستوى الأفراد ، وعلى مستوى الدول: يشك الفرد فى الفرد فيحمل كلامه على محمل سيئ ، ويتوجس منه الشر فى كل

(١) المائدة/ ٦٧ .

(٢) الإسراء/ ٧٣ ، ٧٥ .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذی .

(٤) من حديث طويل متفق عليه .

(٥) يوسف / ٦٤ .

تصرفاته، ويعيش الإنسان مشدود الأعصاب مرتعش المشاعر، يده على قلبه يتلمس فيه الأمن المفقود، ويده الأخرى على حبيبه، لتحسس النقود، ولو حلت الأمانة بين الناس لحل الأمن فى الصدور، ولزال الخوف من النفوس، ولحلّ الحب مكان الكراهية والبغضاء فى القلوب، وهذا يحتاج إلى وازع نفسى أساسه الخوف من الله، يقول الله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضا فأيؤد الذى أثمن أمانته وليتق الله ربه﴾^(١).

وتشك الدولة فى جارتها من الدول الأخرى، فتسابق كل دولة إحراز السلاح، والأسلحة فى العصر الحديث قد تطورت تطورا رهيبا، ولايجنى المريد من السلاح إلا مزيدا من الرعب والتوجس .

والأمانة تغرس الأمن محل الخوف، وتزرع الحب محل البغضاء والكراهية، ولكنها لاتصير واقعا يطمئن اليه المجتمع البشرى بمقال يكتب أو محاضرة تلقى أو قانون يفرض، ولكنها تنبثق من ضمائر الافراد إيمانا واقتناعا بان الحياة امانة الله للإنسان وبأن الله حيث اختار الإنسان خليفته على الأرض، انما أودعه هذه الحياة، واستحفظه على أمنها وعلى كيانه، فمن حفظ هذه الامانة الكبيرة فقد حقق الجانب الإنسانى فيه وحافظ على الرسالة التى خلق من أجلها، ومن ضيعها فقد ضيع نفسه وكيانه وهو من الخائنين .

ومن هنا كان الإنسان مؤتمنا على حياته الخاصة بينه وبين نفسه، وحياته العامة بينه وبين الناس، فصحة الإنسان وديعة اودعه الله أياها، وجعله امينا عليها، فلا يجوز له ان يأتى من الافعال ما يضر بها، ولايجوز له أن يتناول من الطعام والشراب ما يؤذيها، ولقد بين لنا الرسول ﷺ الحكمة فى تنظيم الطعام حيث قال: " ماملاً آدمى وعاء شرا من بئس ما يشرب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فان كان لاحالة فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه "، والإنسان إذا أقبل على طعام أو شراب وهو يعلم انه يؤذيه فقد خان الأمانة فى صحته .

وعقل الانسان امانة وماله أمانة، فهو مكلف بحفظ عقله بالبعد عن كل ما يذهب

(١)البقرة/ ٢٨٣ .

به، ولذلك فإن الخمر "رجس من عمل الشيطان" لأنها تذهب بالعقل الذى هو وديعة الله عند كل إنسان .

وهو مكلف أيضاً بحفظ ماله، فلا ينفقه إلا فى وجوهه المشروعة، ولا يئذر فى هذا الإنفاق، فإن التبذير يحوله من إنفاق مشروع إلى أسراف حرام، ﴿ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾^(١).

أما الأمانة الواجبة بين الإنسان وبين غيره من الناس فإنها تقتضى أن يحرص كل منهم على خير الآخر بوجه عام . وبيان ذلك أن يؤدى الإنسان واجب النصيحة للناس، وهذا الواجب يصدر من رغبة صادقة ونية صافية فى إصلاح أحوالهم فقد قال تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام: "أنصح لكم"، وعن هود عليه السلام "وانا لكم ناصح أمين" وعن جماعة المؤمنين "أما المؤمنون اخوة"، ولقد قال رسول الله ﷺ "الدين النصيحة" قالوا: لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم^(٢). هذه النصيحة أمانة، وهى أحيانا أمانة ثقيلة، لأن أداءها يتطلب نفساً عالية، ولأن قبولها يتطلب قلباً سليماً، وكثيراً ما يقصر الناس فى النصيحة لما يجره عليهم من متاعب، وما تسببه لهم من عداوات وأحقاد. واقرب ما يتبادر إلى الأذهان فى أداء الأمانة هو رد الأمانات العينية التى يودعها الناس عند الآخرين، لأن ردها مقياس لأمانة الإنسان واختبار لأخلاقه، وكثيراً ما تقع الخلافات بين الناس لان أحدهم قد أودع لدى الآخر وديعة ثم راح يطلبها فلم يجدها لأنها بددت أو غيرت أو انكرت، فتتغير العلاقة وتختفى الصداقة وتدب بين الناس العداوة والبغضاء، ومن هنا دعا الإسلام إلى كتابة الديون، فيكتب للدائن والمدين كاتب بالعدل، ويملى الذى عليه الحق حتى يكون اعترافاً بالدين وتوثيقاً له، ولا يمنع ذلك أن يذكره الله بواجب الأمانة وصدق الاقرار حيث يقول: ﴿وليتق الله ربه ولا يئخس منه شيئاً﴾، ثم يؤثق ذلك كله شاهدان، وأمانة الشاهدين تتمثل فى شيئين أن يقبلا الشهادة إذا ما دعيا إليها

(١) الأسراء / ٢٧ .

(٢) رواه مسلم .

"ولا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا"، وإن يكونا عادلين في أداء الشهادة ودقيقين في تحديد الدين ﴿ذلكم اقسط عند الله، واقوم للشهادة، وادنى الارتابوا﴾^(١). لا ينافي ذلك أن ياتمن كل إنسان أخاه، وأن تكون الأمانة فيصلا عادلا بين المتقاضيين، فانه بالأمانة تزكو النفوس وتتقارب القلوب ويسود الوفاق بين الناس ﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أئتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾^(٢).

شكر المنعم على نعمه بالأنفاق في سبيله

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم. يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الأبواب. وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار. إن تبدوا الصدقات فنعمنا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾^(٣).

إن الله يعطى الدين لمن يحب ولمن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، ونحسب أن من معال إعطاء الدين للمؤمنين الذين يحبهم الله، أنه أعطاهم القدرة على تصريف أمور الدنيا في ظل الدين، وعلى صبغ الحياة التي يحيونها بالدين الذي آمنوا به. ولقد أعطى الله المال لكثير من عباده، منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، فيهم الحكام وفيهم السفهاء.

ولم يجعل الإسلام للمال قدرة فاعلة إلا بالعقل الذي يدبر هذا المال، والغاية من تديره هي التي تحدد نصيبه من الخير أو الشر، فكم من ملايين تنفق فلا يزيد بها منفقها إلا قربا من النار، وكم من قروش قليلة تخرج من جيب صاحبها فتكون له ذخرا يوم القيامة ولقد حذر الله من الشح ونسبه إلى النفس فقال ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(٤) لأن النفس إذا أصيبت بالشح فقد إنعدمت فيها معاني الخير بوجه عام

(١) البقرة / ٢٨٢.

(٢) البقرة / ٢٨٣.

(٣) البقرة / ٢٦٨-٢٧١.

(٤) الحشر / ٦.

ومنها البذل والسخاء ، فمن أنفق بيده وآذى بلسانه فإنه لم يوق شح نفسه ولم يكن من المفلحين ، ولقد رسم الله صورة المن الذى ييطل الصدقة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَ صُلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) .

وجعل الرسول ﷺ هذا الشح غير مقصور على قبض المال ومنعه عن مستحقه ، ولكنه كذلك مصدر لكثير من الرذائل والكبائر . فقال فيما يرويه جابر رضى الله عنه : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم . حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم " ^(٢) .

وهذه الآيات التى تصدرت هذا الحديث تبين أن الشيطان يوسوس للإنسان ويخوفه من الإنفاق الذى يذهب بالمال ويقضى إلى سوء الحال ، ومن ثم فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يأتى به الزمن من أحداث .

ولذا فقد كان هذا التخويف من الإنفاق مرادفا للأمر بالفحشاء ، فإن هذا الأمر عبارة عما تولده الوسوسة من الإغراء بالفحشاء ، ومنها البخل ، ولقد كان البخل عند العرب من أفحش الفحش .

ولقد جعل الله الإنفاق كفارة لكثير من الخطايا ، وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم بما يجذب إليه من قلوب الناس ، وهذا الفضل من الجاه بالحق لا بالباطل ، وقد أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الفضل الذى يعد الله به عباده مع المغفرة هو ما يخلفه الله تعالى على المنفق من الرزق ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ^(٣) .

^(١) البقرة / ٢٦٤

^(٢) رواه مسلم .

^(٣) سبأ / ٣٩

وقد ورد فى الصحيحين : " ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان . يقول
أجدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً " ومعنى هذا
الدعاء أن من سنه الله أن يخلف على المنفق بما يسهل له من أسباب الرزق ويرفع من شأنه
فى القلوب ، وأن يحرم البخيل من مثل ذلك .

وإذن فوعده الله للمؤمنين يتمثل فى شيئين : الأول لخير الآخرة وهو مغفرة
الذنوب التى المت بهم فى الدنيا ، والثانى لخير الدنيا وهو الفضل الذى يعطيه إياهم إذ
يخلف عليهم ما ينفقونه بركة ورزقاً ومهابة فى قلوب الناس .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فمن أعطاه الله نعمة طالبه بحسن التصرف فيها
ومن أحسن التصرف فيها فذلك هو الفضل العظيم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : : ذهب أهل
الدثور - أى الأغنياء - بالدرجات العلى والنعيم المقيم : فقال : وما ذاك ؟ فقالوا :
يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ،
فقال رسول الله ﷺ : " أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من
بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ " قالوا : بلى يا رسول
الله . قال : " تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة " فرجع فقراء
المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال
رسول الله ﷺ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ ^(١) .

أى أنه فضل إختص به بعضاً من خلقه ، وما دام قد اختبرهم بالمال والمال فتنة ،
نلم يأخذ بربيتها عيونهم ، ولم تشغل كثرتها قلوبهم ، وانما أدوا حق الله فيها ، وأنفقوها
فى وجوهها المشروعة ، فإن لهم الفضل وفضل الله يؤتيه من يشاء . ولا يجوز لمسلم أن
يحسد غيره على نعمة أنعم الله بها عليه ، وما دامت هذه النعم من فضله فانه لا راد
لفضله : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده

(١) متفق عليه .

وهو العزيز الحكيم^(١) .

ولكن حسد المؤمن لون من الغبطة والتنافس في وجوه الخير ، ولا يكون في ذلك الوقت مذموماً ، لأنه يدل على استعداد النفس للعمل الصالح وتسابقها إلى الخيرات .
عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " لاحسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"^(٢) ، وكلاهما توظيف لنعمة الله فيما خلقت من أجله، فتلاوة القرآن والصلاة به آناء الليل وآناء النهار إحياء للقلوب "ألا يذكر الله تطمئن القلوب"، وإنفاق المال في وجوهه المشروعة إيمان بفضل الله وشكر له على نعمته .

ولقد أحرى الله ﷻ أنه مطلع على نيات عباده في إنفاقهم وصدقاتهم ونذورهم فقال: ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو تذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار ﴾ ، فإن الله يجازي على القليل كما يجازي على الكثير، ولأن علمه محيط بكل عمل وقصد فإنه يعطى على النية التي تدفع إلى العمل إن كانت نية صالحة، ويعاقب عليها إن كانت نية فاسدة، وهي في ذلك الوقت ظلم لصاحبها، إذ الظالمون في مقام الأنفاق هم الذين ظلموا أنفسهم فلم يزكوها من البخل، ولم يطهروها من الرياء والمن والأذى، وظلموا الفقراء كذلك ما أوجب الله لهم، وظلموا أمتهم حيث تركوا الإنفاق في المصالح العامة فكانوا قدوة سيئة لغيرهم .

وفي هذا المجال فإنه يجب تنبيه الأغنياء إلى واجبهم نحو الفقراء، فلقد أتمنهم الله على ثروة وضعها في أيديهم، وأتمنهم على إخوة وضعهم في رعايتهم وجعل لهم حقا معلوما في مال الأغنياء، فإذا تعاون الأغنياء مع الفقراء فقد قدروا مسئوليتهم وعرفوا حق المال الذي في أيديهم، وإذا يخلوا عليهم فقد تربصوا بانفسهم البوار في الدنيا والعذاب في الآخرة .

(١) فاطر ٢/ .

(٢) متفق عليه .

ولم يجعل الإسلام كسب المال غاية في ذاته، وإنما المال وسيلة إلى تحقيق الغاية الشريفة التي خلق الإنسان من أجلها على الأرض، فالإنسان مخلوق في هذه الحياة والله غايته، وهو يفعل الخير يبغي به وجه الله، ويخرج الصدقة يطلب بها رضاه، وينفق المال في سبيله ليشتري بها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ومن إحساس الغنى بواجبه في ماله، ومن إحساس الفقير بحقه في هذا المال، يتولد شعور إنساني بالمودّة والتكافل، فلا يتعالى غنى على فقر لأنه أعطى، ولا يستخذى فقير أمام غنى لأنه أخذ، فالمال مال الله، والأغنياء وكلاؤه عليه، والفقراء عياله، وكما جاء في الحديث القدسي "إذا بخل وكلائي على عيالي أذقتهم وبالي ولا أبالي" .

ولقد جاءت الآيات أيضاً تحت على الصدقة سرا وجهرا، فقد يجهر الإنسان بصدقاته ولكنه لا يبغي من وراء ذلك رياء ولا يطلب ثناء، وإنما يفعل ذلك ليقضى غيره به، ولتذكر الناس صدقاتهم فيخرجوها، وحين ذلك فإذا أبدت الصدقات تحيط بها هذه النية الصالحة "فنعماً هي"، ولكنها إذا اختفت عن عيون الناس، وكان سرا بين الغنى والفقير أمام الله فهي خير، فليس كل مظهر لعمله مرئيا، ولكن كل مخف لهذا العمل فهو بعيد عن الرياء .

ولقد خص بعض المفسرين الصدقات التي يجب إخفاؤها بصدقات التطوع، لأن الفرائض كالزكاة لارياء فيها إذ أنك تخرج قدرا مفروضا وحقا معلوما ان تاخرت عن أدائه فقد قصرت، وقد يكون إبداء الفريضة إشهارا لشعيرة من شعائر الإسلام، ولو أخفيت لتبادر إلى الأوهام أنها منعت فيمنع المتوهمون كما منع الآخرون، وفي ذلك تعصّل لفريضة من فرائض الله .

ولأن من شأن الفرائض ان تكون عامة فلا محل للرياء فيها، لان المرأى حينئذ لا يكون مؤمنا بفرضيتها .

ولأن ظهور الإسلام وقوته بإظهار شعائره وفرائضه، بل ان بعض العلماء قالوا: "إن الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداء الناس به وان كان تطوعا" .

وإما كان الأمر فإن الإسلام يحث على الإنفاق، ويحرر المسلم من عبادة المال، ويجعل البدل والإعطاء وسيلة إلى رضا الله عز وجل ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى. وما يغنى عنه ماله إذا تردى. إن علينا للهدى. وإن لنا للآخرة والأولى﴾ .

نعمة الصبر على البلاء

يقول الله عز وجل ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾^(١) .

إن الصبر فضيلة من أسمى الفضائل الإنسانية، وهى مقياس صادق لحسن إيمان العبد وقوة صلته بالله عز وجل، ومن أجل علو منزلتها ورفعة شأنها، فقد ذكرت فى القرآن سبعين مرة، ولم تذكر فضيلة أخرى فيه بهذا المقدار .

ولقد قرن الصبر بالصلاة فى قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾^(٢) ، وفى قوله: ﴿وأمر أهلك بالصبر وأصطبر عليها﴾^(٣) ، لأن الصلاة والصبر معا ذريعة الاستعانة على ما يلاقى المؤمنون فى طريق الحق من الشدائد، كما قرن الصبر بالحق فى قوله: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾^(٤) ، لأن الداعين إلى الحق لابد لهم من التذرع بالصبر الذى يمنحهم القدرة على مواصلة السير فى طريق الدعوة، وطريق الدعاة إلى الحق غالبا مفروش بالأشواك .

والصبر ملكة الثبات والاحتمال: تهون على صاحبها كل ما يلاقيه، وتربى فى نفسه ملكات الخير، فما من فضيلة إلا وهى محتاجة إلى الصبر، ومتى رسخت ملكة الصبر فى نفس الإنسان سمي صاحبها "صبورا" أو "صابارا" ولا تتحقق هذه الملكة إلا بعد رياضة

(١) البقرة/ ١٥٥-١٥٧ .

(٢) البقرة/ ٤٥ .

(٣) طه/ ١٣٢ .

(٤) العصر/ ٣ .

روحية، وتعود نفسى، ولذلك فقد أمر الله تعالى به، وإنما يكون الأمثال لأمر الله بتعويد النفس على تحمل المكاره ومواجهه الشدائد .

وعلى ذلك جرى النبى ﷺ ، وأصحابه عليهم الرضوان، فقد كان الصحابة كلما أشد عليهم الأذى، وضائق بهم السبل، لجثوا إلى الرسول ﷺ فمسح على قلوبهم الوجلة بأدمن، وأسكن فى ننوسهم الضجرة الصبر، فعن خباب بن الأرت قال: "شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصرلنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، ويمشط بأمشاط من حديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"^(١) وهذا لون رائع من الصبر وهو الصبر على الأذى فى سبيل العقيدة، وهو يحتاج إلى قوة من الإيمان عالية، ودرجة من الإرادة صلبة، ويتطلب فهما عميقا لمنزلة الصبر عن الإيمان، ولعاقبة الصبر عند الله، والذين يصبرون على الأذى فى سبيل الله إنما يتاجرون مع الله ﴿ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة﴾.

والله دائما مع الصابرين، يمدهم بعونه إذا صار الصبر وصفا لازماً لهم، ويعدهم بالنصر والظفر إذا كان الصبر من أسلحتهم، ومن كان الله معينه وناصره فلا يغلبه شيء . وإن من سنة الله عزوجل أن الأعمال العظيمة لاتتم إلا بالثبات لها والاستمرار عليها وهذا لا يكون إلا بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله، والله معه يؤيده ويرعاه .

ولقد رُسنت الآيات الصابرين المستحقين لبشارة الله بقوله ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، وليس المراد بهذا القول أن يتلفظوا بها كلمات على اللسان دون أن تختلط معانيها بالقلب بل المراد بهذا القول أن يعبر عن حالهم، وعن إيمانهم العميق بأنهم من الله وإلى الله، نواصيهم بيده، ومصيرهم إليه، فهو الذى بيده

(١) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى .

ملكوت كل شيء، ولا يفعل إلا ما سبقت به الحكمة وارتضاء النظام الإلهي.

وحين ذلك ينطلق اللسان بالكلمة يحركه إيمان بمعناها وتسليم بمغزاها، واصحاب هذا الاعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر إيماناً وتسليماً، بحيث لا يسيطر الجزع على نفوسهم، ولا تثبط الأحزان همهم، بل تزيدهم ثباتاً ومثابرة وقوة يقين، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾^(١)

ولا ينافي الصبر والثبوت ما يكون من حزن الإنسان عند نزول البلاء . فالحزن غير الجزع : الحزن من الرحمة التي أودعها الله في نفوس عبادة ، ترقق مشاعرهم ، وتهذب نفوسهم ، وتعطف بعضهم على البعض ، والجزع ضعف يهز المشاعر ، ويحطم النفوس ويذهب بصلابتها أمام النوازل ، وهو الذي يحمل صاحبه على ترك الأعمال المشروعة لأجل المصيبة ، والأخذ بعادات وأعمال مذمومة ضارة ينهى عنها الشرع ويستقبحها العقل . ولقد ورد في الصحيحين أن النبي - ﷺ - بكى عندما حضر ولده ابراهيم الموت ، فقيل له أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟ فأخبر أنها الرحمة ، وقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وانا بفراقك يا إبراهيم لحزون " ^(٢) .

ولقد ذكر الله البلاء ، وبشر الصابرين عليه ، وذكر الوصف الذي يستحقون به البشارة ، وختم القول ببيان الجزاء المبشر به فقال : " أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون " .

فأما الصلوات فهي حسن رعايه الله لهم في الدنيا بالتخفيف عن مشاعرهم وتسكين نفوسهم ، وهي إعلاء منزلتهم في الآخرة بغفران ذنوبهم والتكفير عن سيئاتهم ،

(١) آل عمران / ١٧٣-١٧٤ .

(٢) رواه الشيخان من حديث أنس .

فلقد قال الرسول - ﷺ - مرة لأبي بكر : يا أبا بكر أأنت تصاب ؟ أأنت تحزن ؟ أليس تصيبك اللأواء ؟ - أى الشدة - قال : بلى . قال : فهذا بهذا " .. أى أن المصيبة التى تلم بك ، والحزن الذى يسكن قلبك ، والشدائد التى تواجهك .. كلها من موجبات رحمة الله إذا قابلها الإنسان بالصبر والرضا بقضاء الله .

وأما رحمه فهى ما يكون لهم فى المصيبة من حسن العزاء ، وبرد الرضا والتسليم بالقضاء ، وهى رحمه يشعر بها المؤمن الصابر حين ينزل الله عليه سكينته وأمنه فيرى أن قدر الله غالب ، وأن كلمه الله نافذة ، وأن نعم الله منح ، إن شاء وهبها وأن شاء سلبها والذين يعقلون ذلك " هم المهتدون " إلى ما ينبغى عمله فى أوقات المصائب والشدائد ، إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم ويذهب البلاء بالأمل فى قلوبهم ، ولا يحل الحزن محل الإيمان فى صدورهم ، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها ، المستعدين للسعادة الآخرة بعلو النفس وتزكيتها بمكارم الأخلاق وصالح الأعمال . والمؤمن مأجور على الصبر فى الضراء كما هو مأجور على الشكر فى السراء ، لأن الصبر والشكر كليهما تعبير عن إيمان الإنسان بارادة الله وتسليم لمشيئته ، فهو يصبر عند البلاء لأن الله يريد أن يبتليه ، وهو يشكر عند النعمة لأن الله يريد أن ينعم عليه .. وهو فى كلتا الحالتين مأجور . عن أبى يحيى مهيّب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " (١) .

على أن من أجل مراتب الصبر وأعلاها منزله عند الله الصبر عند الموت ، وفراق الأحباب ، لأن الموت حق يمتحن الله به إيمان المؤمنين ، وهو سبحانه تعالى " خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وإذا كان فى الموت مرارة الفراق ، ولوعه الوداع ، فإن فى الصبر عليه برد الراحة وأنس اليقين . وسيظل الموت كلمه الله القائمة على رعوس الأحياء ، لا يستطيعون له دفعاً ،

(١) رواه مسلم .

ولا يجدون عنه محيصا ، وهو انتقال من دار فناء إلى دار خلود وبقاء ، فإذا لم يكن من نزوله بد ، فليكن عند نزوله قلب مؤمن بالقضاء ونفس خاشعة تسكن عند البلاء ، وتسليم كامل لله الذى له ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل . وهذا التسليم يتحول إلى سخط فى نفوس الجازعين ، ويتحول إلى رضا فى نفوس المؤمنين ، ولكن كلمه الله نافذة لا يردّها سخط ولا ينفعها رضا ، وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

والمؤمن كغيره من الناس يدركه الضعف البشرى فيبكى ويحزن عند مواجهه الأولى لألم الفراق ، ولكنه يعود بعد ذلك إلى إيمانه ، فيستظل بقدر الله ، ويسلم بقضائه ويفر من لهيب الجزع إلى جنه الرضا ، حيث هى السلوى عند المصيبة ، والمفرج عند وقوع البلاء ، فإذا جهل الإنسان عند وقوع الصدمة فليرشده أخوه ، وإذا نسى فليذكّره ، فخير الأصحاب - كما يقول نبينا عليه السلام - " من اذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيته ذكرك " . ولقد روى عن أنس - رضى الله عنه - أنه قال : لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمه - رضى الله عنها - : واكرب ابتاه . فقال : " ليس على أهلك كرب بعد اليوم " فلما مات قالت : " ياأبتاه .. أجاب ربا دعاه ، ياأبتاه .. جنه الفردوس مأواه .. بأبتاه إلى جبريل نعا .. " (١) .

وما دام الصبر عند الفراق تسليما بقضاء الله وتعبيراً عن الرضا بمشيئته ، فإن الله يعوض صاحبه راحه فى الدنيا لا يحس بردها المتبرمون ، وأجرا فى الآخرة لا يناله الا المتقون ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : ما لعبدى عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتبسته الا الجنة" (٢) وإن القرآن ليرسم صورة مشرقة لجزاء المؤمنين الصابرين : الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم " فيقرنهم بالأوفياء والمتقين والمقيمي الصلاة ، والمنفقين فى سبيل الله وهؤلاء لهم درجات العلا يوم

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى

القيامة ، لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، واستضاءوا بإيمانهم فأُنازلهم حياتهم ، وحين يتحدث القرآن عن جزاء هؤلاء جميعا ، يجعل الملائكة يستقبلونهم بقولهم : سلام عليكم بما صبرتم " وكأن الصبر رأس الأعمال الصالحة وملاكها يوم القيامة ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ أولئك لهم عقبى الدار .. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (١)

(١) الرعد / ٢٢ - ٢٤

من الأخلاق الإجتماعية

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن إكرامكم عند الله أتقاكم ﴾

(سورة الحجرات/١٣)

﴿ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ﴾

(البخارى-٤-باب) المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

* سئل رسول الله ﷺ - ﴿ أى الإسلام خير؟! ﴾ قال: تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"

(البخارى . كتاب الإيمان . باب إفشاء السلام من الإسلام.)

من قيم البناء الأسرى

الترابط

إن بناء الأسرة البشرية هو أجمل تعبير عن رقى الإنسان وصلاحيته للإضطلاع برسائله التي هيأها لها بما بث في طبعه من عاطفة مشرقة ومشاعر دقيقة .

وإذا كان في عاطفة الإنسان جانب عام يشمل الإنسانية كلها، ويربط البشرية برابط واحد، فإن فيها جانبا خاصا ينزع بالإنسان إلى تحديد نطاق الأسرة البشرية ، وتخصيص بعض المشاعر والعواطف بعدد محدود من الأفراد، هذا العدد هو الأسرة ، وهذه الأسرة هي الترجمة لفطرة مركبة في نفس كل إنسان ، وهي الصورة الشريفة النقية التي ينبثق منها الأفراد، وتتكون في ظلها الروابط.

والجانب الأول هو الجانب العام يثبته القرآن الكريم في مثل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾^(١)، فالنداء هنا نداء للناس جميعا وقد تفرعوا من ذكر واحد وأنثى واحدة ، وفي هذا إشارة إلى وحدة الأسرة الإنسانية ، وشمول الرباط البشري الذي يوحد بين أفرادها على اختلاف جنسياتهم ومشاعرهم.

بل أن القرآن ليعدّ إنشاق الناس من أب واحد وأم واحدة آية من الآيات الدالة على قدرة الله ، الداعية إلى طاعته وتقواه فيقول:- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، ﴾^(٢) ولقد جاء في تفسير هذه الآية أن الله تعالى قد ذكر أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ، وليرحم ضعفاءهم أقوياءهم .

وأما الجانب الثاني وهو الجانب الخاص بتحديد نطاق الأسرة البشرية ، فقد تكفل الإسلام برعايته ممثلا ذلك في البناء الأسرى: فبدأ بالحث على الزواج الذي هو من آيات

(١) الحجرات / ١٢ .

(٢) النساء / ١ .

قدرة الله عز وجل ، وبين الحكمة من ذلك فجعلها فى الأنس الروحى الذى يؤلف الله تعالى به بين الزوجين. يقول الله تعالى:- ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ^(١) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: "ان الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة" ^(٢)، فإذا جمع الله بين إثنين فى ظل حياة زوجية صالحة، أوجب على كل منهما واجبات قبل الآخر حتى تدوم هذه الحياة وتظل سعيدة مشرقة، فجعل المرأة راعية فى بيت زوجها، وأوجب عليها طاعته فعن أم سلمة - رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "أما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة" ^(٣) وألقى على الزوج عبء الإنفاق والرعاية والحماية ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال:- قال رسول الله ﷺ: "دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك.. أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك" ^(٤) فإذا نمت الأسرة بوجود الأولاد فيها ، كثرت الواجبات وتعددت الروابط ، وكان على هؤلاء الأولاد واجب البر الذى يتمثل فى صلة الرحم للجانب الرقيق الضعيف، ورسول الله ﷺ يقول: "الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان: صدقة وصله" ^(٥) وكان عليهم أيضا واجب الطاعة للوالد قادرا والبر به عاجزا ، والوالد كما يقول الرسول ﷺ:- أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع ذلك الباب أو أحفظه" ^(٦) .

وإذا نحن إستعرضنا صور الترابط الأسرى فى الإسلام، فإننا يمكن أن نستنتج أن بناء الأسرة الإسلامية يعتمد على دعامتين رئيسيتين:

(٢) الروم / ٢١.

(١) أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٦) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

*الدعامة الأولى: دعامة نفسية تشمل السكن النفسى والمودة والرحمة المنصوص عليها فى قوله تعالى: "﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾".

*والدعامة الثانية: دعامة مادية تتمثل فى إستيفاء شروط العقد، وفى إلزام كل من الزوجين بواجباته من نفقة ورعاية وقيام على أمور البيت وصحة الأطفال. وإذا تأكدت الروابط النفسية بين الزوجين ، كان من الطبيعى أن تنتقل إلى الأبناء فيتعلق كل منهم بأبويه ، ويتعلق كل منهم بأخوته الذين تفرعوا جميعا من أصل واحد ، وتحقق النعمة التى لا تخفى على المتأمل فى قوله تعالى: "﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾".^(١)

الذرية الطيبة

سيظل الإسلام عنوانا على رسم الصورة المشرفة للإنسان، وستظل تشريعاته مثالا خالدا على الحرص على سمو هذا الإنسان الذى جعله الله فى الأرض خليفة يقيم الميزان ويرتفع بقيم الإيمان.

وإذا كانت الطفولة هى المظهر الأول للإنسانية وجاءت شريعة الإسلام فعنيت بها عناية لم نجد لها فى شريعة ولا حضارة سابقة ، فلقد كانت فى عنايتها هذه إنما تعنى بالصورة الأولى للإنسانية ، فأطفال اليوم هم آباء الغد وأمهاته ، وهم صانعو المستقبل وحراسه . وإننا لنستطيع أن نستشف هذه العناية السامية إبتداء من دعوة الإسلام إلى الزواج ، حيث كان النسل من أهم أهدافه، فقد جعل الإسلام البنين "زينة الحياة الدنيا" ، ولقد روى أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصبت امرأة ذات حسن وجمال وحسب ونسب ومال إلا أنها لا تلد أفأتزوجها فنهاه ، ثم آتاه الثانية فنهاه، ثم آتاه الثالثة فقال: تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثركم"^(٢) لأن الزواج إذا كان وسيلة من الوسائل الشرعية لتهديب مشاعر الإنسان والإرتفاع بها عن المستوى الشهوانى ، وإلى

(١) الفرقان / ٥٤.

(٢) رواه النسائى وأبو داود

تزكية الجانب الإنساني فيه بإيجاد الألفة والمودة بينه وبين زوجته ، فإنه كذلك تعبير عن صورة إجتماعية ناطقة بأن الإنسان ما خلق لنفسه وشهوته ، بل خلق ليعمر الأرض بالذرية التي تعبد الله ، كما يعمرها بالمبادئ التي تثبت جدارته فى خلافة الله على الأرض. ولقد وجه الإسلام عنايته إلى الأطفال وهو يحث الناس على الزواج ، وضرب لهم المثل بأنبياء الله وهم يطلبون الذرية الصالحة لامطلق الذرية، فيطلب زكريا من ربه " ذرية طيبة". هنالك دعا زكريا ربه قال: " رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء" ^(١) وكذلك يطلب إبراهيم عليه السلام ذرية صالحة فيقول لربه: " رب هب لى من الصالحين، ويستجيب الله له بقوله: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ ^(٢) .

ولا تكون الذرية طيبة أو صالحة إلا بعبادتها لربها وخدمتها لمجتمعها، ولا يتم ذلك إلا بحسن إختيار الآباء للأمهات اللاتي يحملن الأطفال ويتكفلن بإرضاعهم وحضانتهم وتربيتهم ، وقد حث الرسول على ذلك فى الحديث الذى ترويه السيدة عائشة " تخيروا لنطفكم فـانكحوا الأكفـاء وأنكـحوا اليهـم " ^(٣) . وتظهر آثار أختيار الحسن فى المستقبل ، حيث يحمل الأطفال كثيرا من الصفات الوراثية للآباء و الأمهات ، فبدلا من أن ندفع إلى الدنيا أطفالا جانحين أو مشوهى الخلق أو الخلق يحرص الإسلام على صلاح المنبت لتصلح الثمار .

ولقد نظم الإسلام للأطفال كثيرا من الأحكام التى تضمن مستقبلهم وتحرس نشأتهم ، وأحاطهم بسياج من الرعاية فى تمهيد الجو السليم لتربيتهم وصيانة حقوقهم ، وكفل لهم حوا من الحب الفطرى والإخلاص الطبيعى والمشاعر الصادقة ، ولا تشع المشاعر الصادقة إلا من عواطف طبيعية مفعمة بالحنان ، هذا الحنان الذى يعد هبة ربانية مودعة فى قلوب الآباء نحو الأبناء .

^(١) آل عمران/ ٣٨.

^(٢) الصافات / ١٠٠.

^(٣) المستدرک للنيسابورى.

ولقد جاء عن عائشة رضى الله عنها أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: "تقبلون الصبيان فما نقبلهم ، فقال النبي ﷺ أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة ".^(١) وهذه الرحمة التي يشير إليها رسول الله ﷺ هي الرحمة المبنية عن مشاعر إنسانية ثبت الله دعائمها فجعلها صورة مشرقة لإنسانية الإنسان كما أراد الله ، فصورها نعمة جليلة يتمتع بها الآباء والأبناء و من هنا نفهم أن الإسلام يرى الأطفال اللبنات الأولى في مجتمع الغد ، والآباء والأمهات لجيل المستقبل ، فإذا كفلت الوسائل السليمة لرعايتهم ، فقد ضمنت تكون المجتمع الصالح الذي يعمر الدنيا بالخير وينفع الدين بالوعى والإيمان .

تنظيم الحقوق والواجبات بين الآباء والأبناء

يقول الله عز وجل: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾^(٢).

إن من أجل الصلات الإنسانية وأبعدها عمقا فى النفوس ، وقداسة فى القلوب ، صلة الآباء بالأبناء ، لأنها صلة تصاحب ولادة الإنسان ونشأته على الأرض ، وتمتد فتشكل الجانب الإنسانى فى حياته كلها، فإذا مات إنقطع عمله إلا من ثلاث ... إحداها هذه الصلة التى تبقى أثراً خالدا له حياة وله عطاء ، وهذا الأثر الباقي هو الذى يعبر عنه رسول الله ﷺ -بقوله: "... إذا مات ابن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاث ... منها" أو ولد صالح يدعوله". وهذه العلاقة الطيبة التى فى الإسلام بين الآباء والأبناء ، تتميز على ماعداها من العلاقات بين بقية المخلوقات ، فهى تتعدى المنفعة المادية ، وتعلو على المصالح الضرورية ، وتكون غاية مقصودة لذاتها، وعبادة يؤكد القرآن جلالها ورفعة شأنها.. فإن الوليد يرتبط بأمه؛ لأنه يستمد حياته من حياتها ، ويستمد أمنه واستقراره من حنوها

^(١) رواه البخارى.

^(٢) سورة الأسراء / ٢٣ - ٢٥ .

وحنانها ، وهى ايضا ترتبط به لأنه جزء منها ودليل عليها ، فإذا ضحت براحتها من أجل راحتته ، ويسعادتها من أجل سعادته ، فهى تفعل ذلك بباطن فطرى ملهم ، ولا تحس فى ذلك بفضل ، ولا تشعر برغبة فى المن على العطاء ، وهى التى تعطى الحياة . ولكن هذا الجانب الإنسانى من العلاقة يتشكل بشكل جديد ، حيث ينمو الرضيع ، ويستغنى عن اللبن ، ثم ينمو فيستغنى عن المساعدة ، ثم ينمو أكثر فأكثر حين يستغنى عن الأخذ ويكون قادرا على العطاء.

وقد يستغنى كل من الولد والوالدة أحدهما عن الآخر إستغناء ماديا ، فكلاهما مكفول الرزق مبسوط العيش ، ولكن لأن الصلة الإنسانية ترتفع على الماديات ، وتتجاوز المصالح ، فإنها تظل حبلا ممتدا بين الطرفين ، وتظل عقدة وثيقة تحكمها فطرة إنسانية مغروسة فى القلوب ، ويؤكدها إحساس جميل بالواجب والإلتزام ، وتتداخل الواجبات والحقوق بين الولد وأمه حتى تزول الفواصل بينهما ، وحتى يرق الخيط الرفيع الذى يفرق بينهما ، فالأم تحنو على ابنها صغيرا وتحوطه بمشاعرها كبراً وهذا واجبها الذى إقتضته رسالتها ، وهو فى الوقت نفسه حقها الذى إقتضته فطرتها ، وهى حين تحنو وتعطف ، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر عليها حقها ، ولا يستطيع أن ينافرها فيه .

وحقها فى التعبير عن عاطفتها نحو ابنها بشتى الأساليب ، يلقي عليه واجبا نحوها هو الصلة التى أضفى عليها الإسلام جلالات حين سماها " صلة الرحم " وجعل قطعها من الإفساد فى الأرض والتخبط فى المشاعر ، وذلك يستوجب لعنة الله " فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم " (١) .

وإذا وصل الإنسان أمه وبرّ بها فوصل بذلك الرحم الذى أمر الله بوصله ، فهو بذلك يؤدى واجبا ، وهو فى الوقت نفسه يمارس حقا لا ينافعه فيه أحد ولا ينكره عليه إنسان .

(١) سورة محمد / ٢٢ - ٢٣

وإذا كانت هذه هي حقيقة العلاقة بين الولد وأمه ، فهي أيضا حقيقة العلاقة بين الولد وأبيه ، قد تختلط بالمنفعة حين يحتاج أحدهما إلى الآخر ، وقد تشوبها المصلحة حين يكون أحدهما آخذا والآخر معطيا .

ولكنها ترتفع عن ذلك المعنى المادى الضيق حين يشب الولد فيستقل بنفسه ، وحين يستغنى الوالد عما فى حوزة ولده ، وحين ذلك تختفى شبهة الانتفاع لتبقى شفافية الصلة ، ويبقى عمق الرابطة المتينة كما أرادها الله ، فتزداد حبا وعمقا وحرصا من كلا الجانبين ، وتمتد حتى يبر الولد والديه بعد وفاتهما .

فعن مالك بن ربيعة الساعدي - رضى الله عنه - قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة ، فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شئ أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: " نعم الصلاة عليهما والإستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما" (١) .

وحين دعا القرآن إلى صلة الأبناء قال: ﴿وبالوالدين إحسان﴾ ، وهذا يشعر أن الإحسان ملتصق بالوالدين ، وأنه لا فرق بينهما وبين المطالب بتقديم الإحسان وهو الولد .

ومعرفة الإحسان لا تحتاج إلى تعليم عميق أو فلسفة دقيقة ، وإنما هو فطرة ربانية قد توجد فى الجاهل ولا توجد فى المتعلم ، ولا يقتصر تفسير الإحسان على أداء الواجبات المادية دون بقية الواجبات ، فمن أحسن إلى والديه بتحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر سعته ، ثم لم يلقهما بعد ذلك إلا عابسا مقطبا ، أو أدى المنفعة التى يحتاجان إليها ، وهو يظهر الفقر والقلة والتبرم فإنه لا يعد محسنا ، لأن الإحسان معنى نفسى يتوفر فيه الإخلاص والتجرد وصدق النية .

فإن الله - ﷻ - بعد أن وصى الأبناء بالآباء ودعا إلى حسن المعاملة بينهم ، بين أن العبرة فى ذلك بما فى نفوس الأبناء من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه . وجعل التقصير مع هذا مرجو الغفران ، لأنه - حينئذ - تقصير فى الصلة المادية التى تشبه

(١) رواه أبو داود .

العجز ، وليس تقصيرا فى الجانب الإنسانى الذى يشبه العقوق .
فقال تعالى: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمَ بِمَا فِى نَفْسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ .

وكما أن الولد مطالب بالإحسان إلى والديه ، فإنهما أيضا مطالبان بالإحسان إليه فلا يكلفانه مالا يطيق ، ولا يدفعانه إلى مالا ينبغي ، ولا يجوران بسلطتهما على إرادته ، وهما اللذان آتاهما الله من الرحمة الفطرية ما لم يؤت سواهما .

فقد تظلم الأم ولدها فى بادرة غضب ، فتتغير عاطفتها نحوه ، ويطغى فى نفسها سلطان استعلائها عليه ، وقد يتحكم الوالد فى تزويج ولده بمن يكره أو يكرهه على تطبيق من يجب ، وهو تحكم فيما لا يرضى به الشرع ولا تقره الفطرة ، وهو أيضا من ظلم الإستهلاء الذى يوهم الرجل أن ابنه كعبده لا رأى له معه ولا إختيار له فى أمره .

فهناك لابد من تنظيم العلاقة بين الولد والوالدين ، بحيث يعرف كل منهما حق الآخر فيؤديه ولا يجور عليه ، ويعرف واجبه فيتنبه إليه ولا يقصر فيه .

وإنما أشرنا إلى ذلك لأن الناس يظنون أن وصايا الدين بحسن الصلة بين الأبناء والآباء ، إنما هى إلقاء بالتبعية كلها على الأبناء ، وإعفاء تام من كل تبعة على الآباء ، وأنه ليس للولد أن يخالف رأى والديه ولا هواهما ، وإن كان هو عالما وهما جاهلين بمصلحه ، مع أن الله ﷻ قال فى كتابه الكريم: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما.....﴾ (١) .

بل يجب أن نفهم أن الإحسان بالوالدين الذى أمرنا به هو فى حسن المعاملة الشرعية من قول وفعل فى حدود ما أمر الله به ، ولا يدخل فى ذلك شئ من سلب الحرية أو المساس بالعقيدة .

وهذا الإحسان تنظيم لحقوق الوالدين على الأولاد ، وحقوق الأولاد على الوالدين ، وحقوق الأمة على الفريقين ، فإنه إذا ما قام الولد بأداء الحق لوالده ، وإذا قام

(١) - سورة لقمان ١٥ .

الوالد بأداء الواجب لإبنه ، تكوّن من ذلك أساس لبناء أسرى كامل ، والمجتمع الكبير مجموعة من الأسر الصغيرة.

وإذا كان القرآن الكريم قد وصى الأبناء بالأباء ولم يوص الآباء بالأبناء فذلك لأن الشأن فى الآباء أن يحسنوا الى أبنائهم فطرة لاتفتقر الى توصية ولا تحتاج الى تعليم ، أما الأبناء فقد تشغلهم الشواغل حين يستقلون بأنفسهم ويكونون هم الآخرون آباء ، وحين ذلك يذكرهم القرآن بأبائهم فى وقت هم محتاجون فيه الى المعاونه فيقول: ﴿إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾

الحقوق الإنسانية

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطيئا كبيرا. ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا﴾. (١).

ما حافظ قانون من القوانين ، ولا شريعة من الشرائع على الإنسان وعلى حقوق الإنسان بقدر ما حافظت شريعة الإسلام ، فالإنسان فى نظر هذه الشريعة الحكيمة مخلوق كريم ، كرمه الله منذ بدء الخليقة إذ دعا الملائكة للسجود له ؛ لأنه دليل على قدرة الخالق الذى صوره من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه .

وكرمه إذ جعله فى الأرض خليفة ، وأجاب عن تساؤل الملائكة إذ قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك بقوله تعالى ﴿انى أعلم ما لا تعلمون﴾ (٢) وكرمه إذ حمّله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضلته على كثير من مخلوقاته ، ثم ساه الإنسان فى الأرض ، وتعرض لتيارات الحياة ، وواجه مختلف

(١) الإسراء / ٣١-٣٣.

(٢) البقرة / ٣٠.

القوانين فى مختلف النظم والحضارات ، فأتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأتى عليه حين آخر فاخترع وأنشأ وعمر وكون المجتمعات ، وتقلب كثيراً بين القوة والضعف والسيطرة والخنوع فاستبد بقوته على ضعف أخيه ، وطغى بحقه ففرضه بسيطرته على الآخرين الذين ضاعت حقوقهم .

ولقد ضرب القرآن لنا مثلاً على بطش الإنسان بأخيه الإنسان واعتداء أحدهما على حق أخيه فى الحياة بجانبه ، بابنى آدم ؑ إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ؑ ، وفى نهاية القصة المعروفة يقول : ﴿من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ .^(١)

وإذا كانت الآيات قد خصت بنى إسرائيل بالذكر ، فإن سياق القصة مسوق للإنسان فى كل أوان ، وإن حرمة النفس مصونة فى كل وقت ، وإن حياة الإنسان على الأرض حق له ولا ينبغي منازعته فيه إلا بحق كذلك .

وإن الفرد الواحد من بنى الإنسان ليمثل النوع كله ، فمن أستحل دمه بغير حق فقد أستحل دم كل واحد ، وقد هانت عليه حياة البشر ، ومن ثم فقد كان القصاص من القاتل فى الإسلام محافظة على حياة بقية الأحياء من الناس حيث يقول الله ﷻ : ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ .^(٢)

ومعرفة قيمة الحياة الإنسانية واحترامها ، والوقوف عند حدود الشريعة فى حقوقها ، يجعل الإنسان حريصاً على حقوق الناس أجمعين .

فالآيات تعلمنا ما يجب من وحدة البشر ، وحرص كل إنسان على حقوق الآخرين وحرمة الفرد التى هى حرمة المجتمع ، لأن أنتهاك حرمة إنتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحقه قيام بحق المجتمع .

(١) المائدة / ٢٧-٣٢ .

(٢) البقرة / ١٧٩ .

ولقد نهى القرآن عن القتل بغير حق بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(١)، وقد يكون ظاهر الآية أن النهي إنما هو عن قتل الإنسان ، لنفسه بالانتحار ، ولكن المتبادر منها فى السياق أن المراد لا يقتل بعضكم بعضا ، وذلك للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها ، فكأن الإنسان حين قتل غيره فأفضى ذلك إلى قتله قصاصا قد قتل نفسه ، فأرتكب بذلك جريمتين وأزهق روحين : روح المقتول بغير حق ، وروحه هو وقد ذهبت قصاصا . ولقد شددت الآيات التى صدرنا بها هذا الحديث على حرمة النفس حتى نهت عن قتل الأجنة فى بطون أمهاتها خشية الفقر، ووصفت هذا القتل بأنه : " كان خطئا كبيرا" ، ثم عادت فنهت عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، لأنه يفتح باب الفتنة ويؤدى إلى إتساع نطاق الجريمة .

وماذا يبقى فى الحياة من حقوق للإنسان إذا اعتدى على حياته ؟ إن هذه الحياة هى حقه الكبير ، فإذا أهدرت فقد أهدرت كل الحقوق ، ولم يبق إلا حق ميت فى رقاب الأحياء .

ولقد كان نبي الإسلام ﷺ ، وهو يخطب خطبة الوداع يقرر حقوق الإنسان فيوجزها فى حرمانات تحب صيانتها وعدم الإعتداء عليها حيث قال : ﴿فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فىسألكم عن أعمالكم . ألا فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض﴾^(٢).

فكأن رسول الله ﷺ قد جعل القتل بغير وجه حق من ملامح الكفر ، وذلك تشديدا على حرمة النفس ، وتأكيدا على حق الإنسان فى الحياة . ثم تأتى بعد هذا الحق الكبير حقوق كثيرة يحافظ عليها الإسلام ويصونها لصاحبها ويحرم الإعتداء عليها . ومنها حرمة المال الذى هو ملك لصاحبه ، فمادام قد كسبه بالحق فإنه يملكه

(١) النساء / ٢٩ .

(٢) متفق عليه .

بالحق حيازة وتصرفا، ولقد كرر القرآن الحريم في أكثر من آية بقرير هذا الحق بـرسا ، وتأكيد واجب الناس نحو إحترام هذا الحق ، وحين قال الله تعالى مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾. أضاف الأموال إلى الجميع للتنبيه على تكافل الأمة في حقوقها وواجباتها ومصالحها ، فكأنه يقول: إن ما لكل واحد منكم هو مال أمتكم ، فإذا إستباح أحدكم أن يأكل مال أخيه بالباطل فقد إستباح لأخيه أن يأكل ماله بالباطل كذلك ، وكما تدين تدان.

ولقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل ؓ أميرا على اليمن فكان من وصاياه له قوله: ﴿.. إياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب﴾. (١)

وتقرير حرمة الأموال على المسلمين جميعا ، وصيانة حق التصرف في الأموال للناس جميعا وجعل هذه الأموال في الحرمة وكأن مال الفرد هو مال المجتمع .، ذلك من القواعد التي يصبو إليها الاشتراكيون في حياتنا المعاصرة ، ولكنهم لم يهتدوا إلى سنة عادلة فيها، إذ الإسلام يجعل ذلك كله في ظل الدين الذي يعطف القلوب بالحب ، وهم يجعلونه في ظل الطبقيات التي تنشر الحقد والبغضاء .

ولو التمسوه في الإسلام لوجدوه ، فإن الإسلام يجعل مال كل فرد من أفراد مالا لأمته كلها ، ويرى كل منتسب لهذه الأمة أن مالها هو ماله ، لأنه إذا أضطر إليه ، فسيجده مذكورا له .

ومال الأمة أخيرا هو مال الله ، ففيه حق مقرر للفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات مع إحترام حقوق الحيازة والملكية للأفراد ، وتلك الحقوق قد نبه الرسول ﷺ عليها ، وحذر من العدوان عليها حيث قال فيما يرويه أبو أمامة ؓ ﴿من أقتطع حق إمري مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة﴾.

(١) متفق عليه .

فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ فقال: ﴿وإن قضيا من أراك﴾^(١) ، ولقد جعل الرسول من حرمة المال أداء الدين لصاحبه ، حتى إن الماطلة فى آدائه لتعد من الذنوب التى لا تكفرها الشهادة فى سبيل الله ، فلقد سأله رجل : ﴿أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟﴾ فقال رسول الله ﷺ : ﴿نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مبل غير مأبر .. إلا الدين ، فإن جبريل قال لى ذلك﴾^(٢) ، فإذا تقررت حرمة النفس الإنسانية ، وتقرر حق الإنسان فى ماله وملكيته ، فلقد قرر الرسول أيضا حرمة الأعراض فيما قرر فى خطبة الوداع ، ونهى القرآن فيما نهى عن قربان الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وهدد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة ودعا إلى إقامة الحد على الزانى والزانية دون مراعاة الرأفة فى دين الله ، بل دعا إلى أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، ولكنه رغم هذا التشديد فى إقامة الحد على من أستعلن جريمته ، فقد دعا إلى ستر الأعراض والمحافظة على من أستتر بستر الله ، وقال الرسول ﷺ : ﴿لا يستر عبد عبدا فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة﴾^(٣) . وكان من كشف هذا السر أن يجاهر الإنسان بالذنوب ويستعلن بالمعصية ، فكأنه يستبيح العرض الذى حرمه الله عليه ، وكأنه يهتك السر الذى ستره الله به . " وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : ﴿يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله﴾^(٤) .

وعلى وجه العموم ، فإن حقوق الإنسان فى الإسلام نابعة من اعتبار إنسانى ، والإنسان له كرامته ، وله شرفه ليضطلع يعبء الرسالة التى كلف بها ، ومن ثم فإن حقه بتقرير فى حدود كرامته التى أرادها الله له ، وفى ضوء شرفه الذى خلقه الله عليه ، ولقد حدد الرسول بعض الحقوق الإنسانية فى قوله : ﴿لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا .. بحسب
أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم .. كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله
وعرضه ^(١) . فإذا أجنب الإنسان هذه الصفات فقد إحتزم حقوق أخيه الإنسان ، وقد
أجنب كثيرا من الكبائر والله يقول : ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم
سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾ ^(٢)

^(١) رواه مسلم.

^(٢) النساء / ٣١ .

تنظيم العلاقات الاجتماعية

الإسلام والنظام

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ .
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ
لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۖ﴾^(١).

تصلح هذه الآيات الكريمة لنستدل بها على معان مختلفة تستدل بها على الله عز وجل ، ونستدل بها على بديع صنعه في الكون ، ونستدل بها على وجوب التأمل في خلقه لنصل من هذا التأمل إليه سبحانه .

ولكننا هنا نريد أن نستدل بها على فضيلة بثها الله فيما خلق وأحكم ، وعلى المؤمنين أن يبحثوا عنها ويعرفوها ، فإذا عرفوها فيجب عليهم أن يتأسوا بها ، لأنهم ما مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله ... تلك الفضيلة هي النظام .

والنظام من أبرز المظاهر الحضارية للمجتمعات الحديثة ، لأنه يشير إلى بنائها المتلاحم المتناسق ، وهو وإن كان مظهرًا تراه العين وتحسه الجوارح ، فهو قبل ذلك حقيقة مستقرة في النفوس ، كائنة في الطبائع ، ثم هي منعكسة بعد ذلك على كل ما حولنا من مظاهر الحياة .

والآيات الكريمة التي ذكرناها توظف مشاعرنا إلى بديع صنع الله ودقة إحكامه ، كما تشير إلى تنسيق مظاهر الكون وحسن نظامه فالسمااء بناء محكم دقيق ، ولم تنقصه إلى جانب هذا الإحكام وهذه الدقة زينة تبرز روعته وتجلو جماله . والأرض ممتدة مترامية الأطراف ثابتة الأركان ، وفيها أيضا ما يروق العين ويهيج الخاطر ، ففيها كما قال الله عز وجل: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ﴾.

فإذا لفت القرآن أنظار الناس إلى دقة الخلق ، فهو ينبههم أيضا إلى حسن النظام ، وهو يستثير حواسهم إلى التأثير ، وبنية مشاعرهم إلى الاقتداء .

(١) سورة ق / ٦-٨ .

ولقد خلق الله جلّت قدرته الحياة كلها على أروع ما يكون النظام وأكمّله ،
لا يختلف على ذلك أثنان ، ولا يمارى فى هذه الحقيقة أنسان آيا كان دينه وكائنا ما كان
فكرة وأنتماؤه وهويته . فالأرض التى نحيا عليها بشكلها الكروى وبالذقة المحسوبة فى
سرعة دورانها ، وباقي الأجرام وما تربطها من علاقة وهى فى أفلاكها تسغى وتسير
بملايين الملايين من الأعداد وبمواقعها الهائلة على ملايين الملايين من الأبعاد ، مما جعل الله
سبحانه وتعالى . وهو أعلم بما خلق . يقسم بقوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وأنه
لقسم . لو تعلمون عظيم ﴾ (١)

بل حتى فى جسم الكائن الحى وما ينتظم به من قوانين الحركة والحياة ، وما
خصص من الوظائف لكل خلية من خلاياه ، كل ذلك ينطق بالإعجاز فى هذا النظام
الربانى البديع والقرآن كتاب الله ودستور المسلمين ، شاء سبحانه أن تأتى آياته لتقول
للناس على تعاقب أجيالهم وعلى اختلاف ألسنتهم وألوانهم أنه من عند الله ، وكما أن
آيات الله الكونية قد أحكمت بهذا النظام الرائع فقد جاءت آياته القرآنية صورة أخرى
لهذه الدقة وهذا الأحكام .

فمن الآيات ما يحض على التفكير فى هذا النظام الربانى والتأمل فى قدرة الله
المبدع ، وهى كثيرة منبثة فى سور القرآن ، تصف هذا النظام وتصوره لتلفت إليه أذهان
الناس ، ففى مجال الفلك : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر
قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا
الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ (٢)

أليس ذلك عنوانا على النظام فى ملكوت الله ؟! الشمس لها مجال تسير فيه
وغاية ينتهى إليها ، والقمر بتدرج فى منازل الضوء ويهبط فى منازل الشحوب ، وكأنه
يحكى حياة الإنسان على الأرض . فالله ﴿ خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعفٍ

(١) سورة الواقعة / ٧٥-٧٦ .

(٢) يس / ٣٨-٤٠

قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة^(١). ومسار الشمس غير مسار القمر ، وغاية كل منهما تختلف عن غاية الآخر ، وهناك قوة قادرة حكيمة تنظم " المرور ، بينهما فلا يختل التنظيم ، ولا يرتبك المسير . ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ .

وفى النبات يصف الله جلّت حكمته الثمار بقوله : ﴿ والنخل باسقات لها نضيد ﴾ أى منظم ، وتصف الآية إلتقاء النهر العذب بالبحر المالح فنقول : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ " فهما يلتقيان ، ولكن هناك " برزخا " يحول دون ملوحة العذب ، وعذوبة الملح ، فهما " لا يبغيان " .

ويدرك الإنسان النظام الرائع فى تنسيق جسمه ، كما يتأمل الدقة الحركية فى أجزاء هذا الجسم . بل وحين يقرأ من هذا العالم الزاخر الذى أنطوت كل خلايا الجسم عليه ، لا يملك إلا أن يسجد لله المبدع سبحانه تقديراً وخشوعاً وإنبهاراً وهناك من الآيات الأخرى ما يوحى بمدى إهتمام القرآن بالنظام ، وهى الآيات التى تشتمل على التعاليم المختلفة فى المواقف المختلفة . نجد ذلك فى تنظيم الصلاة والتخطيط لها فى وقت الحرب " ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ (٢) .

فالأيات تخطط لتنظيم الصلاة كما تخطط لتنظيم الحرب ، والمسلمون المحاربون فى سبيل الله " عيونهم مفتوحة تترقب العدو ، وقلوبهم مشغولة تطمئن بذكر الله والمسلم لا يدخل إلى الصلاة الا عن طريق الوضوء ، حيث يقول رسول الله ﷺ : " لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ " ، فإذا قام للصلاة وقف منتظماً لأن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص " . (٣)

(١) الروم : ٥٤

(٢) النساء : ١٠٢ .

(٣) الصف / ٤

ووقف فى هذا الصف المستقيم لأن الله لا ينظر إلى الصف الاعوج ، فإذا أعوج الصف فى الصلاة ، كان على الإمام أن يقومه قبل أن يبدأ صلاته ، وكأن الصلاة لا ترتفع خالصه إلى الله الا من خلال صف مستقيم ومظهر منظم والمتبع لآيات الله البينات يجد هذا التنظيم الربانى فيما لا يكاد يحصى من الأمثلة من آيات العباد كالصلاة والصوم والزكاة إلى آيات تتناول العلاقات الاجتماعية كالترية والرضاع والزواج والطلاق والميراث وغير ذلك من عديد المجالات .

ولقد إنعكس أثر هذا النظام فى قيام المسلمين بعبادتهم تطبيقاً لما جاء فى هذه الآيات ، واسترشاداً بهدى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فأنت ترى فى صلاة الجمعة مثلاً العديد من المسلمين وقد إحتشدوا فى المسجد فى خشوع ، ما بين متعلم وأمى ، وصبى وشيخ ، وما بين محب للكلام وميال إلى الصمت وقد التزموا جميعاً بالهدوء والإنصات للخطيب ، فلا تكاد تحس بوجود كل هذا الحشد. فإذا قاموا إلى الصلاة تعاونوا على تنظيم صفوفهم بمحاذاة المناكب والأقدام لا يشذ عن ذلك صغير أو كبير متعلم أو غير متعلم .

وليست العبادات فى الإسلام المجال الوحيد لتعليم النظام والالتزام به ، بل ان المسلم مأمور بالتزام النظام فى كل أحواله ، وبأن يجعله من عاداته فى كل أموره ، وبأن يحرص حتى على زينته ومظهره . ان تأهب للذهاب إلى المسجد سمع قول الله عز وجل : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ ^(١) وإن جلس بين الناس جلس بمظهر جميل وسمت كريم . فعن زيد بن اسلم أن عطاء بن يسار أخبره أن رسول الله ﷺ كان فى المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار رسول الله ﷺ بيده أن اخرج ، كأنه يعنى اصلاح شعر راسه ولحيته ، ففعل الرجل ، ثم رجع ، فقال رسول الله ﷺ : " اليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم تأثر الرأس كأنه شيطان " ؟ ! لم يأت الاسلام اذن مجموعه من الترانيم المبهمة أو التعاليم المطاطه ، ولكنه جاء يحض على استشعار عظمة الله والتعرف

(١) الأعراف / ٣١ .

على إبداعه ، كما جاء يحض في كل مناسبة على اتباع النظام والعمل به ، ذلك لأن كلمه النظام لا تنصرف إلى مجرد بعض الحركات العسكريه ، وإنما النظام هو سر بقاء هذا الكون ، ولولاه لاصطدمت الأجرام في أفلاكها ولاختلط العذب الفرات بالملح الأجاج ، ولشاع الدمار والفوضى في جسم الإنسان .

ويحدثنا علماء النفس بما يسمى بانتقال أثر التدريب بمعنى أنه حين يدرب إنسان في مجال ما ، فإن المهارة التي يكتسبها من هذا التدريب في هذا المجال تفيده في مجال آخر مشابه ، فهو إذا تدرب على قيادة السيارات مثلاً يساعده ذلك في تعليم قيادة الطائرة . فما بالناس نحن معشر المسلمين ازاء تعاليم ديننا الحنيف ؟! تحض كلها على النظام ، ثم لا ينتقل ذلك إلى سلوكنا في مجتمعاتنا أن أكثر المشكلات التي تواجهنا في هذه المجتمعات ترجع إلى سوء النظام ، وهذه المشكلات تجابهنا في الطرقات والمرافق العامه والمواصلات . ولنا نحتاج في حلها إلى قانون صارم بقدر ما نحتاج إلى وعى رشيد ، والنظام سلوك عملي صادر عن اقتناع شخصي ، فلينفذ كل منا نفسه ، ويهذب كل منا سلوكه ، وليحول كل منا آيات القرآن في الصدور ترجمة عملية بالجوارح حتى لا يصدق علينا قول ربنا عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

حق الجار والوضية به

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ (١)

تحدثت هذه الآيه الكريمة عن بعض أصحاب الحقوق الذين يوصى بهم القرآن ، ويدعو إلى حسن معاملتهم ورعايتهم ، والإسلام دائماً يدعو إلى حسن المعاملة ولين

(١) النساء / ٣٦ .

الجانب مع الناس جميعا ، ولكن هؤلاء المذكورين فى هذه الآيه لهم حقوق بقدر ما لهم من صله وقرابه بالإنسان .

فالوالدان لهما حق الطاعة والرحمة ، وذوو القربى لهم حق القرابة ، واليتامى والمساكين لهم حق العطف والحنان ، وللجار حقوق على جاره ، وقد دعا اليها الإسلام الحنيف ، ورعاها القرآن الكريم والسنة النبويه المطهرة .

والجار أشبه بعائلته الإنسان ، وإذا أخلص فقد أصبح إلى الإنسان أقرب من قريبه فى النسب ، لأنه ملتصق به يعرف أحواله عن قرب ، ويسمع صوته إذا ناداه .

وقد يأنس الإنسان لجاره القريب أكثر ما يأنس لقريبه البعيد ، ويحتاج كل جار إلى جاره فيتعاونان ويتناصران أكثر مما يحتاج الأقرباء الذين تناءت بهم الديار وشط بهم المزار . والإنسان - كما يقول علماء الاجتماع - مدنى بطبعه ، لا يحب أن يعيش وحيداً ، ولا يرضى أن يعزل بعيداً ، ولو تأملنا أمزجة الناس فى اختيار البيوت التى يسكنونها لأدركنا هذه الصفة ، فإنهم يختارون مساكنهم فى المناطق المعمورة الآهلة بالسكان ، حتى وان لم يعرف بعضهم بعضا ولم يسبق بينهم لقاء ، فان الاجتماع مطلوب لذاته ، وان الأنس النفسى ليتحقق بمجرد معايشه الناس قبل أن يصطفى الإنسان منهم صديقاً ، وقبل أن يفضل بعضهم على بعض .

ولعل معنى هذا الإلف الإنسانى هو الذى أراده الرسول ﷺ بقوله عن أحب الناس اليه وأقربهم مجالس يوم القيامة " الموطئون أكنافا ، الذى يألفون ويؤلفون " .

ولقد جاء فى الأثر : خذ الجار قبل الدار ، وخذ الرفيق قبل الطريق ، لأن الجار هو الذى يسمع نداء جاره ويستطيع أن يهب لنجدته إن استغاث به ، ولأن الرفيق يهون على الإنسان مصاعب الطريق ، فيؤنسه من وحشته ، ويؤمنه من خوفه ، ويقاسمه همه إذا طال المسير .

وإذن فإن البحث عن الجار ، وطلب معاشرة الناس من ملامح الإنسانية التى هى من الطبائع المركوزة فى نفس الإنسان ، ولا تجد إنسانا ينفر من معاشرة الناس ويميل

إلى الإنطواء والعزلة إلا إذا كان في ظروف غير طبيعیه تملی علیه الوحدة وتنأى به عن الناس .

فإذا أحس الإنسان أنه في وسط اجتماعی ، وأن الجيران من حوله يشاركونه المكان الذى يعيش فيه ، ويقاسمونہ الحی الذى يسكنه ، فقد أصبح لكل منهم حقوق قبل الآخر ، وقد أصبح على كل منهم واجب تجاه أخیه .

ولقد حدد رسول الله ﷺ حقوق الجيران ومراتبها في حديث يرويه عنه جابر بن عبد الله رضى الله عنه حيث يقول : " الجيران ثلاثة : فجار له ثلاثة حقوق : حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له حق واحد : حق الجوار " .

وهذا الجار الأخير هو الذى لا تمت إلى جاره بصله الا صله الجوار ، فلا هو قريب له ، ولا هو من أهل دينه ، ولكنه صاحب حق قبل جاره المسلم ، وهذا الحق أيضاً حق كبير .

فلقد ثبت الأمر بالإحسان في معاملته الجار غير المسلم ، لأنه ان لم يكن أخا في الدين فانه أخ في الإنسانية ، وان لم يتصل بجاره بصله نسب فإنه قد اتصل به بصله الجوار ولقد روى البخارى في الأدب المفرد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما " أنه ذبح شاة فجعل يقول لغلامه : أهديت لجارنا اليهودى ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

وهذا يدل على أن ابن عمر رضى الله عنهما قد فهم من الوصايا المطلقة في الجار أنها تشمل المسلم وغير المسلم ، ولقد جعل رسول الله ﷺ الإحسان إلى الجار من معالم الإيمان ، فعن أبى شريح الخزاعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " ^(١) والحكمه فى الوصيه بالجار

^(١) رواه مسلم بهذا اللفظ وروى البخارى بعضه .

هى التى تعرفنا سر الوصيه ومعنى الجوار : فالجار يرى جاره ويلتقى به ، فيشتر كان معا فى أكثر الطريق ، ومن هنا وجب حسن المعاملة وحسن العشرة ، لتصير الحياة سهلة ، وتصير الدار التى يسكنها الإنسان طيبة المقام .

وليس هناك تحديد لعدد الدور التى تجعل اصحابها جيرانا ، وإنما ذلك راجع إلى العرف العام فى تحديد القرب والبعد . ولقد كان الإحسان إلى الجار من عادات العرب ، حتى كان إيقاد النار لتلمع فى الظلام ، وإطلاق الكلب لينبح فى سكون الليل من ملامح الكرم وسرعه النجدة فى الصريخ ، فلما جاء الإسلام جعل الإحسان إلى الجار من الأخلاق التى دعا إليها المسلمون ، وأكدها فى القرآن الكريم والسنة النبويه الشريفة .

واذا تأملنا ما فعلته المدنية الحديثة فى علاقات الناس لأدركنا أهميه العناية التى أولاهها الإسلام لعلاقات الجيران .

فلقد فصلت هذه المدنية الجار عن جاره ، وأغلقت على كل منهما بابه ، وطوت صدر كل منهما على همومه الخاصة ، فلا يعرف الجار ما عند جاره ، ولا يشارك أحدهما الآخر فى مشاعره حيث باعدت بينهما الأبواب المغلقة والأسرار المطويه .

ومن هنا لم يحرص الجار على مشاعر الجار ، فهذا المنزل يفيض بأفراحه ، وأمامه منزل مقابل يضج بأتراحه ، وكل منهما بعيد عن الآخر بعواطفه وان كان قريبا منه بحدوده .

ومن مظاهر الإساءة إلى الجيران كما نراه فى هذه الأيام إساءة استعمال الحرية الشخصية بما يؤذى الصحة أو يضر بالمشاعر ، والحرية إذا تطاولت حتى طغت على حقوق الناس كانت ضرباً من الفوضى ولونا من الإيذاء ، ولقد حذر رسول الله ﷺ من هذا الإيذاء ، فجعله ينقص درجه الإيمان ، فقال فيما يرويه عنه أبو هريرة : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن : قيل من يا رسول الله ؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه " (١)

وبوائق هى الغوائل والشُرور ، وهى الصور التى يقوم بها بعض الناس من إيذاء

(١) متفق عليه .

وإغلاق للحيران .

وإذا رأينا الرسول ﷺ يوصى أباذر بالإحسان إلى الجار حتى يقول له " إذا طبخت مرقه فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك " فاننا نفهم من هذه الوصيه ان من مظاهر الإحسان إلى الجار أن نبره فتقدم اليه بعض ما نأكل ، لا لحاجته إلى الطعام ، ولكن لتأليف قلبه وكسر الحواجز النفسية التي بيننا وبينه .

فكيف بنا الآن وقد تعددت ألوان الطعام ، وكثرت أنواع الفواكه ، وتسابق الناس إلى التغالى فى المظاهر غير عابئين بما يخلفه ذلك من امتعاض العاجزين وكسر قلوب الفقراء غير القادرين وإذا كان من حقنا أن نتمتع بالنعم التي أنعم الله بها علينا ، لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده ، وإذا لم نستطع أن نجود ببعض هذه النعم على المستحقين من الجيران ، فلا أقل من أن نستخفى بها ، أو نعتدل فى الظهور أثناء استعمالها فإن خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره .

وإذا أحسن كل جار إلى جاره تكونت مجتمعات صغيرة متحابه ، وانضمت هذه المجتمعات لتشكل المجتمع الكبير الذى يلتقى على المودة ويتعامل بالحب ، وهذا الحب هو الذى افتقدناه فضاغت من مجتمعاتنا ملامح التماسك وأواصر القربى .

وحين يعود هذا الحب المفقود تتجدد الروابط وتعود الألفة وتستقر المشاعر ، وبها نصل إلى ما انقطع فيصدق فينا وصف القرآن الكريم : ﴿ الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ . (١)

(١) الرعد / ٢١ .

مجتمع التواصى بالحق والصبر

يقول الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

إن التناصح سمة من سمات الأمم المتماسكة، لأنه يدل على حرص الأفراد بعضهم على بعض، وهى وسيلة اتباع الحق والإقلاع عن الخطاء، ومن القواعد المسلمة انه لا تقوم لقوم قائمة إلا إذا كان لهم جامعة تضمهم ووحدة تجمعهم وتربط بعضهم ببعض، فيكونون بذلك أمة حية كأنها جسد واحد، يقول الرسول ﷺ: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"^(٢).

وإن مما يحفظ وحدة الأمة ويبقى على تماسكها كلمة الحق يقولها من يدركها لمن غفل عنها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهما يحتاجان إلى قوة النفس وشجاعة القلب والضمير، لأنه كثيرا ما يأمر الناس بالمعروف فيواجه بالسخرية، وينهى عن المنكر فيواجه بالاستنكار والإيذاء، ولقد كان من وصايا لقمان لأبنه: "يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك أن ذلك لمن عزم الأمور"^(٣)، ولقد جاء الحث بالصبر على الأذى بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهما يتطلبان الصبر على التبليغ والصبر على الأذى بعد التبليغ، كذلك كان أنبياء الله: ما جاء أحد منهم بكلمة الحق إلا أودى، وما نهى عن رذيله فاشية فى قومه إلا اضطهد، وكذلك كان المصلحون الذين ساروا على دروب الأنبياء: دعوا بالحسنى فقبلوا بالعنف، وقالوا كلمة الحق فحوربوا بالباطل، لأن كلمة الحق كما تحتاج إلى نفس عالية تبليغها، فهى تحتاج إلى نفس عالية لتسعى وتتقبلها، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما من

(١) آل عمران / ١٠٤.

(٢) رواه احمد ومسلم.

(٣) لقمان / ١٧.

نبي بعثه الله في أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل" (١).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج يحفظ الجماعة ويحمي وحدتها، وهو برهان على صلاح الأمة واستعدادها إلى الخير، حيث يكون فيه الصالحون الذين ينصحون، ويكون فيها الصالحون الذين يستمعون النصيح، ولقد قص الله علينا شيئا من أخبار الأمم السالفة لنعبر بها فقال: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" (٢) على انه يراد بالمعروف ما عرفته العقول والطباع السليمة، ويراد بالمنكر ما أنكرته العقول والطباع السليمة، ولا يلزم لمعرفة ذلك ان يتعلم الانسان كثيرا من الفلسفات أو يقرأ كثيرا من الكتب، فان الحلال كما يقول رسول الله ﷺ بين والحرام بين، والأثم ماحاك في الصدور وخشيت ان يطلع عليه الناس .

ولكن فضيلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تحتاج- كما قلنا- إلى فطرة صافية تعرف المعروف فتتبعه، وتنكر المنكر فتتجنبه، وتحتاج إلى قلب جرىء يجهر بالحق ويتصدى للباطل، فلقد عدّ الرسول ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سادة الشهداء حيث قال: "سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه

فقتله" (٣) كما تحتاج هذه الفضيلة إلى نفس قوية تصبر على المكروه وتحمل الأذى في سبيل الله.

(١) المائدة / ٧٨-٧٩ .

(٢) المائدة / ٧٨-٧٩ .

(٣) روى مسلم وابو داود والترمذي وقال حديث حسن .

وذلك من ملامح المجتمعات الصالحة، فهي تملك طهارة الضمير لتصلح نفسها، وتمتلك قوة النفس لتصلح غيرها، وتقول كلمة الحق في المقام الذي يجب ان تقال فيه، كما يتسع صدرها لكلمة الحق يهديها غيرها اليها .

وماضراً المجتمعات الحديثة إلا المداراة والمجاراة، فتشيع رذيله في مجتمع حتى تصير عرفاً عاماً، فتتغاضى بقية المجتمعات عنه، باسم المجاملة تارة وباسم الحياد تارة أخرى، وقد لا تتوقف هذه المجاملة عند السكوت أو المداراة، بل قد تصل إلى المجاراة حيث تستهوى هذه الرذيلة مجتمعاً آخر فيقلدها وتشيع فيه وتبدو في تصرفات أبنائه، والرذائل سريعة الانتشار كما تنتشر النار في الهشيم، ولكنها داء وبيل يسكن جسوم الأمم، فيظل ينخر فيها من الداخل حتى يحولها إلى هيكل متها ومن الخارج . . . وذلك هو الهلاك المبين .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ان أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل انه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: "اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك ان يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوبهم بعضهم ببعض" ثم قال: "لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . . . ثم قال "كلا والله لنا أمر بالمعروف ولنتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضهم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم" (١) .

ولقد بدأت الآية بالدعوة إلى الخير وهي تهئية النفوس للصالح العام ، وتهذيب الفطر لتنجذب إلى المعروف وتنفر من المنكر ، والخير كلمة جامعة لكل المعاني الصالحة ولقد اتجه بعض المفكرين إلى ان المراد بالخير هو الاسلام إذ الاسلام دين الله على لسان جميع الانبياء لجميع الامم ، وهو الاخلاص لله تعالى والرجوع عن الهوى الى حكم الله وقد سمانا الله الأمة الوسط ، وخير الامور الوسط ، وذلك لندعو الناس إلى الحق

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن .

الذى عرفناه ، ونأخذهم إلى الخير الذى ائتمنا الله عليه : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾^(١) وجعلنا كذلك ﴿خير أمة اخرجت للناس﴾، لا لنستعلى عليهم، ولا نستبد بحقوقهم، ولكن لتكون كما أرادنا الله ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

فمراحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تبدأ أولاً بالدعوة الى الخير، أو الدعوة إلى الإسلام، وتهيئة النفوس للبر والتقوى .

ثم يكون الأمر بالمعروف والنهي عاملا على وحدة الامة ومانعا من فرقتها، لأنها إذا اجتمعت على اتباع المعروف والانتفاء عن المنكر سيطرت على الأمم، وتلاشت الاهواء الشخصية بين أفرادها، فإذا عرض البغى والحسد لواحد منهم تذكر وظيفته الغالية الشريفة التى لا تتم الا بالتعاون والاجتماع، فأزالت الذكرى ما عرض، وشففت النفوس قبل تمكن المرض .

ولا يتصور ان الامة كلها قد أقامت على الحق واجتنبت الباطل، ومن ثم فهى لا تدعو إلى الخير إلا غيرها من الأمم، ولكن الدعوة والأمر والنهى تكون بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس، وضرب الأمثال المؤثرة فى النفوس ليأخذ كل سامع منها بحسب حاله، وتكون بالدلالة على الخير والحث عليه، والنهى عن الشر والتحذير منه .

ولقد ذكر رسول الله ﷺ طائفة من أمته، يؤمنون به ولا يرونه، ثم قال لصحابته ان للواحد منهم أجر سبعين، فقالوا: سبعين منا أم منهم . فقال: بل منكم أنتم.. أنتم تجدون أعموانا على الخير ولا يجدون .

والمعاونة على الخير تنشره بين الناس، وتجعله شيئا فى سلوكهم، وتقوى أنصار الخير وفاعليه، لأن الفضيلة تحتاج إلى مجتمع يفرسها ويحرسها ويجمع عليها . وإذا كنا نرى التناصح قد صار سببا للتخاصم والتدابير، حتى صار من العسير ان

(١) البقرة / ١٤٣ .

تنصح أخا أو صديقا أو ولدا، وحتى أضطر المصلحون والغيورون ان يلجئوا إلى الكنايات والتعريض لا المواجهة والتصريح، فان الأمة التى يفشو فيها الضيق بالنقد الصريح ومطاردة كلمة الحق هى من الأمم التى تودّع منها كما قال نبي الإسلام ﷺ ، وانما الكلام فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الأمة المسلمة التى عرفت نعمة الله إذ كانت على شفا حفرة من النار فأنقذها الله منها، ومع من يشاركها فى الشعور ويوافقها فى سنة الأهداء، وهؤلاء يصدق عليهم قول الرسول ﷺ : "المؤمن أخو المؤمن :يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه"^(١) ، وان ما نراه الآن من سوء الحال كان أثره التفريط فى كلمة الحق، وترك التناصح، واتباع كل فرد لهواه .. ومن العجيب أن يحتاج بعض الناس فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقوله تعالى ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(٢) ، ويتبادر الى أذهانهم أنها تحت على أن يشتغل كل منا بإصلاح نفسه، وألا يتعرض لغيره فإن هدايته لنفسه وضلا له لا يعود الا عليه .

وهذا فهم ملتو لآية مستقيمة، ولقد قال أبو بكر فيها: "انكم تقرعون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله يقول: " أن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، وقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال فيها: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر"^(٣) .

وهكذا يصحح الرسول ﷺ ما ترامى إلى وهم الناس فى زمانه من الآية الكريمة، ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، فلقد أصبح مهمة الداعين إلى الخير شاقة، وصار طريق الأمرين بالمعروف.. والناهين عن المنكر محفوف بالمكاره والأشواك، وما أيسر أن

(١) رواه الطبرانى والبخارى وابو داود .

(٢) المائدة / ١٠٥ .

(٣) قال الترمذى: حديث حسن غريب صحيح ورواه ابو داود وابن ماجه .

يلجأ الضعاف من الناس إلى تأويل هذه الآية على غير وجهها ليعفوا أنفسهم من مشقة النصيحة تلقى اليهم أو يكلفون هم بالقائها إلى غيرهم . .
وهذا الدين لا يصلح إلا بأن يدافع عنه أهله، وإن يذلوا ما فى طوقهم لرد الناس إليه، كذلك جرت سنة الانبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان محفوفاً بالمكاره والمخاوف فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين^(٢).

(٢) القصص / ٥٠ .

الدعوة إلى الخير

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾^(١).

لقد جعلنا الله بفضله ومنتته "خير أمة أخرجت للناس"، لا لاننا خير أجناس الارض، ولا لميزة أختصنا بها على سائر البشر، ولكن لاننا كما وصفنا سبحانه تآمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله^(٢)، وهذه خصائص الامة الخالدة التي ان فنى افرادها فلا تفنى مبادئها، وان ذهب شكلها المادى فلا يذهب تاريخها الروحى .

وان حضارات الامم تختلف باختلاف مصادرها وأسسها، فهناك حضارة تقوم على اسس عسكرية، وهناك حضارة تقوم على اسس فنية أو عمرانية أو غير ذلك، فتبقى حين يفنى هذا الأساس وتضيع معالمه فى زوايا التاريخ .

وقد يكون لحضارة الأمة الاسلامية روافد من الآداب أو الفنون أو ما إلى ذلك، لكن الأساس الذى تقوم عليه هذه الحضارة، هو أساس متين من المبادئ الخالدة التي لاتضيع وإن طال بها الزمن، ولاتفنى وان امتدت بها القرون، لأنها مبادئ موصولة الأسباب بالسماء فهي موصولة الأسباب بالله، وما كان لله دام واتصل .

والدعوة إلى الخير من أبرز مبادئ هذه الحضارة الخالدة العريقة، أو هى اساس هذه الحضارة، فلقد نزل القرآن دعوة إلى الخير، حيث كان الخير كلمة جامعة لكل الفضائل، وحيث كان التواصى بالحق سمة بارزة من سمات المؤمنين، فهم الذين "تواصو بالحق وتواصو بالصبر" .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحث المسلمين دائماً على الدعوة إلى الخير، ويرغبهم فى كلمة الحق، حتى يجعل من دعا إلى الخير كمن قام بفعله فيقول مثل قوله: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله" ، "ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه

(١) آل عمران / ١٠٤ .

(٢) آل عمران / ١١٠ .

لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً ﴿١﴾ .

ولقد خطب في الناس يوماً فتلاً قوله ﷺ: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً وأتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (٢) ثم قال: ﴿تصدق رجل من ديناره ، من درهمه . من ثوبه . من صاع بره . من صاع تمره . حتى قال : تصدق ولو بشق تمره ، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت فقال رسول الله ﷺ : من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً﴾ (٣) .

ومن القواعد المسلمة أنه لا تقوم لقوم قائمه إلا إذا كانت لهم وحدة تجمعهم ورابطة تربط بينهم ، والتواصي بالحق والدعوة إلى الخير من أقوى الروابط ، لأن الأمة بهذه المبادئ تكون أمة حية كأنها جسد واحد ، كما ورد في حديث : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (٤) .

وإذا كانت الوحدة الجامعة هي أساس كل أمه سواء أكانت هذه الأمه مؤمنة أم كافرة ، فإن المؤمنين أولى بالوحدة من غيرهم ، لأنهم ينتمون إلى مله هي مله التوحيد ، ولأنهم يعبدون رباً واحداً هو رب العالمين ، ولأنهم يتجهون في صلاتهم اتجاهها واحداً هو قبله المسلمين ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (٥) .

(١) رواه مسلم .

(٢) النساء / ١ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أحمد ومسلم .

(٥) الأنبياء / ٩٢ .

ولما كان لكل جامعة وكل وحدة حفاظ يحفظها ، فقد أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى ما نحفظ به جامعتنا التي هي مناط وحدتنا فقال : " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " وجعل من دعاء المؤمنين المقبولين قولهم : ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ ^(١) .

وكثيرا ما يضيع الحق بين الناس ، لأنهم كرهوه ، بل لأنهم لم يعرفوه ، فهم في حاجة إلى من يذكرهم بالحق ، ويرشدهم إلى الخير ، لأن كلمة الحق تتطلب جماعة تتواصى بها ، ولأن البر ينمو في وسط مجتمع يعين أفراده بعضهم بعضا عليه .
وان من مشكلات مجتمعتنا المعاصر أن الإنسان قد لا يجد الأعوان على الخير ، فيظل يحمله حتى ينوء به كاهلة فيضعف عن مواصلة الطريق ، أو تضعف قبضته على دينه ، لأنه يكون حينئذ كالقابض على جمر ، أو يحاول أن يجهر بكلمة الحق فيصرفه عن ذلك قوم أصموا أذانهم وأغلقوا قلوبهم ، فيؤثر السلامه ويطوى كلمته بين جنبيه ، وقد يجرفه التيار فينسى كلمته ، وينسى نفسه ويتوه بين الزحام .

ولقد سئل رسول الله ﷺ : أى الأصحاب خير يا رسول الله ؟ قال : من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيتك ذكرك ، قيل : فأى الناس شر يا رسول الله ؟ قال : من إذا ذكرت الله لم يعنك وإذا نسيتك لم يذكرك فالرسول ﷺ هنا يضع مقياسا لصدق الصحبة هو التناصح والتعاون على الخير والتذكير بالمعروف ، وهو مقياس دقيق يقيس إخلاص الصديق لصديقه ، فهو يعاونه على طريق الحق إن سار فيه ، ويدعوه الى سلوكه إن انحرف عنه ، أما الصديق الذى يجامل صديقه بالحق وبالباطل ، ويجده على ضلاله فلا يرشده ولا ينهاه ، فذلك قرين سوء ورفيق طريق يضر صديقه بسكوته ويخدعه بابتسامته والدين - كما بين رسول الله ﷺ - النصيحة . قالوا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم " ^(٢) وهذه النصيحة ان كانت قولاً حسناً أو كلمة لينة فانها

^(١) الفرقان / ٧٤

^(٢) رواه مسلم .

هداية حكيمة وموقف شجاع ، لأنها تكون أحياناً وقفة شجاعة في وجه تيار جارف ، ومواجهة صلبة لباطل عنيد .

ولو أن أصحاب الرأي وأهل الفقه في الدين عمموا دعوتهم وارشادهم في الأمة ، وواصلوا هذه الدعوة فلم تفرّ لهم عزيمة ، ولم تلن لهم قناة لكانوا رواداً لأمتهم ومعاقداً لرابطة وحدتها ، وإذا عم التناسخ بين أفراد الأمة فنصح كل أخ أخاه ، وذكر كل صديق صديقه لانهسار تيار الشر ، واستقر أمر الخير والمعروف بين الناس .

وللدعوة إلى الخير مجالات رحبه متعددة ، إذا أحسن استغلالها أنتجت خيراً ، فالأباء في بيوتهم ، والمربون في معاهدهم ، والخطباء في دور العبادة ، والموجهون في وسائل الإعلام كالصحافة والإذاعة وغيرها هؤلاء جميعاً على ثغر التربية والتوجيه ، وهم يستطيعون . وقد تصدوا . لحمل الأمانة - أن يأخذوا الناس ، وبخاصة الشباب الذين يفتقدون المرشد إلى الطريق المستقيم .

ولقد نصح رسول الله ﷺ فكان داعياً بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكانت نصيحته اللينة أبلغ من مواجهه عنيفة ، فكان أثرها في النفس حميداً وفي القلب بليغاً ، ولقد روى أبو أمامه أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أتأذن لي في الزنى ؟ فصاح الناس به - أي ليزجروه - فقال النبي ﷺ : أتجبه لأمك ؟ قال : لا ، قال : أتجبه لابنتك ؟ قال : لا ، قال أتجبه لأختك ؟ قال لا . فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه " فلم يكن شئ أبغض إليه من الزنى . (١) .

فالرسول ﷺ هنا يواجهه رغبة جامحة بنصيحة هادئة ، ويتوج هذه النصيحة بدعوة تعطف القلب إلى الحق وتنبأ به عن الباطل ، وهذه النصيحة تظلل هادئة ما دامت قد وجدت أذناً صاغية ونفساً مستجيبة ، فإذا وجدت اعراضاً وصادفت صدوداً فلتتحول إلى انكار قوى أو استنكار صريح ، حتى يعلم أنصار الباطل أن للحق جنوداً ينكرون

(١) رواه أحمد بإسناد جيد .

بمشاعرهم ويقاومون بأيديهم ، فلا تفشو المعصية ولا يظهر المنكر على المعروف ..
ولقد بين رسول الله ﷺ خطورة السكوت على الباطل ومهادنه الأشرار بقوله
فيما يرويه ابن مسعود عنه : " ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل ، أنه كان الرجل
يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد
وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله
قلوب بعضهم ببعض " ثم قال : " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ،
ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو
ليضربن الله بقلوب بعضهم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم " .^(١)
" ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم
وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء
ولكن كثيرا منهم فاسقون " .^(٢)

^(١) رواه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن .

^(٢) المائدة / ٨٠-٨١ .

صور تطبيقية للقيم الاجتماعية

- المال فى خدمة المجتمع .
- التسامح حتى مع القتل .
- فلسفة الحرب والسلام .
- مجتمع النظافة والنظام .
- الرزق الحلال الطيب .
- مجتمع الحب والتآلف .

المال فى خدمة المجتمع

حين نحاول إيجاد صيغة لتنظيم العلاقة بين الدين والمعاملة ، فإننا قد نصوغها على

النحو التالى :

أولا : الإنسان يمارس حياته على الأرض .

ثانيا : هو صائر بعد ذلك إلى الآخرة .

ومن هنا فإنه محتاج الى تشريع ينظم له حياته ، ومحتاج الى منهج يهيئه لآخرفته ، لأن الإسلام يحكم الدنيا بالدين ، ويهيئ الحياة للآخرة . ولعل المال أبرز الأسس التى تركز عليها معاملات الناس فى الدنيا ، فالمال كما يقولون عصب الحياة ، والإنسان بنصر القرآن الكريم يجب المال حبا جما .. والإسلام لا ينكر على الإنسان حبه للمال ، فإن هذه طبيعة مغروسة فيه ، بل إنه ليدعوه إلى الكسب والتميز .. ونعم المال الصالح للرجل الصالح .

ولكنه يدعوه إلى جانب ذلك أن يوظف هذا المال فيما وضع له ، وأن يستخدمه لأداء دوره الاجتماعى فى التكافل بين الناس ، وان ينفى عنه السحت الذى يفسده ثم يكون سببا فى هلاكه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

ومن هنا نهى الله عن الربا ودعا إلى الصدقة بقوله : (يحق الله الربا ويربى الصدقات) ، ووازن بين أثر كل منهما بقوله : (وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) .

ولقد أراد الله سبحانه أن يرفع الناس إلى مستوى من التعامل الإنسانى الكريم ، فشبه علاقته بهم بالقرض حيث قال : ((من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون)) . وليس الله محتاجا إلى عباده ليقترض منهم ، فلقد ((كفر الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)) . ولكنه أراد أن يعلمهم القرض الحسن ، وأن يجعلهم يطبقون هذا العلم فى المعاملات فيما بينهم .

ولقد أراد الحسن البصرى أن يذهب إلى تحريم الربا مذهباً بعيداً فقال : ((إذا

كان لك على رجل دين ، ، فما أكلت من بيته فهو سحت ، وهذا من قوله صلى الله عليه وسلم : ((كل قرض جر نفعا فهو ربا)) .

وهو يهدف من هذا الاتجاه ألا يستغل الدائن حاجة المدين فيجعل دينه ضاغطا على عنق صاحبه ، وألا يطارده بهذا الدين فيأخذ منه بالوسائل المباحة ما يعدل الربا المحرم ، ومنها الطعام الذى يأكله فى بيته .

وهذا اتجاه يحاول تأكيد سد الذرائع ، فقد يأكل الدائن عند المدين وهو ينوى أنه بهذا الأكل يستثمر دينه عند صاحبه ، فيعد ذلك منفعة محرمة من وراء القرض المشروع . ولكن ليس معنى ذلك أن يقاطع الدائن المدين وألا يتزاور كل منهما ، فإن الإسلام كما دعا إلى التكافل والتعاون وتنفيس كربات المكرويين حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من نفس عن مؤمن كربة من كربات الدنيا ... نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة)) ... فقد دعا إلى التزاور والتواد وما يترتب عليهما من إكرام الضيف والقيام بواجبات الضيافة ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)) .

وإن المودة بما فيها من تبادل الهدايا والطعام صورة من صور المحبة ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب .. فإن شاء طعم ، وإن شاء ترك)) .

وما دامت المعاملات قائمة بين الناس على أساس من التكافل والحب ، فإن النيات الطيبة تحكم تصرفاتهم وتصلح أساسا لتقييم معاملاتهم .

وبذلك يمتزج معنى المعاملة بمعنى العبادة : فتسترشد المعاملة بقيم العبادة ، وتدوم العبادة بدوام المعاملة ، وهذا هو المجتمع الذى يريده الإسلام : الأيدى التى تدبر المال أيد نظيفة ، والضمائر التى تصرفه ضمائر مخلصة ، والمجتمع الذى يتعامل به مجتمع متكافل . وتلك هى التجارة الراجعة : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم .. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير

لكم إن كنتم تعلمون ﴿١﴾ . وإن الإنسان يحرص في هذه الحياة على شيئين : رزقه وأجله ، والرزق معدود تكفل الله به في مثل قوله تعالى : ﴿٢﴾ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴿٣﴾ .

والأجل محدود حدده الله في مثل قوله ﴿٤﴾ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٥﴾ .

ولكن لهفة الإنسان على الرزق تجعله يكدره لتحصيله ، فإذا صار في يده اشتدت قبضته عليه ، وضمّ بإنفاقه حرصا منه على الاحتفاظ به .

وحرصه كذلك على أجله يدفعه بعيدا عن تيارات الحياة ، وينأى به عن المواطن التي يتوقع فيها الخطر . ولقد صور الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحرص على هاتين الناحيتين في قوله : (يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر) . وهاتان الظاهرتان تلحقان كثيرا من الناس حتى تكون ملامح سيئه في أخلاقهم : أنهم يحرصون على أموالهم حتى يتحول هذا الحرص بخلا يغفل أيديهم عن الانفاق والتكافل مع عباد الله ، ويحرصون على أجالهم حتى يتحول هذا الحرص جبنا يقعد بهم عن الجهاد في سبيل الله .

ولقد روى عن عمر قوله : إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم وتركوا الجهاد في سبيل الله انزل الله بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم) .

فكأنه قد جعل الإمساك عن الانفاق والقعود عن الجهاد نذيرا بوقوع البلاء ... وكأنه قد جعل ذلك أيضا مظهرا لإنقسام عرا الدين ، فإذا حل البلاء فإن الله لا يرفعه إلا إذا رجع الناس إلى أنفسهم وراجعوا دينهم .

وقد يعلم الناس أن تمتعهم بأموالهم محدود بحياتهم على هذه الأرض ، وأن هذه الحياة وإن طالت فإنها قصيرة ... وقد يعلمون ذلك بعقولهم ، ولكن هذا العلم لا ينعكس على سلوكهم ، فهم يكتزون المال حتى يتحول وبالا فيقال لهم ﴿٦﴾ هذا ما كنزتم لانفسكم

فذوقوا ما كنتم تكذبون ﴿ وهم يضمنون بأعمارهم حتى يجنبوا عن لقاء عدوهم فيصدق فيهم قول الله : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا .. يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ .

ولقد رسم رسول الله صورة للحرص على المال بقوله ﴿ يقول ابن آدم مالى مالى ... وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنت ، أو تصدقت فأمضيت .. وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس ﴾ . أما الجهاد فقد جعله الرسول ذروة سنام الأمر كله ، لأن العقيدة اذا كانت تشبه البناء ، فإن الجهاد يشبه السور الذى يحيط بهذا البناء ويحميه .

وكما أن للعقيدة أتباعا يؤمنون بها ، فإن لها اعداء يكيدون لها ، ومن هنا شرع الجهاد فريضة مكتوبة على المؤمنين ليصدوا به عدوان الكافرين ..

ولئن كان جهاد المجاهدين محنة تبتلى بها نفوسهم ، فإنه فى ميزان الله درجات تعظم بها منازلهم ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم).

وان منازل الشهداء فى الجنة أعظم المنازل عند الله لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .. فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيماً).

التسامح حتى مع القتل

الأصل فى حكم القاضى أنه : (مشمول النفاذ) ، لأنه لم يصدره إلا وقد قلب الأمر على كل الوجوه ، فسأل الخصوم ، وناقش الشهود وطلب البيّنة . ولكن قد تعرض أمور للحكم بعد صدوره فتعطله أو تغير مساره أو غير ذلك ، فقد يتراجع الشهود عن شهادتهم - مثلاً - بعد صدور الحكم وقبل نفاذه ، وحينئذ فإن المحكوم به إذا كان حداً أو قصاصاً فإنه لا يجوز للقاضى استيفاءه باتفاق الفقهاء الأربعة لأن الحدود تدرأ بالشبهات^(١) .

أما إذا كان المحكوم به غير حد ولا قصاص ، فليس للقاضى أن ينقضه ، بل عليه أن يستوفيه ويعطيه للمحكوم له ، ثم يضمن الشهود المحكوم به للمحكوم عليه . وهذا ما ذهب إليه الإمام أحمد و مالك والشافعى وأبو حنيفة وغيرهم^(٢) . وإذا رجع الشهود عن شهادتهم بعد صدور الحكم وتنفيذه ، فإن الشهود يضمنون ما أتلّفوا للمشهود عليه من مال ، كما يضمنون قيمة الأضرار المترتبة على الحكم هذا وإن كان المحكوم به حداً أو قصاصاً فإن الشهود عند كثير من الفقهاء يؤخذون بالقود وإن تعمدوا الشهادة وقتل المحكوم عليه أو قطعه ، ويؤخذون بالضمان إن أخطئوا فى الشهادة .

وقد ذهب إلى هذا رأى الحنابلة ابن أبى ليلى والاوزاعى والشافعى وأشهب من المالكية^(٣) .

رجوع ولى الدم : وكما يجوز أن يرجع الشهود عن شهادتهم بعد الإدلاء بها ، فقد يرجع ولى الدم نفسه عن دعواه . فإذا حكم الحاكم على رجل بالقتل بناء على دعوى من ولى

(١) انظر : المغنى ج ١٠ / ٢١٩ - ٢٢٠ ، مغنى المحتاج ج ٤ / ٤٥٧ ، منتهى الارادات ج ٢ / ٦٧٦ .

(٢) انظر : حاشية ابن عابدين ج ٣ / ٥٠٤ - ٥٠٥ ، شرح فتح القدير ج ٦ / ٨٦ ، مغنى المحتاج ج ٤ / ٤٥٧ ،

قليوبى وعميرة ج ٤ / ٣٣٢ / ٣٣٣ ، مجلة الاحكام العدلية مادة ٤٧٢٩ .

(٣) انظر : المقتع ج ٢ / ٧١٨ ، أسهل المدارك ج ٣ / ٢٢٧ ، وطالب أولى النهى ج ٦ / ٦٤٥ .

الدم ، ثم تراجع ولىّ الدم وحده معترفا بأن الدعوى كانت خطأ ضد المدعى عليه ، وأنه فى الحقيقة لم يكن قاتلا فإن على ولىّ الدم نفسه الدية إن كان قد أخطأ ، وإن كان متعمدا فإن عليه القود لأنه المباشر للقتل .

وحتى إذا رجع ولىّ الدم عن دعواه كما رجع الشهود عن شهادتهم ، فإن فى مذهب الإمام الشافعى روايتين :

الأولى : وهى الأصح - : يجب القصاص على ولىّ الدم وحده للمباشرة ، وهم معه كالممسك للقاتل .

والثانية : ولىّ الدم والشهود شركاء لتعاونهم فى القتل ، فعليهم القود ، وإن آل الأمر الى الدية فعليهم النصف وعلى الولى النصف وإذا تمألا ولىّ الدم مع الشهود والقاضى على الحكم بقتل إنسان أو قطعه ثم تراجعوا عن ذلك ، وقالوا إنهم تعمدوا ذلك فإنهم يقادون جميعا به فيقتلون إذا كان المحكوم به قتلا ، ويقطعون إذا كان المحكوم به قطعاً^(١) .

عفو ولىّ الدم :

وإن رجوع ولىّ الدم غير عفوه : فالرجوع - لما بينا - يكون اعترافا بخطئه ورجوعا عن دعواه ، أما العفو فإنه تنازل عن حق بعد ثبوته . ولقد ذهب الحنفية الى أن القصاص واجب عينا ، بل الواجب أحد الشيتين غير عين : إما القصاص وإما الدية ، وللولى خيار التعيين إن شاء استوفى القصاص وإن شاء أخذ الدية من غير رضا القاتل . فعلى هذا القول إذا مات القاتل يتعين المال واجبا ، فإذا عفا الولى سقط الموجب أصلا .

وفى قول القصاص واجب عينا ، لكن للولى أن يأخذ المال من غير رضا القاتل . وإذا عفا فإن له أن يأخذ المال ، وإذا مات القاتل سقط الموجب أصلا عملا بقوله تعالى : ((فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)) .

(١) انظر : مغنى المحتاج ج٤/٤٥٧ - ٤٥٨ ، الاختيار لتعليل المختار ج٣/ ١٥٥ .

غير أن الحنفية يحتجون بقوله تعالى : ٠ (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى)) .

وهذا يفيد تعيين القصاص موجبا ، ولو كان على القاتل أحد حقين فإنه لا يصدق القول على أحدهما بأنه أوجب من الآخر .

وإذا كان القصاص واجبا فليس لصاحب الحق فيه أن يعدل عنه إلى غيره ^(١) .
وإذا عفا ولى الدم عن القود إلى غير مال وصرح بذلك ، فإذا كان الواجب القصاص عينا فلا مال له وقوله يعد لغوا ، وإذا كان الواجب أحد شيئين - القصاص والمال - سقط القصاص والمال جميعا ^(٢) .

ولقد قال الشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر فقهاء المدينة من أصحاب مالك وغيره إن ولى الدم بالخيار إن شاء اقتص ، وإن شاء أخذ الدية رضى القاتل أو لم يرض وأختلف العلماء فى المقتول عمدا إذا عفا عن دمه قبل أن يموت : هل ذلك جائز على الأولياء ؟
قالت طائفة منهم الشافعى وهو فى العراق : لا يلزم عفوهُ وللأولياء حق القصاص أو العفو .

هذا ويرى مالك أن ولى الدم ليس له الا أن يقتص أو يعفو غير دية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كتاب الله القصاص)
فعلم بدليل الخطاب أنه ليس له إلا القصاص ^(٣) .

(١) انظر : بدائع الصنائع ج٧ . كتاب الجنایات / ٢٣٣ وما بعدها القواعد لابن رجب الحنبلى ، قاعدة ١٣٧ ص ٣٢٨ .

(٢) القواعد السابقة ، ص ٣٣٠ .

(٣) بداية المجتهد . لابن رشد ج ٢ . كتاب الجنایات / ٢٩٦ وما بعدها .

فلسفة الحرب والسلام فى الإسلام

يميل الإنسان إلى السلام بطبيعته ، ويلجأ إلى الحرب لضرورته وهو بين السلام والحرب يمارس حياته ، ويعمر أرضه ، ويتعامل مع غيره من الناس : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (١) .

ولقد جاء الإسلام دعوة هادية إلى الخير مرشدة إلى عبادة الله الواحد ، مسوقة إلى عقول الناس ليفكروا ، وإلى عواطفهم ليشعروا وإلى قلوبهم ليؤمنوا ، فكان من الطبيعى أن يدعو الرسول الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن وحين كان يشق عليه عناد المشركين وإعراض المكذبين ، كانت الآيات القرآنية تنزل عليه لتخفف عنه هذه المشقة ، وتثبت قدميه على طريق الدعوة ، وتوضح له حدود رسالته التى هى البلاغ وليست الإكراه : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ (٢) . ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (٣) .

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (٤) .

فكان السلام بين يدى الدعوة الى الإسلام يمهدها الطريق إلى القلوب ، ويفتح لها مجال المحاوره الهادئة التى يمكن أن نستشفها من مثل قول الله عز وجل : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (٥) .

فالدعوة هى إلى (كلمة سواء) ... أى هادئة عادلة ، والغاية هى تحرير الفرد من عبادة الإنسان الى عبادة الله ، والنهاية هى المخاصمة السلمية : يعرض فيها أهل

(١) البقرة : ٢٥١ .

(٣) الكهف : ٦

(٢) طه : ٣ ، ٢ ، ١ .

(٤) يونس : ٩٩ .

(٥) آل عمران : ٦٤ .

الكتاب فيعلن فيها المسلمون تمسكهم بالإسلام ، ولكن هذه الدعوة المسالمة ، كغيرها من الدعوات ، لا تستقر لها الطبيعة ، ولا تنفسح لها الأرض ، ولكن يضع المكذبون فى طريقها الأحجار وبيذرون أمام دعائها الأشواك ، وهنا يأذن الله لعباده أن يمهّدوا الطريق لدينه ، وأن يزيلوا العقبات من طريقه ، وأن يهيئوا البيئة الصالحة لانتشار دعوته ، وحينئذ فلا مناص من الاشتباك ، ولا مفر من الحرب وقد : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (١) .

وقد عرّفت الآية المؤمنين بأنهم هم ﴿ الذين يقاتلون ﴾ وبينت المبرر للأذن بالقتال بأنهم ظلموا ، ووضحت الراية التى يقاتلون تحتها وهى قولهم ﴿ ربنا الله ﴾ . ولا توجد فى القرآن آية واحدة تدل على أن القتال فى الإسلام قد شرع لحمل الناس على اعتناقه ، وإنما كان سببه ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين ، حتى الآيات التى تحت المؤمنين على القتال تحمل فى ثناياها ما يشير الى أنهم مدافعون وليسوا مهاجمين ، اقرءوا قول الله عز وجل ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ... وهمو بإخراج الرسول ... وهم بدعواكم أول مرة ﴾ (٢) . وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ... ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٣) وإذا كان الإسلام قد أذن لأتباعه بالقتال فى بعض الظروف التى لا مناص من القتال فيها (والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا فالجرب أجدى على الدنيا من السلم) .

فإنه قد وضع لهم دستورا فى الحرب ، يصلح أن يكون دستورا للإنسانية كلها لما فيه من رحمة بالضعفاء ، وتكريم للإنسان الذى كرمه الله ، وتحديثا كتب السيرة أن

(١) الحج : ٤٠ ، ٣٩ .

(٢) التوبة . ١٣ / ١٢ .

(٣) البقرة : ١٩٠ .

سعد بن عبادة صاح يوم فتح مكة فى وجه أبى سفيان بقوله : (اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا) فصحيح الرسول هذا القول وقال : يا أبا سفيان : اليوم يوم الرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشا. وأرسل الى سعد فعزله .
ولا عجب فى ذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : (أعفّ الناس قتلة أهل الإيمان ^(١)) .

وإذا كان الرسول قال ذلك وهو نبي الإسلام ، فلقد قال (جيون) . وهو من كتاب الغرب (ان الحملة الصليبية قد تركت فى التاريخ أقسى ما عرف من التعصب لا ضد المسلمين فحسب بل ضد مسيحيّ الشرق ، ويكفى أنهم يوم استيلائهم على بيت المقدس ذبحوا سبعين ألف مسلم من بينهم الشيوخ و الأطفال والنساء ويتبين الفرق الشاسع بين هذه الصورة وبين تعاليم الإسلام الى المقاتلين المسلمين بألا يقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ، والا يجهزوا على جريح بل وألا يقطعوا شجرة يستظل بها ابن السبيل ذلكم هو الإسلام ... انساني فى حروبه كما هو انساني فى سلمه.

مجتمع النظافة والنظام

إن من أبرز المظاهر الحضارية للمجتمعات الحديثة ، نظافتها الظاهرة وهى تدل على طبيعتها النقية الصافية ونظامها الملتزم ، وهو يشير إلى بنيانها المتلاحم المتناسق ، وكلا الأمرين . (النظافة و النظام) إن كان مظهرها تراه العين ، وتحسه الجوارح ، فهو قبل ذلك حقيقة مستقرة فى النفوس ، كامنه فى الطبائع ، ثم هى منعكسة بعد ذلك على كل ما حولنا من مظاهر الحياة .

وإن التوجيهات التربوية لتتصف إذ تجعل من الدروس العلمية التى توجه بها سلوك النشء فى مدارسهم الأولى أن يحرصوا على نظافة ملابسهم كما يحرصون على نظافة وجوههم ، وأن يحافظوا على نظام عملهم كما يحافظون على نظام صفوفهم ، وهى فى سبيل المحافظة على النظافة والنظام ترصد الجوائز لأكثر الأبناء أخذا بقواعد النظافة

(١) أخرجه ابن ماجه وأبو داود .

والتزاماً بأصول النظام ، بل إنها لتجعل لذلك يوماً تسميه (يوم النظافة) أو (يوم النظام) .

وإذا كان ذلك مظهراً من مظاهر الحصارا وعنوانا من عناوين المدنية ، فإنه أسس من أسس ديننا الحنيف ... الإسلام ... ، لأنه يجعل النظافة والنظام مظهرين من الخارج .

ولكنهما نابعان من فطرة نفسية منبعثة عن الداخل ، فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لينظف العقائد من الزيف ، والنفوس من الفساد ، والفطر من الالتواء ، فدعا إلى عبادة الله الواحد ونبذ ما عداها من العبادات التي لوثت العقول وأفشلت الأفهام ، ولعل في ذلك تفسير كلمة الحنيفة ، وهي الخالصة النقية الطاهرة من شوائب الرجس والدنس وفي هذا المجال يقول الله عز وجل : ﴿ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حَنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ (٢) .

والتأمل للعبادات في الإسلام يجد أنها تعود المسلمين النظافة وتدريبهم على النظام ، ننظر مثلاً إلى الصلاة ففيها الالتزام بالوقت ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ ، والانتظام في صفوف مستقيمة فإن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج ، والطاعة الواعية للقائد وهو الإمام مهما كان فما جعل الإمام إلا ليؤتم به وإن المسلم لا يدخل إليها إلا عن طريق الوضوء حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يقبل الله صلاة

أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ) (٣) .

والوضوء نفسه طهارة للنفس ونظافة للجوارح ، فإنه (إذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه ، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه وهكذا حتى

(١) الحج : ٢٠ - ٢١ .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي .

(٣) من معنى حديث طويل رواه مالك والنسائي وابن ماجه والحاكم .

يخرج نقيًا من الذنوب^(١).

ليست العبادات في الإسلام هي المجال الوحيد للنظافة والنظام ، بل إن المسلم مأمور أن يلتزم بهما في كل أحواله ، وأن يجعلها من عاداته في كل أموره ، وأن يحرص حتى على زينته ومظهره إن تأهب للذهاب إلى المسجد سمع قول الله عز وجل : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وسمع صوت الرسول يحذره من إيذاء المصلين بالروائح الكريهة (من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مساجدنا يؤذينا بريح الثوم) وعن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته) . وإن جلس بين الناس جلس بمظهر جميل وسمت كريم ، فعن زيد بن أسلم أن عطاء بن يسار أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان في المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية ، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن أخرج كأنه يعنى إصلاح شعر رأسه ولحيته ، ففعل الرجل ثم رجع ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان !) .

إن أكثر المشكلات التي تواجهنا اليوم في مجتمعنا ترجع إلى عدم النظافة أو سوء النظام ، وهذه المشكلات تجابهنا في الطرقات والمرافق العامة ، والمواصلات ولنا نحتاج في حلها إلى قانون صارم بقدر ما نحتاج إلى وعي رشيد ، والنظافة والنظام وغيرهما من مبادئ الأخلاق سلوك عملي صادر عن اقتناع شخصي فليقنع كل منا نفسه بهذه المبادئ وليأخذ كل منا نفسه وأهله بهذا السلوك ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

الرزق الحلال الطيب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن المؤمنين مكلفون بأن يتخلقوا بأخلاق الله ، فيتحرون الطيب ويتجنبون الخبيث ، وقد خلق الله لنا ما فى الأرض جميعا ، وأودع فىنا حاسة فطرية تفرز ثم تقبل أو ترفض ، وهذه الحاسة خاصية نبيلة فى نفس الإنسان ومشاعره ، فهو يميل إلى الشيء تبعا لهذه الحاسة ، وينفر من الشيء الآخر تبعا لهذه الحاسة ، وليس على المرء حرج فيما أحب أو كره ما لم يأمر بمعصية أو يقترب ذنبا .

ولقد جاء فى سبب نزول هاتين الآيتين أن أناسا من اصحاب رسول الله ﷺ قد أرادوا أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء ويتزهبوا فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم مقاله ثم قال " إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به ، وحجوا واعتمرُوا واستقيموا يستقم بكم " قال ونزلت فيهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٢) .

وإذا كان الله سبحانه هو الرزاق ، وكان الناس هم محل رزقه ، فأنهم يجب أن يتقبلوا هذا الرزق بقبول حسن ، وأن يستقبلوا نعمة الله بالشكر لتدوم هذه النعمة وتزيد فان الله عز وجل يقول فى كتابه " لئن شكرتم لأزيدنكم " .

وغايه ما فى الامر أن يتحرى المؤمن الرزق الحلال ، والا يقذف إلى جوفه الا طعاما طيبا وشرابا طيبا ، وألا يضع على جسده الا ثوبا طاهرا من مصدر حلال ، فانه بهذا القصد الصالح والنيه الكريمه تتم نعمة الله على الإنسان ، ويتنزل عليه رزق الله

(١) المائدة / ٨٧- ٨٨ .

(٢) أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر عن أبى قلابه .

الحلال فلقد ذكر النبي ﷺ رجلاً مطعمه من حرام ومشربه من حرام وملبسه من حرام
ثم أنه يمد يديه إلى السماء قائلاً : يارب يارب .. يقول الرسول " فأنى
يستجاب له ؟ (١)

أى كيف يستجيب الله لمثل هذا الرجل وهو لا يتحرى الحلال فى كل أموره
ولقد قيدت الآيه الرزق الحسن الذى يحب أن يتمتع به الإنسان بأنه طيب ، وبأنه قد أحله
الله . فما دام هو طيباً فإن الطباع السليمة تقبل عليه ، وما دام الله قد أحله فيجب الا
يجرمه الإنسان .

ولقد فتن كثير من العباد والمتصوفة بتعذيب النفس وحرمانها من الملذات ،
وكانوا فى ذلك . دون قصد - مقلدين للعباد من بنى اسرائيل ورهبان النصارى الذين
ابتدعوا رهبانية فكتبوها على أنفسهم وما كتبها الله ، ﴿ فما رعوها حق رعايتها فاتينا
الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ (٢) .

وقد زعم بعض هؤلاء المتنسكين أن النفس لا تزكو الا بحرمان الجسد من الملذات
والبعد عن كل أنواع الزينه والمتعة .

ولكن الاسلام قد جاء يخاطب الإنسان ويتفاهم مع طبيعته ، ومن ثم فقد كان
دينا وسطاً لا إفراط فيه ولا تفريط : فهو لم يدع أتباعه إلى الإنغماس فى الملذات
والإنسياق وراء الشهوات حتى ينسوا أنفسهم ورسالتهم التى خلقوا من أجلها ، ولم
يضرع عليهم نطاقاً من الحرمان والشظف حتى تقصر طاقتهم عن تحمل أعبائه ، ولكنه
نظم لهم ذلك ومدح الذين توسطوا فلم يسرفوا ولم يقتروا حيث قال عن عباد الرحمن "
والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً " (٣)

وقد أرشدهم إلى اعطاء البدن حقه والروح حقها ، لأن الإنسان مركب من روح
وجسد فيجب العدل بينهما ، وبذلك يتم الكمال البشرى ، وتكون الأمة الإسلامية هى

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى .

(٢) الحديد / ٢٧ .

(٣) الفرقان / ٦٧ .

الأمة الوسط فلا هي عذبت نفسها بالحرمان حتى شقيت بهذا العذاب ولا هي انغمست في ملذاتها حتى صارت أسير الشهوات .

وقد يقال في هذا المجال أن صحابه رسول الله ﷺ رضوان عليهم كانوا يعيشون حياة خشنة فيها من الشظف أكثر مما فيها من الترف ، وفيها من البؤس أكثر مما فيها من النعيم ، وقد حرموا أنفسهم من طيبات الحياة الدنيا ..

والإجابة عن ذلك أن هؤلاء الصحابه لم يكونوا على درجة واحدة من الغنى وبسطة الحال ، وأن الموسورين منهم كانوا ينفقون عملاً بقوله تعالى : " لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله : ^(١) " وأما أبوبكر وعمر فقد فرض لهما بيت المال بقدر ما فرض لأوساط الناس .. لا للموسورين ولا للمعسرين ، فكانا يتقشفان ليكونا قدوة لغيرهما من العمال والولاة ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ويرى أنه بهذا يستبقى ثوابه كاملاً عند الله ، فكان يقول أخشى أن يقول الله لى يوم القيامة : " أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها " ^(٢) وهذا اتجاه ألزم عمر به نفسه ولم يلزمه به أحد ، وما كان الله ليحرم طيبات الحياة الدنيا وهى مطروحة أمام الأعين ومبسوطة أمام النفوس : ﴿ قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ . " ^(٣) .

والسؤال هنا - كما يقولون للاستنكار ، أى أن الله لم يحرم على عباده زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق ، ولكن علينا أن نتأمل وصف نعم الله بالطيبات لنخرج من هذا التأمل فتتحرى الطيب الذى جعله الله حلالاً ودعا عباده إلى التمتع به ، والطيب من الرزق كالطيب من الثمار وهو ما نضج وطاب اكله وأصبح مستساغاً .. والرزق الحرام يفور بالجسد ثم يغور به ، ويهيج بالمظهر ثم يكون حطاماً ، ﴿ كمثل غيث أعجب

^(١) الطلاق / ٧ .

^(٢) الأحقاف / ٢١ .

^(٣) الأعراف / ٣٢ .

الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفى الأخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴿١﴾ .

وإذا كانت الآية قد أباحت الطيبات من الرزق ودعت المسلمين الى التمتع بها ، فانها بمضمونها قد حرمت السحت من الطعام والشراب ونفرت المؤمنين منه ، وهى بذلك تكون ملكة الإحساس بالحلال والحرام فى نفوس المؤمنين ، وإذا تكونت هذه الملكة النفسية حدد المؤمنون طريقهم فى الحياة : فخلصوا رزقهم من الحرام ، وخلصوا معاملاتهم من الغش ، وخلصوا أقوالهم من الرياء والنفاق .

وإذا كانت الآية قد نهت المؤمنين عن تحريم طيبات ما أحل الله من الرزق ، فقد نهتهم أيضاً عن الاعتداء " ان الله لا يحب المعتدين " ، والاعتداء بالاضافة إلى الإنتهاب واكل الحرام . هو الاسراف فى التمتع وتجاوز الحدود فى الاخذ من الطيبات وقد يستمرئ الإنسان المتعة الحلال فيتجاوزها إلى المتع الحرام ، فلا بد أن يكون له ضابط يحدد تصرفاته ، ولا بد ان تكون له حدود لا يتعداها ولا يتخطاها " ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه " (٢)

ولما نهى الله عن تحريم الطيبات بقوله ﴿ ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ أمر بعد ذلك بضد مقتضى النهى الذى قبله فقال : وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا " أى كلوا مما رزقكم الله تعالى اياه حال كونه حلالا فى نفسه غير داخل فيما حرمه عليكم . من الميتة بأنواعها والدم المسفوح ولحم الخنزير . حلالا فى طريقه كسبه وتناوله ، فلا يكون ربا أو سحتا أو سرقة .

ونيس يرد بإباحة الأكل هنا إباحة الطعام فقط ، بل تناول كل ما هو حلال من طعام وشراب وغيرهما ، ولكنه عبر بالأكل لأنه هو الغالب ولأن الطعام هو الشئ المادى الملموس الذى يدخل إلى الجوف فيقوى الجسم وينميه ، وقد عبر بالاكل فى غير هذا

(١) الحديد / ٢٠

(٢) الحديد / ١

الموضع بقوله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ ^(١) ، وقوله " لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مضاعفةً " ^(٢) .

ولقد اقتضت حكمه الله أن يقبل عباده نعمه فيستعملوها فيما وضعت له ، ويشكروه عليها فيزيدهم خيراً وبركة ، وذلك لأن الكفار يسيئون استعمال النعمة فتحول عليهم نعمة وتصير عليهم وبالاً ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً واحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ ^(٣) ويكره الله لعباده أن يجنوا على الفطرة التي فطرهم عليها فيمنعوها حقوقها ويحرموها التمتع بالطيبات والكفار يتمتعون بما طاب وبما خبث ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ ^(٤) ، كما يكره لهم أيضاً أن يفرطوا فيها باستباحة ما حرمه أو ترك ما فرضه ، ولذلك فإنه لم يكتف بالنهي عن التحريم حتى أمر باستعمالها والتمتع بها ، ودعا إلى الشكر على ذلك بالقول والعمل وإن الامتثال بهذا النهى وهذا الأمر ليتحقق بالتمتع الفعلى بما أحل الله دون إحساس بالحرج أو ميل إلى الحرمان ، بل لا بد أن يطيب المؤمن نفسه بهذا الامتثال ، لانه حين يمتثل لأمر الله فيتمتع بما أحل الله إنما ينفذ أمراً فيه مرضاة الله ورجاء أجره ومثوبته ، حتى إذا وجب عليه الشكر وجب لاستعماله النعمة وإحساسه بفضل الله عليه فى اجراء الرزق الحلال وهذا خير من عبد حرم نفسه مع ميله الفطرى ، وامتنع مع رغبته الشديدة وانعكس عليه ذلك ضيقاً وتبرماً أن لم يترجم عنه فى الظاهر فإنه يحس به شعوراً فى الداخل ، وقد ينهزم أمام هذا الشعور فى بعض الأوقات فتتخطم مقاومته ، ويشتد نهمه ، ويخطم الحواجز ما بين الحرام والحلال . وقد كان رسول الله ﷺ يتفقد أحوال أصحابه ، ويأخذهم إلى جادة الطريق إذا هم أسرفوا فى الفهم ، ويهون عليهم العبادة إذا هم اشتدوا على انفسهم ، فلقد أخرج البخارى والترمذى عن ابى جحيفة قال : " آخى

^(١) البقرة / ١٨٨ .

^(٢) آل عمران / ١٣٠ .

^(٣) ابراهيم / ٢٨ .

^(٤) محمد / ١٢ .

رسول الله ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان ابا الدرداء ، فرأى ام الدرداء متبذله فقال لها : ما شأنك قالت : اخوك ابوالدرداء ليس له حاجة فى الدنيا فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال : كل فانى صائم ، قال : ما أنا بأكل حتى تأكل ، فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم .. فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم فلما كان من آخر الليل قال سليمان : قم الآن . فصليا ، فقال له سلمان : ان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى ﷺ فذكر - ذلك له فقال : صدق سلمان" فهذا درس فى واقعية الاسلام ومعقوليته فى مخاطبة اتباعه : فهو لا يشق عليهم فى التكاليف ، ولا يترخص معهم فى العبادات ، لا يطلق لهم عنان الغرائز فينغمسوا فى الشهوات ، ولا يلجم فطرتهم البشرية بقسوة الحرمان فيسقطوا فى الطريق ولكنه يحرص على تطهير اجسادهم من السحت كما يحرص على تطهير عقائدهم من الشرك ، ولذلك كله عنوان واحد " النظافة " .. نظافة الضمير ، صفاء المخير ونضارة المظهر وكثير من الناس لا يربطون بين القصد الحلال والبركة فى الرزق ، فيأكلون ولا يبحثون من أين حصلوا على الطعام ، ويشربون ولا يسألون ما مصدر الشراب ، ويلبسون ولا يتحرون طريقة الحصول على الكساء ، ولا يمنعهم ذلك أن يسألوا الله مع السائلين وأن يدعوهم مع الداعين ، وقد يظنون أنهم بركات خاطفة وسجدة سريعة آخر النهار يحسون ما اقترفوه فى اوله ، وقد وهموا فى هذا الظن ، فان الله لا ينخدع ، لأنه لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء ولا يتقبل الدعاء الا من المتيقن ، وهو سبحانه . إن اباح لعباده أن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا ، فانه يذكرهم دائما به ليتمثلوا رقبته فيطلبوا رضاه ، ويتجنبوا سخطه ، فهو يقول لهم بعد أمرهم بأكل الحلال الطيب : ﴿ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ وحين ينخدع بعض البسطاء بمظاهر الثروة الفاحشة تاتى من حرام ولكنها تزيد وتزيد .. يذكرهم الله بأصل هذه الثروة الشاذة ومصيرها فيقول : " ولا تعجبك اموالهم وأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون " .

مجتمع الحب والتالف

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾^(١).

إن محبة الله ورسوله هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون وهي قوة القلوب وغذاء الأرواح ، وهي روح الإيمان والأعمال هي التي تصل بالمحبين الى رتبة الواصلين ، وتبوئهم مقاعد الصديقين.

ولقد ذهب أهل محبة الله ورسوله بشرف الدنيا وثواب الآخرة ، لأن القلوب إذا كانت قد جبلت على حب من أحسن إليها ، وإذا كان الإنسان يحب من منحه في الدنيا معروفا أو صنع به جميلا ، أو دفع عنه مضرة فما بالك بمن منحه منحا لا تبعد ولا تزول أبدا ، ووقاه من عذاب أليم لا يفنى ولا يحول .

وإذا كان المرء يحب غيره لحسن عشرته أو لحמיד سيرته ، فكيف بالنبي الكريم الذى شهد له ربه بحسن الخلق حيث قال : (وإنك لعلی خلق عظیم)^(٢) ، فقد أخرجنا الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وأسبغ علينا بسببه نعمه ظاهرة وباطنة ، فاستحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأكمل من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين .

يقول الله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾^(٣).

(١) النساء : ٦٩ / ٧٠ .

(٢) القلم : ٤

(٣) التوبة : ٢٤ .

وليس حب المؤمنين لنبيهم حب جماعة لرعيهم أو طائفة لرئيسهم ، وإنما هو حب أتباع الرسالة لمبلغ الرسالة ، وحب حملة المبادئ لمعلم المبادئ ، وهو فى النهاية حب يتعلق بالعقيدة أكثر مما يتعلق بالدنيا ، ويتصل بالدين أكثر مما يتصل بالأشخاص ، وينتسب إلى الله أكثر مما ينتسب إلى العباد .

ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاء رجل إلى النبی صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله . إنك لأحب إلى من نفسى ، وإنك لأحب إلى من أهلى ، وإنك لأحب إلى من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتیک فأنظر إليك ، فإذا ذكرت موتى وموتك ، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت وخشيت ألا أراك ، فلم يرد عليه النبی صلى الله عليه وسلم شيئاً ، حتى نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾^(١) .

وإننا لنجد ألواناً من تعلق التلاميذ بأساتذتهم ، وحب الأمم لزعمائهم ، وفناء الأتباع فى معلمهم فلا نعجب من ذلك ، لأنه لون من الوفاء وتعبير عن الحب المتجرد الذى يتصف به الإنسان حين تصفو روحه وترق مشاعره . ولقد اجتمعت فى شخصية النبی صلى الله عليه وسلم صفات المحبوبين جميعها ، والتقت فيه ملامح العظمة والإنسانية فجذبت إليه القلوب من كل اتجاه ، فلقد تمتع بصفات خلقية قبل البعثة سُمى من أجلها بالصادق الأمين ، واختاره ربه للرسالة فدق بها على مغاليق القلوب ، وقاد المسلمين بهذه الرسالة فنقلهم من الظلمات إلى النور ، وكان بهذه الصفات إنساناً وقائداً ورسولاً ، وكان حب المؤمنين له عبادة يتقربون بها إلى الله ، وكان القرآن يركى هذا الحب حين يجلى صورة النبی فى نفس المؤمنين بقوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم)^(٢) .

ولعل من اكتمال معانى الإيمان فى نفس المؤمن أن يحب رسول الله ، لأنه بحبه

(١) رواه أبو نعيم . (٢) التوبة : ١٢٨ .

يحب الرسالة التي بعث بها ويدلل على حبه لله الذي بعثه ، فالله عز وجل يقول ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فأطيعوا ما يوحى إليكم من ربكم ، ولعلكم تحبون الله ﴾ (١) . فإن الحب حريص على معرفة المحبوب ومعرفة ما يأمر به وينهى عنه ، ليقترب إليه بمعرفة قدره وأمثال أمره مع إجتناّب نهيه ، ويكون بذلك أهلاً لمحبة الله سبحانه ، ومستحقاً لأن يغفر له ذنوبه .

ولقد يغفر كثير من المنافقين والفساق والعصاة أنفسهم فيدعون أنهم يحبون رسول الله ، ويطمعون أن يدخلوا الجنة بهذا الحب الموهوم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المرء مع من أحب) (٢) . وكذب هؤلاء المخدوعون ، لأنهم لو أحبوه لاتبعوه ، ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ، وفي مثلهم يقول الله عز وجل : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : سيغفر لنا ، وإن يأثمهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون : أفلا تعقلون ﴾ (٣) . وحب المؤمنين لرسول الله طاعة لله ولرسوله ، وهذه الطاعة هي التي يدخل فيها إشار حكم الله ورسوله على حكم الطاغوت من أهل الأهواء وهي التي نتعلم منها أن العمل من أركان الإيمان الصحيح ، لأن الإيمان يتوقف على الإذعان في الظاهر والباطن لحكم الله ورسوله ، حتى يستجيب المؤمن لهذا الحكم فيرضى به قلبه ، وتسلم به نفسه ، ويكون هواه تبعاً لما جاء به نبيه ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (٤) .

فهو الإيمان وهو الطاعة ، وهو الحب كذلك ، وهذه الدرجة من فقه معنى الحب لرسول الله عاليه ، ومن ثم فإن الذي ينالها ليحشر مع الأنبياء هم الصديقون

(١) آل عمران : ٣١ .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) الأعراف : ١٦٩ .

(٤) النساء / ٦٥ .

فالصديقون هم الذين زكت فطرتهم وصفت سرائرهم فميزوا بين الخير والشر ، حين يعرض لهم ، ولقد نقل عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه بمجرد ما بلغته دعوة النبى صلى الله عليه وسلم عرف أنها الحق وقبلها وصدق بها ، ولقد وردت الأحاديث الصحاح فى تصديقه للنبي صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس ، ففى حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : (ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له نظيرة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم) . فلما كانت مرتبة أبى بكر من مرتبة النبى صلى الله عليه وسلم فى الصدق وتحرى الحق وإثاره على الباطل ، كان السابق إلى تصديقه ، وبذل ماله ونفسه فى نصره ، ولقد سمي الله الدين صدقا فى قوله :

﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾^(١) . وأما الشهداء فإنهم ليسوا فقط المقتولين فى سبيل الله ، وإنما هم أهل العدل والإنصاف الذين يؤيدون الحق بالشهادة لأهله ، بأنهم محقون ، ويشهدون على أهل الباطل بأنهم مبطلون ، وهم الذين أمرنا الله ان نكون منهم فى قوله : ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ .

وتلك منزلة عالية تسمو نفوس المؤمنين بها درجات ، لأنها جهر بالحق فى مواجهة الباطل ، والتزام لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغه دعوة الله إلى عباد الله عملا بقول الله عز وجل ﴿ فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾^(٢) .
والصالحون هم الذين صلحت نفوسهم وأعمالهم ، وغلبت حسناتهم على سيئاتهم ولم يصروا على الذنب وهم يعلمون ، وأولئك أيضا يجمعهم الله فى جنته مع أنبيائه ، لأنهم عرفوا الله فى الدنيا فعرفهم فى الآخرة ، وأحبوا رسول الله فأحبوا رسالته ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ...

فكان هؤلاء جميعا صفوة الله من عباده ، ومن أطاع الله ورسوله كان معهم

(١) الزمر : ٣٣ .

(٢) الحجر : ٩٤ .

ومن أحب الله ورسوله وعمل بمقتضى هذا الحب حشر معهم .
وإذن فإن محبة الله محبة لدينه ، ومحبة رسول الله اتباع لمنهجه ، وترسم لطريقه ،
فلا يكون هذا الحب ادعاء لا أساس له من العمل ، ولا يكون الانتماء الى المسلمين تعصبا
لا أساس له من التقوى ، ولا يكون التعلق برسول الله عاطفة لا أساس لها من اليقين .
فإن الإسلام يربط الإيمان دائما بالعمل ، ويبنى العمل دائما على الصدق وقيم
بناء الجماعة المسلمة على التكافل والتناصر ، والصدق والتناصح ، لا على العصبية ولا
على الجاهلية .

وإذا تلونت العصبية الآن بالقومية أو الإقليمية ، فإن العقيدة تظل هى الرباط
بين المسلمين ، تذكر القريب فيهم بالبعيد ، وتربط القوى فيهم بالضعيف ، وتجعلهم
بالنسب الربانى خير أمة أخرجت للناس : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾

فهرست

ص

الموضوع

٣

المقدمة

القيم الإنسانية ومناهج المفسرين

٧	إلمامة بالمناهج التفسيرية
٩	التحرج في تفسير القرآن
١٠	تفسير القرآن بالمأثور
١٢	تفسير القرآن بالرأى
١٥	تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة
٢٢	من نماذج القيم الإسلامية
٢٣	تكوين القيم من خلال بناء العقيدة
٢٤	ضرورة الدين للحياة في كل العصور
٢٩	تكریم الإنسان فی ظل الإسلام

من قيم الدين والتدين

٣٨	الدعوة التامة
٣٩	القرآن والإنسان
٤٢	القرآن ومدلول التطور الحضارى
٤٢	دور الأديان في حياة الإنسان
٤٣	حقيقة علاقة الإنسان بالدين
٤٤	التطور في العرف والدين
٤٧	الدين والحياة
٤٨	ظاهرة الإنصراف عن الدين
٤٨	نحو جيل متدين

ص	الموضوع
٤٩	القرآن وحضارة الإنسان
٥٦	التدين والحضارة
٥٦	حضارة الصومود
٦٣	حضارة الإستقامة على المنهج
	التدين التزام وسلوك
٧٠	الإخلاص لله ورسوله وعبادة
٨٠	القصد حتى في العبادة
٨٧	الثقة بالله وحسن التوكل عليه
٩١	حب المؤمنين لله ورسوله
	علاقة المخلوق بالخالق
٩٦	معصية العبد وتوبة الله عليه
١٠٢	كسب المخلوق في ظل مشيئة الخالق
١٠٦	العدالة شريعة الله
١١٠	إحساس المؤمنين بعدالة الله في الثواب والعقاب
١١٥	الإسلام دين الإنسانية الشامل
	من القيم الخلقية للقرآن
١١٩	التربية بالأخلاق الطيبة
١١٩	حملة القرآن على النفاق والمنافقين
١٢٣	الكبر والتكبرون في تصوير القرآن
١٢٨	الإحسان إلى المسيئين
١٣٣	ملايح الأخلاق في النفوس
١٣٣	الاقتصاد في اليمين والوفاء به

ص	الموضوع
١٣٧	تهذيب الكلام وتهذيب الاستماع
١٤٢	الرضا بالرزق والعفة فى الطلب
١٤٧	أداء الأمانة من الدين
١٥٢	شكر المنعم على نعمه بالأنفاق فى سبيله
١٥٧	نعمة الصبر على البلاء

من الأخلاق الإجتماعية

١٦٣	من قيم البناء الأسرى
١٦٤	الترايط
١٦٦	الذرية الطيبة
١٦٨	تنظيم الحقوق والواجبات بين الآباء والأبناء
١٧٢	الحقوق الإنسانية

تنظيم العلاقات الإجتماعية

١٧٨	الإسلام والنظام
١٨٢	حق الجار والوصية به
١٨٧	مجتمع التواصى بالحق والصبر
١٩٣	الدعوة إلى الخير

صورة تطبيقية للقيم الاجتماعية

١٩٩	المال فى خدمة المجتمع
٢٠٣	التسامح حتى مع القتل
٢٠٦	فلسفة الحرب والسلام فى الإسلام
٢٠٨	مجتمع النظافة و النظام
٢١١	الرزق الحلال الطيب
٢١٧	مجتمع الحب والتآلف

رقم الإيداع : ٩٧ / ١٥٠١٨

I.S.B.N. 977 - 9 - 5039 - 1